مختصر منهاج القاصدين

تأليف الإمام الشيخ
أحمد بن عبد الرحمن ابن قدامة المقدسي

تحقيق
كمال علي الجمل

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٩٥٣٩

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمـــــة

أَحْمَدُ اللهَ أولاً ، حَمْداً كثيراً مُتَوالياً ؛ وإن كانَ يتضاءلُ دونَ حق جَلاله حَمد الحامدينَ .

وأُصَلى وأُسَلم عَلَى رُسُلِهِ ثانياً صلاة تَسْتَغْرِق مَعَ سَيِّد البَشَر سائِر المرسلينَ .

وأَسْتَخيره تَعَالَى ثَالثاً فيما انْبَعَثَ عَزمى مِنْ تَحقيق كِتَاب مُخْتَصَر مِنْهَاج القَاصِدِينَ .

وأَنتدبُ لقط تعجبكَ رابعاً أيها العَاذل المُتَعَالى فى العَذْل من بين زُمْرة الجَاحِدِينَ .

أما بعد . . .

فإنه لم يحظ كتاب من الكتب مثل ما حظى كتاب « إحياء علوم الدين » لشيخ الإسلام محمد بن محمد بن أحمد « أبو حامد الغزالى » (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) فقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة عند العلماء قديماً وحديثاً ، فأقبلوا عليه ينهلون من علومه، فهو موسوعة أخلاقية فريدة ، لا تكاد تجد له مثيلاً فيما ألفه الأولون فى مجال تربية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتقويم السلوك . وهو كتاب جامع لعلوم المعاملة مع الله ومع الناس .

وقد قام الحافظ الكبير زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقى إمام عصره المتوفى سنة (٨٠٦ هـ) بتخريج أحاديث الإحياء فى كتاب سماه « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار » وطبع على هامش الإحياء .

وقام شيخ الإسلام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن محمد القرشى البكرى الحافظ المعروف بابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧ هـ) باختصار كتاب الإحياء فى كتاب سماه « منهاج القاصدين » .

ثم قام العلامة نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عمر بن قدامة المقدسى الحنبلى باختصار كتاب « منهاج القاصدين » فى كتاب سماه « مختصر منهاج القاصدين » وهو الكتاب الذى نحن بصدد تحقيقه وتخريج أحاديثه ، وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات ، وقام بتحقيقه وتخريج بعض أحاديثه ، وأثاره جماعة من العلماء المجتهدين جزاهم الله خيراً على ما خلفوا فأفادوا وأجادوا .

لكن لم يكتب الكمال إلا لكتاب الله عَزَّ وجَلَّ فجاءت أعمالهم ناقصة ويؤخذ عليها بعض المآخذ ، منها أنهم لم يحددوا أماكن ورود الأحاديث والآثار فى أمهات كتب السنة فلم يذكروا موضع الأحاديث فى الكتب والأبواب ولا الجزء والصفحة ورقم الحديث حتى يتثنى للقارئ أن يصل إلى هذه الكتب ويطلع عليها بنفسه دون عناء ، ومنها : أنهم سكتوا عن أحاديث كثيرة لم يقوموا بتخريجها . ومنها : أن بعضهم اقتصر على الكلام على بعض الأحاديث الضعيفة وسكت عن أحاديث كثيرة أخرى ضعيفة .

ومن هذا وغيره عزمت بإذن الله وحوله وقدرته على إخراج هذا الكتاب فى صورة أفضل من الطبعات السابقة .

وكان عملى فى تحقيق الكتاب على النحو التالى :

١ - قمت بتخريج الأحاديث والآثار من كتب السنة الأصلية ، مبيناً الكتاب والجزء والصفحة ، ورقم الحديث إن وجد .

٢ - بعض الأحاديث التى لم أستطع تخريجها وذلك لقلة المصادر الحديثية الموجودة عندى قمت بعزوها إلى كتاب « المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار » للإمام الحافظ الجليل العراقى ، مستفيداً بما قام به من تخريجات جيدة للأحاديث ، وخاصة فى عزوه لكتب لا زالت مخطوطة ولم تطبع بعد وأكثرها كتب لابن أبى الدنيا ، وكتب لأبى الشيخ ، والخرائطى ، وغيرهم . وكذلك عزوت أحاديث كثيرة إلى الحافظ الكبير جلال الدين السيوطى ذكرها فى كتابه « الجامع الصغير » وحكم عليها من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف .

٣ - قمت بشرح وبيان بعض الألفاظ الغريبة والمبهمة فى الكتاب وذلك ليسهل على القارئ الكريم الوقوف عليها وإدراكها حتى تبلغ الفائدة المرجوة من التحقيق مداها.

٤ - لما كان هذا الكتاب مختصراً لكتاب لمنهاج القاصدين ، والمنهاج مختصراً لكتاب إحياء علوم الدين ، رأيت من الأفضل أن أترجم لأصحاب هذه الكتب ترجمة مختصرة حتى يتثنى للقارئ الكريم معرفة هؤلاء الأعلام ، ومعرفة الجهد الذي بذلوه لخدمة الإسلام والمسلمين من خلال تصانيفهم الكثيرة .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

فإن كنت قد وُفقت فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى ، فإنى أعتذر إلى الله عَزَّ وجَلَّ بأنى طالب علم أجتهد فيما فيه مجال لذلك ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أدعو الله عَزَّ وجَلَّ أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله فى ميزان حسناتى ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

المحقق

أبو آلاء / كمال على على الجمل

* * *

ترجمة الإمام الغزالى صاحب كتاب الإحياء

هو : حجة الإسلام ومحجة الدين الإمام محمد بن أحمد « أبو حامد الغزالى »

● مولده ونشأته :

كان مولده سنة خمسين وأربعمائة بطوس ، فى بيت يعمل صاحبه وهو والده بغزل الصوف وبيعه ، وكان أبوه فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده .

بدأ الغزالى حياته بطلب الفقه والعلم النافع ، فتفقه على أحمد بن محمد الراذكانى، ثم رحل إلى نيسابور ولازم فيها إمام الحرمين ، وجد واجتهد حتى برع فى شتى العلوم ، ثم إنه أقام على التدريس وتعليم العلم مدة طويلة ، فشددت إليه الرحال من شتى البقاع ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا ، فرفض ما فيها من التقدم والجاه ، وترك كل ذلك وراء ظهره ، وقصد بيت الله الحرام ، فحج وتوجه إلى الشام وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق ، واعتكف فى زاويته بالجامع الأموى ، المعروفة بالغزالية - اليوم - نسبة إليه .

● زهده :

كان الإمام الغزالى زاهداً ورعاً ، خشن الثياب ، قليل الطعام والشراب ، أخذ فى تصنيف الإحياء ، فصار يطوف المشاهد ، ويزور الترب والمساجد ، ويأوى إلى القفار، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادة إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لكل موجود ، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن .

● ثناء العلماء عليه :

أثنى العلماء على الإمام الغزالى أجمل الثناء وأحسنه ، فقد قال الإمام محرر بن يحيى : الغزالى هو الشافعى الثانى - يعنى أنه كان فقيهاً كبيراً محدثاً غزيراً - وقال أسعد الميهنى : لا يصل إلى معرفة علم الغزالى وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال فى عقله .

● **مصفناته رضى الله عنه :**

من تصانيف الإمام الغزالى : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة والمستصفى ، والمنخول ، وتحصين الأدلة ، وشفاء العليل ، والأسماء الحسنى ، والرد على الباطنية ، ومنهاج العابدين ، وإحياء علوم الدين . وغير ذلك من الكتب .

● **وفاته رحمة الله عليه :**

توفى بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة من الهجرة .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته

آمين

❋ ❋ ❋

ترجمة الإمام ابن الجوزى صاحب كتاب « منهاج القاصدين »

● اسمه :

هو شيخ الإسلام : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على القرشى ، الحافظ ، المفسر ، الفقيه ، الواعظ ، المعروف بابن الجوزى .

● سبب تسميته بابن الجوزى :

اختلف فى ذلك ، فقيل : هو نسبة إلى موضع يقال له : فرضة الجوز ، وقيل : نسبة إلى محلة بالبصرة ، تسمى محلة الجوز ، وقيل : كان بداره فى واسط جوزة لم يكن بواسط جوزة سواها ، وقيل : غير ذلك .

● مولده :

قال ابن الأثير : كان مولده سنة ٥١٠ هـ ، وأما الحنبلى فذكر اختلافاً فى مولده فقال : قيل سنة ثمان وخمسمائة ، وقيل : سنة تسع ، وقيل : سنة عشر .

● نشأته وطلبه للعلم :

كان والده يعمل بصناعة النحاس ، وقد توفى وهو صغير لم يتجاوز الثالثة من عمره ، ثم بدأ فى حفظ كتاب الله تعالى فقرأه على جماعة على أئمة القراء ، وحفظ الحواشى والمتون ، وأقبل بعد ذلك على سماع أمهات كتب الحديث ، فسمع صحيح البخارى ومسلم ، والمسند ، وجامع الترمذى ، وقرأ الفقه والخلاف ، والجدل والأصول والأدب ثم اشتهر أمره ، وأخذ فى التصنيف والجمع ، وبورك فى عمره وعلمه ، فروى الكثير ، وسمع الناس منه أكثر من ستين سنة .

● صفاته وأخلاقه :

كان من أحسن الناس كلاماً ، وأعذبهم لساناً ، وأجودهم بياناً ، قال الموفق عبد اللطيف : كان ابن الجوزى لطيف الصورة ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، وكان يراعى حفظ صحته ، وما يفيد عقله وذهنه .

● ثناء العلماء عليه :

قال سبطه أبو المظفر : أقل ما كان يجلس فى مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر

عنده مائة ألف ، وأوقع الله له فى القلوب القبول والهيبة ، أسلم على يديه « عشرون ألف » يهودى ونصرانى .

وقال الشيخ موفق الدين المقدسى : كان ابن الجوزى إمام عصره فى الوعظ وصنف فى فنون العلم تصانيف حسنة ، وكان حافظاً للحديث ، وصنف فيه .

وقال ابن البزدوى فى تاريخه : أصبح فى مذهبه إماماً يشار إليه ، وبرع فى العلوم، وتفرد بالمنثور والمنظوم ، وفاق على أدباء عصره ، وعلا على فضلاء دهره وكان أوحد زمانه .

● مصنفاته وكتبه :

قال الذهبى : ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل .

وقال ابن الحنبلى : سئل عن عددها فقال : زيادة عن ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها ما هو عشرون مجلداً ، ومنها ما هو كراس واحد . ولم يترك فناً من الفنون إلا وله فيه مصنف .

فمن كتبه : الإشارة إلى القراءة المختارة (أربعة أجزاء) ، تسير البيان فى تفسير القرآن (مجلد) ، زاد المسير فى علم التفسير (أربع مجلدات) ، تحفة الطلاب (ثلاثة أجزاء) ، الضعفاء والمتروكين (مجلد) ، العلل المتناهية (مجلدان) ، غريب الحديث (مجلد) ، اليواقيت فى الخطب (مجلد) ، المنتخب فى النوب (مجلد) تحفة الوعاظ (مجلد) ، تلبيس إبليس (مجلدان) [١] .

وفاته : بعد عمر قارب التسعين عاماً توفى الإمام الجليل ابن الجوزى يوم السبت سابع شهر رمضان المبارك ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

رحم الله ابن الجوزى ، وأحسن جزاءه ، وبلغه منازل الصديقين والأبرار .

آمين يا رب العالمين .

---

(١) ذكر الأخ الفاضل الدكتور / عبد الرحمن البر فى مقدمة تحقيقه لكتاب صيد الخاطر أكثر من مائتى كتاب للحافظ ابن الجوزى من ص ٣٣ - ٤١ ، وقد قسم كتبه إلى أقسام : قسم المصنفات فيما يتعلق بالقرآن وعلومه، وقسم فى أصول الدين ، وقسم فى علم الحديث ، وقسم فيما يتعلق بالتواريخ ، وقسم فى مصنفات الفقه ، وقسم فى علوم الوعظ وغيره . فأفاد وأجاد فجزاه الله خير الجزاء

ترجمة الإمام المقدسى صاحب مختصر منهاج القاصدين

● اسمه :

هو الإمام الجليل نجم الدين ابن الشيخ قاضى القضاة أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسى الصالحى الحنبلى .

● مولده ونشأته :

ولد فى شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وسمع الحديث ، وحفظ القرآن وجوده ، وحفظ الحواشى والمتون وتفقه على والده ، وولى القضاء فى حياة والده .

● ثناء العلماء عليه :

قال البرزالى : كان خطيب الجبل ، وقاضى القضاه ، ومدرس أكثر المدارس وشيخ الحنابلة ، وكان فقيهاً فاضلاً ، سريع الحفظ ، جيد الفهم ، كبير المكارم شهماً شجاعاً ، ولى القضاء ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، فقام به أتم قيام .

وقال اليونينى : كان مشكور السيرة فى ولايته ، وعنده معرفة بالأحكام ، وثقة نفس ، وفضيلة ، ومشاركة فى كثير من العلوم ، وكان يركب الخيل ، ويلبس السلاح ، ويحضر الغزوات ، وحج مراراً . أ هـ . وقد شهد فتح طرابلس مع السلطان الملك المنصور .

● وفاته :

توفى يوم الثلاثاء فى عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة بمنزله بقاسيون ، ودفن بجوار أبيه ، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة .

رحمه الله رحمة واسعة

* * *

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ﴾

[الكهف : ١٠]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالِم الزاهد العابد الأوحد العلامة ، نجم الدين أبو العباس أحمد ، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة ، عز الدين أبى عبد الله محمد ، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الإسلام مفتى الأنام، سيد العلماء والحكام ، شمس الدين ، أبى محمد عبد الرحمن ، ابن الشيخ الإمام العالم العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام ، أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة ، المقدسى الحنبلى رضى الله عنه :

الحمد لله الذى عم برحمته جميع العباد ، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد ، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال ، ففازوا ببلوغ المراد .

أحمده حمد معترف بجزيل الإرفاد (١) وأعوذ به من وبيل (٢) الطرد والإبعاد وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أدخرها ليوم المعاد .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، موضح طريق الهدى والسداد ، قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله الأكرمين الأجواد صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد .

وبعد : فإنى كنت وقفت مرة على كتاب : « منهاج القاصدين » للشيخ الإمام العالم الأوحد ، جمال الدين بن الجوزى ، رحمه الله تعالى ، فرأيته من أجلِّ الكتب

---

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء (انظر القاموس المحيط : ١/ ٢٩٥) .

(٢) وَبِيل : أى ثقيل وخيم (انظر مختار الصحاح ص ٧٠٧) .

وأنفعها ، وأكثرها فوائد ، فحصل عندى بموقع [1] ، ورغبت فى تحصيله ومطالعته فلما تأملته ثانياً ، وجدته فوق ما كان فى نفسى ، لكن رأيته كتاباً مبسوطاً ، فأحببت أن أعلّق منه هذا المختصر الذى قد احتوى على أكثر مقاصده ، وأجل مهماته وفوائده سوى ما ذكر فى أوائه من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع ، فإنها مشهورة فى كتب الفقه المستفيضة بين الناس ، إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك .

ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر ألافظه بعينها ، بل ذكرت بعضها بالمعنى قصداً للاختصار ، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إن كان مناسباً له والله تعالى أعلم .

وأسأل الله الكريم أن ينفعنا به ، ومن قرأه ، أو سمعه ، أو نظر فيه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يختم لنا بخير ، ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية ، وأن يسامحنا فى تقصيرنا وتفريطنا ، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقه ، فإنه حسبنا ونعم الوكيل .

قال المصنف [ابن الجوزى] رحمة الله عليه - بعد فراعه من هذه الخطبة :

أما بعد : فإنى رأيتك أيها المريد الصادق ، والعازم الجازم ، قد وطنت نفسك على التخلى عن فضول الدنيا الشاغلة ، وعزمت على الانقطاع إلى الآخرة ، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط ، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط ، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت ، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت فنظرت أى أنيس من الكتب تستصحبه فى خلوتك، وتستنطقه فى حال صمتك ، فإذا أنت تؤثر كتاب « إحياء علوم الدين » وتزعم انفراده فى جنسه ، ونفاسته فى نفسه .

فاعلم أن فى كتاب « الإحياء » آفات لا يعلمها إلا العلماء ، وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة ، وقد جعلها مرفوعة ، وإنما نقلها كما اقتراها [2] لا أنه افتراها ، ولا ينبغى التعبد بحديث موضوع ، والاغترار بلفظ مصنوع .

---

(١) فحصل عندى بموقع : أى وقع من نفسى موقع القبول .

(٢) كما اقتراها : أى كما تلقاها من غيره .

وكيف أرتضى لك أن تصلى صلوات الأيام ولياليها ، وليس فيها كلمة قالها رسول الله ﷺ .

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذى جمعه [1] ، وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام فى الفناء ، والبقاء والأمر بشدة الجوع والخروج إلى السياحة فى غير حاجة ، والدخول فى الفلاة بغير زاد ، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره [2] فى كتابى المسمى بـ « تلبيس إبليس » [3] .

وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده ، ولا يخل بفوائده ، أعتمد فيه من النقول الأصح والأشهر ، ومن المعنى الأثبت والأجود ، وأحذف ما يصلح حذفه ، وأزيد ما يصلح أن يزاد .

ثم قال بعد ذلك [ابن الجوزى] : وإذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس ، والأخذ على يدها ، فليكن وكيلك عليها العلم ، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسلم ، واحذر سبيل أحد رجلين :

عالم عرف الجدال فى الفقه واقتنع برئاسته ، أو نال القضاء فسعى فى حفظ منزلته، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته .

أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد فى جهالته ، ويتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته .

فهذان عادلان عن مناهج الصواب ، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب خادعان للمبتدئين بلامع السراب ، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذى هو جادة الاستقامة وطريق السلامة ، وسأدرج لك فى هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم .

---

(١) أى الذى جمعه صاحب إحياء علوم الدين الإمام الغزالى رحمه الله .

(٢) عواره : العَوَارُ - بالفتح وقد يضم - العيب ، يقال : سلعة ذات عوار . أى بها عيب (انظر مختار الصحاح ص ٤٦٢) .

(٣) مطبوع الآن ومشهور ، طبعته دار البيان بدمشق وغيرها وهو للإمام الجليل الحافظ « أبو الفرج ابن الجوزى » .

وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهى ، كما يفتقر إليه المبتدى ، لأن فيه أسرار العبادات والتحذير من آفات المعاملات . وقد جعله المصنف أربعة أرباع :

الأول : ربع العبادات .

والثانى : ربع العادات .

والثالث : ربع المهلكات .

والرابع : ربع المنجيات .

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتب ، وأبواب ، وفصول .

* * *

الربع الأول من الكتاب

ربع العبادات

١ - كتاب العلم وفضله وما يتعلق به

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتوى الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لا يعلمون** ﴾ [الزمر : ٩] وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ [المجادلة : ١١]. قال ابن عباس رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام ، وقال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وفى « الصحيحين » من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (١) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما : عابد، والآخر : عالم ، فقال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير»(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وفى حديث آخر : « فضل العالم على العابد كفضل ليلة البدر على سائر

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب العلم : ١/١٩٧ رقم (٧١) . ومسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٢٤ (١٧٥).

(٢) أخرجه الترمذى فى السنن ، كتاب العلم : ٥/٤٨ - ٤٩ (٢٦٨٥) . وقال حديث غريب .

الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » (١) .

وعن صفوان بن عسال رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه (٢) .

قال الخطابى : فى معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بسط الأجنحة .

الثانى : أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم .

الثالث : أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » (٣) رواه مسلم .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة » (٤) ، وفيه أخبار كثيرة .

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لعلىّ رضى الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (٥) .

وقال ابن عباس : « إن الذى يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت فى البحر » ، وروى نحو ذلك فى حديث مرفوع إلى النبى ﷺ (٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنن ، كتاب العلم : ٣/٣١٦ (٣٦٤١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى السنن فى المقدمة : ١/ ٨٢ (٢٢٦) وفى الزوائد : رجال إسناده ثقات ، إلا أن عاصم بن أبى النجود اختلط بآخره .

(٣) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء : ٤/ ٢٠٧٤ (٣٨) .

(٤) أخرجه الدارمى فى السنن فى المقدمة : ١/١١٢ (٣٥٤) عن الحسن مرفوعاً ، فالحديث مرسل ، ووصله الطبرانى فى المعجم الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف .

(٥) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٦/١٦٨ (٣٠٠٩) ، ومسلم ٤/ ١٨٧٢ (٣٤) .

(٦) يقصد الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعاً ، وقد سبق أول هذا الكتاب .

فإن قيل : ما وجه استغفار الحوت للمعلم ؟

فالجواب : أن نفع العلم يعم كل شئ حتى الحوت ، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم ، وأوصوا بالأحسان إلى كل شئ حتى إلى المذبوح والحوت ، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب [1] أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به فَعَلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[2] أخرجاه فى « الصحيحين » .

فانظر رحمك الله إلى هذا الحديث ، ما أوقعه على الخلق ، فإن الفقهاء أولى الفهم ، كمثل البقاع التى قبلت الماء فأنبتت الكلأ ، لأنهم علموا وفهموا ، وفرَّعوا وعلَّموا ، وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم ، أنهم كمثل الأجادب التى حفظت الماء فانتفع بما عندهم ، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا ، فهم العوام الجهلة .

وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

وقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة [3] .

---

(١) أجادب : أى الأرض التى لا تنبت عشباً ولا كلأ لصلابتها . والجدْب : ضد الخصب (مختار الصحاح ص ٩٤) . (٢) أخرجه البخارى فى العلم : ١/ ٢١١ (٧٩) ، ومسلم ٤/ ١٧٨٧ (١٥) .

(٣) أخرجه الخطيب البغدادى فى الفقيه والمتفقه : ١/ ١٥ ، والمنذرى فى الترغيب والترهيب : ١/ ٩٤ ، وفى تنزيه الشريعة : ١/ ٢٨١ .

وقال كعب رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن تعلم يا موسى الخير وعلمه للناس ، فإنى منور لمعلم الخير ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا بمكانهم .

فصل

(طلب العلم فريضة)

قد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [1] رواه أحمد فى « العلل » .

قال المصنف رحمه الله تعالى : اختلف الناس فى ذلك .

فقال الفقهاء : هو علم الفقه ، إذ به يعرف الحلال والحرام .

وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها .

وقالت الصوفية : هو علم الإخلاص وآفات النفوس .

وقال المتكلمون : هو علم الكلام . . إلى غير ذلك من الأقوال التى ليس فيها قول مرضٍ ، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه .

والمعاملة التى كلفها على ثلاثة أقسام :

اعتقاد ، وفعل ، وترك .

فإذا بلغ الصبى ، فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل ، لأن النبى ﷺ اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل ، فلذلك فرض الوقت ، ثم يجب عليه النظر والاستدلال .

فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة ، فإذا عاش إلى رمضان

---

(١) حسن وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١/ ٨١ (٢٢٤) ، وفى الزوائد : إسناده ضعيف ، وقال النووى : إنه ضعيف - أى سنداً - وإن كان صحيحاً - أى معنى - وحسنه المزى فى التحفة .

وجب عليه تعلم الصوم ، فإن كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك .

وأما التروك : فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال ، إذا لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه ، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، فإن كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير ، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك .

وأما الاعتقادات : فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة ، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك ، وإن كان فى بلد قد كثرت فيه البدع ، وجب عليه أن يتلقن الحق ، كما لو كان تاجراً فى بلد شاع فيه الربا ، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه .

وينبغى أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار .

فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذى هو فرض عين : ما يتعين وجوبه على الشخص .

فأما فرض الكفاية : فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان على الصحة ، والحساب فإنه ضرورى فى قسمة المواريث والوصايا وغيرها .

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج [١] أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين .

ولا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفاية ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية ، كالفلاحة والحياكة ، بل الحجامة [٢] فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله .

---

(١) الحَرَج : هو الإثم (مختار الصحاح ص ١٢٩) .

(٢) الحجامة : جرح الجبهة حتى ينزف الدم منها : كى يخفف من ألم الصداع .

وأما التعميق فى دقائق الحساب ، ودقائق الطلب وغير ذلك ، فهذا يعد فضلة لأنه يستغنى عنه .

وقد يكون بعض العلوم مباحاً ، كالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار .

وقد يكون بعضها مذموماً ، كعلم السحر ، والطلمسات ، والتلبيسات [١] .

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة ، وتنقسم إلى أصول ، وفروع ، ومقدمات ومتممات .

فالأصول : كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة.

والفروع : ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره ، كما فهم من قوله : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » [٢] أنه لا يقضى جائعاً .

والمقدمات : هى التى تجرى مجرى الآلات ، كعلم النحو واللغة ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والمتممات : كعلم القراءات ، ومخارج الحروف ، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم ، فهذه هى العلوم الشرعية ، وكلها محمودة .

فصل
فى علم المعاملة

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب ، الخوف ، والرجاء ، والرضى والصدق والإخلاص ، وغير ذلك ، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم ، كسفيان [الثورى] وأبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى، وأحمد .

---

(١) هما من أعمال المشعوذين والدجالين ، وقد قال عنهم رب العزة : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

(٢) أخرجه البخارى فى الأحكام : ١٣/١٤٦ (٧١٥٨) ومسلم ٣/١٣٤٣ (١٦) .

وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات ، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه .

وأنت تجد الفقيه يتكلم فى الظهار ، واللعان ، والسبق ، والرمى ، ويفرع التفريعات التى تمضى الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها ، ولا يتكلم فى الإخلاص ، ولا يحذر من الرياء ، وهذا عليه فرض عين ، لأن فى إهماله هلاكه والأول فرض كفاية ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس فى الإخلاص والرياء لم يمكن له الجواب ، ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمى لقال : هذا فرض كفاية ، ولقد صدق ، ولكن خفى عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً ، فهلا تشاغل به ، وإنما تبهرج [1] عليه النفس ، لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة ، لا بالحساب .

واعلم : أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت ، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح .

فمن ذلك : الفقه ، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص ، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول منطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب .

ولذلك قال الحسن [البصرى] رحمه الله : إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لهم .

فكان إطلاقهم اسم الفقه على علم الآخرة أكثر ، لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول ، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة ، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثانى : العلم ، فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته ، أى

---

(١) تبهرج عليه النفس : أى تزين له السوء وتأمره به .

نعمه وأفعاله فى عباده ، فخصوه وسموا فى الغالب المناظر فى مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار .

اللفظ الثالث : التوحيد ، وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط ، فيثمر ذلك التوكل والرضى وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام فى الأصول ، وذلك من المنكرات عند السلف .

اللفظ الرابع : التذكير والذكر ، قال الله تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وقال النبى ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » (١) ، فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوى عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات .

ومن تشاغل فى وعظه بذكر قصص الأولين ، فليعلم أن أكثر ما يحكى فى ذلك لا يثبت ، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حل تكته (٢) ، وأنه رأى يعقوب عاضاً على يده ، وأن داود جهز (٣) أوريا حتى قُتل ، فمثل هذا يضر سماعه .

وأما الشطح والطامات : فمن أشد ما يؤذى العوام ، لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق ، وعامة الحاضرين أجلاف ، بواطنهم محشوة بالشهوات وحب الصور ، فلا يحرك ذلك من قلوبهم إلا ما هو مستكن فى نفوسهم ، فيشتعل فيها نار الشهوة ، فيصيحون ، وكل ذلك فساد .

وربما احتوى الشطح على الدعاوى العريضة فى محبة الله تعالى ، وفى هذا ضرر عظيم ، وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى .

اللفظ الخامس : الحكمة ، والحكمة : العلم والعمل به .

قال ابن قتيبة رحمه الله : لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل . وقد صار هذا الاسم يطلق فى هذا الزمان على الطبيب والمنجم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٥/٤٩٧ - ٤٩٨ (٣٥٠٩) . (٢) حل تكته : أى حل رباط سرواله .
(٣) جهز أوريا : أى أرسله إلى المعركة .

فصل

فى العلوم المحمودة

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين :

الأول : محمود إلى أقصى غاياته ، وكلما كان أكثر أحسن وأفضل ، وهو العلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته ، والتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وهو البحر الذى لا يدرك غوره وإنما يحوم المحومون [1] على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم .

القسم الثانى : العلوم التى لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص ، وهى التى ذكرناها من فروض الكفايات ، فإن فى كل منها افتقاراً واستقصاء .

فكن أحد رجلين : إما مشغولاً بنفسك ، وإما لغيرك بعد الفراغ من نفسك .

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة ، كالحرص [2] ، والحسد ، والرياء ، قبل إصلاح ظاهرك ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى فى ربع المهلكات .

فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات ، فإن فى الخلق كثيراً يقومون بذلك ، فإن مهلك نفسه فى طلب صلاح غيره سفيه ، ومثله مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره .

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ، وما أبعد ذلك ، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج فى ذلك .

فابتدأ بكتاب الله عز وجل ، ثم بسنة رسوله ﷺ ، ثم بعلوم القرآن : من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه إلى غير ذلك . . .

وكذلك فى السنة ، ثم اشتغل بالفروع ، وأصول الفقه وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت .

---

(١) يحوم : أى يدور .

(٢) الحرص هنا : هو الحرص على المعصية .

ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلباً للاستقصاء ، فإن العلم كثير ، والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها ، وكل شئ يطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب .

فصل

فى عالم لم ينفعه علمه

واعلم : أن المناظرة الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة ، ولا يسلم صاحبها من كبر ، لاحتقار المقصرين عنه ، وعجب بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه ، ولا يسلم من الرياء ، لأن جمهور مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته ، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه ، فهو يذهب عمره فى العلوم التى تعين على المناظرة مما لا ينفع فى الآخرة ، كحسن اللفظ ، وحفظ النوادر .

وقد روي فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه » (١) .

باب فى آداب المعلم والمتعلم

وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أما المتعلم فينبغى له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، إذ العلم عبادة القلب .

وينبغى له قطع العلائق الشاغلة ، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق .

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شئ ، فروى عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين .

وأهديت إلى أبى بكر الأنبارى جارية ، فلما دخلت عليه تفكر فى استخراج مسألة

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ١/٦٩ (١٠٥٣) ، وعزاه للطبرانى فى الصغير وابن عدى فى الكامل ، والبيهقى جميعاً عن أبى هريرة وضعفه .

فعزبت [1] عنه ، فقال : أخرجوها إلى النحاس [2] ، فقالت : هل من ذنب ؟ قال: لا ، إلا أن قلبى اشتغل بك ، وما قدر مثلك أن يمنعنى علمى .

وعلى المتعلم أن يلقى زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب ، فيتواضع له ، ويبالغ فى خدمته .

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يأخذ بركاب [3] زيد بن ثابت رضى الله عنه ويقول هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء .

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل ، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها ، وليدع رأيه لرأى معلمه ، فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه .

قال علىّ رضى الله عنه : إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية ، وأن تجلس أمامه ، ولا تشير عنده بيدك ، ولا تغمزن بعينك ولا تكثر عليه السؤال ، ولا تعنيه فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تراجعه إذا امتنع ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرّاً ، ولا تغتابن عنده أحداً ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، ولا تقولن له : سمعت فلاناً يقول كذا ولا إن فلاناً يقول خلافك ، ولا تصفن عنده عالماً ، ولا تعرض من طول صحبته ولا ترفع نفسك عن خدمته ، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها ، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شئ .

وينبغى أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه .

وينبغى له أن يأخذ من كل شئ أحسنه ، لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم ، ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم ، وهو العلم المتعلق بالآخرة ، الذى به يكتسب اليقين الذى حصله أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حتى شهد له رسول الله ﷺ

---

(١) عزبت : أى غابت وبعدت .
(٢) النحاس : بائع الجوارى والعبيد .
(٣) الركاب : الإبل التى يسير عليها .

فقال : « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشئ وقر فى صدره » [١] فهذه وظائف المتعلم .

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً :

من ذلك الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه ، ولا يطلب على إفاضة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين ، بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها ، فهم كالذى يعبر الأرض لمن يزرع فيها .

فلا ينبغى أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى ، وكان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم .

ومنها أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن ، لا على وجه التوبيخ ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة .

ومنها : أن ينظر فى فهم المتعلم ومقدار عقله ، فلا يلقى إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله .

فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»[٢] .

وقال علىّ رضى الله عنه : إن ههنا علماً لو أصبت له حملته .

وقال الشافعى رحمه الله :

أأنثر دراً بين سارحة النعـــم ... أأنظم منثوراً لراعيـــة الغنـــم

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومنها : أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، ولا يكذب قوله فعله . قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب﴾ [البقرة : ٤٤] .

---

(١) هذا حديث موضوع ، ذكره الملا على القارى فى الأسرار المرفوعة ص ٤٧٦ ، وذكره ابن القيم فى المنار المنيف ص ١١٥ ، وقال : هذا من كلام أبى بكر بن عياش ، وجاء فى كشف الخفا ، والمقاصد الحسنة أنه من قول بكر بن عبد الله المزنى . (٢) لم يثبت مرفوعاً وإنما هو من قول علىّ بن أبى طالب ، فقد روى معناه عنه .

وقال علىّ رضى الله عنه : قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك [1] ، وجاهل متنسك [2] .

فصل
فى آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء : هم ، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة » [3] يعنى ريحها .

وفى حديث آخر أنه قال : « من تعلم العلم ليباهى به العلماء ، أو يمارى به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، فهو فى النار » [4] رواه الترمذى . . . وفى ذلك أحاديث كثيرة .

وقال بعض السلف : أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط .

واعلم : أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهى ، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات ، إلا أنه ينبغى له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل ، فإن الناس يتفاوتون .

وروى أن سفيان الثورى رحمه الله كان حسن المطعم ، وكان يقول : إن الدابة إذا لم يحسن إليها فى العلف لم تعمل .

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم والطباع تتفاوت .

---

(١) متهتك : أى مفتضح . (٢) متنسك : أى متعبد .

(٣) أخرجه أبو داود فى العلم : ٣/ ٣٢١ (٣٦٦٤) .

(٤) أخرجه الترمذى فى العتلم : ٥/ ٣٢ (٢٦٥٤) وضعفه .

ومن صفات علماء الآخرة أن يعلموا أن الدنيا حقيرة ، وأن الآخرة شريفة وأنهما كالضرتين ، فهم يؤثرون الآخرة ، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم ، ويكون ميلهم إلى العلم النافع فى الآخرة ، ويجتنبون العلوم التى يقل نفعها إيثاراً لما يعظم نفعه ، كما روى عن شقيق البلخى رحمه الله أنه قال لحاتم : قد صحبتنى مدة فماذا تعلمت ؟ قال : ثمانية مسائل :

أما الأولى : فإنى نظرت إلى الخلق ، فإذا كل شخص له محبوب ، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه ، فجعلت محبوبى حسناتى لتكون فى القبر معى .

وأما الثانية : فإنى نظرت إلى قول الله تعالى : ﴿ **ونهى النفس عن الهوى** ﴾ [النازعات : ٤٠] فأجهدتها فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

وأما الثالثة : فإنى رأيت كل من معه شئ له قيمة عنده يحفظه ، ثم نظرت فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ [النحل : ٩٦] فكلما وقع معى شئ له قيمة ، وجهته إليه ليبقى لى عنده .

وأما الرابعة : فإنى رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف ، وليست بشئ ، فنظرت فى قول الله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : ١٣] فعملت فى التقوى لأكون عنده كريماً .

وأما الخامسة : فإنى رأيت الناس يتحاسدون ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم** ﴾ [الزخرف : ٣٢] فتركت الحسد .

والسادسة : رأيتهم يتعادون ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** ﴾ [فاطر : ٦] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدوًا .

والسابعة : رأيتهم يذلون أنفسهم فى طلب الرزق ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ [هود : ٦] فاشتغلت بما له على وتركت ما لى عنده .

والثامنة : رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم ، فتوكلت على الله تعالى .

* * *

ومن صفات علماء الآخرة : أن يكونوا منقبضين عن السلاطين ، محترزين من مخالطتهم .

قال حذيفة رضى الله عنه : إياكم ومواقف الفتن ، قيل : وما هى ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء ، فاحذروا منه فإنه لص .

وقال بعض السلف : إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه .

ومن صفات علماء الآخرة : أن لا يتسرعوا إلى الفتوى ، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته .

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى رحمه الله : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما أحد يسأل عن الحديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدّعون العلم اليوم ، يقدمون على الجواب فى مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم .

ومن صفاتهم : أن يكون أكثر بحثهم فى علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس ، فإن صور الأعمال قريبة سهلة ، وإنما التعب فى تصفيتها .

وأصل الدين : التوقى من الشر ، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف .

ومن صفاتهم : البحث عن أسرار الأعمال الشرعية ، والملاحظة لحكمها ، فإن عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع .

ومن صفاتهم : اتباع الصحابة وخيار التابعين ، وتوقى كل محدث .

* * *

٢ - كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها

اعلم : أن الطهارة لها أربع مراتب :

الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات .

والثانية : تطهير الجوارح من الذنوب والآثام .

والثالثة : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهذا هو الغاية القصوى .

فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب ، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى ، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة فى الاستنجاء وغسل الثياب ، ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة العلم أن الطهارة المطلوبة هى هذه فقط ، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان فى تطهير القلوب ويتساهلون فى أمر الظاهر ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه توضأ من جرة نصرانية ، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزهم [١] ويصلون على الأرض ، ويمشون حفاة ، ويقتصرون فى الاستجمار على الأحجار .

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة [٢] نظافة ، فترى أكثر زمانهم يمضى فى تزيين الظواهر ، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر ، والعجب ، والجهل ، والرياء ، والنفاق . ولو رأوا مقتصراً فى الاستجمار على الحجر ، أو حافياً يمشى على الأرض ، أو يصلى عليها من غير حائل ، أو متوضئاً من آنية عجوز ، لأنكروا عليه أشد الإنكار ، ولقبوه بالقذر ، واستنكفوا من مؤاكلته .

فانظر كيف جعلوا البذاذة التى هى من الإيمان قذارة ، والرعونة نظافة ، وصيروا

---

(١) الزُّهُم - بالضم - : الريح المنتنة ، والزُّهُومَة والزُّهْمَةُ - بضمها - : ريح لحم سمين منتن . (انظر القاموس المحيط : ٤/ ١٢٦) .

(٢) الرعونة : الأَرْعَن : الأهوج فى منطقة والأحمق المسترخى . (انظر القاموس : ٤/ ٢٢٨) .

المنكر معروفاً . لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف فى الماء ، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين ، فليس ذلك بمنكر ، بل هو فعل حسن . وليرجع فى معرفة الأجناس والأحداث إلى كتب الفقه ، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب .

وأما إزالة الفضلات فهى نوعان :

النوع الأول : أوساخ تزال ، كالذى يجتمع فى الرأس من الوسخ والدرن فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل [١] ، والتدهين لإزالة الشعث [٢] ، وكذلك ما يجتمع فى الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته .

ويستحب التسوك [٣] والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح [٤] وكذلك وسخ البراجيم [٥] ، والدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الغسل .

ولا بأس بدخول الحمام ، فإنه أبلغ فى الإزالة ، وقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير إليه ولمسه إياها وينبغى للداخل إليه أن يتذكر بحرارته حر النار ، فإن فكرة المؤمن لا تزال تجول فى كل شئ من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة ، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة وكل إناء ينضح بما فيه ، ألا ترى أنه لو دخل إلى دار - معمورة - بزاز [٦] ، ونجار وبناء ، وحائك ، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها ، والحائك ينظر إلى نسج الثياب ، والنجار ينظر إلى سقف الدار ، والبناء ينظر إلى الحائط ، فكذلك المؤمن إن رأى ظلمة ذكر القبر ، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن رأى نعيماً تذكر نعيم الجنة ، وإن رأى عذاباً ذكر النار .

---

(١) الترجيل : إرسال الشعر وتمشيطه بمشط .
(٢) الشعث : الأشعث : هو المُغْبَرّ الرأس . (مختار الصحاح ص ٣٣٩) .
(٣) التسوك : استعمال السواك وهو سنة مستحبة .
(٤) القلح : بفتحتين : صفرة فى الأسنان (مختار الصحاح ص ٥٤٨) .
(٥) البراجم : وهى مفاصل الأصابع (مختار الصحاح ص ٤٦) .
(٦) البزاز : الهيئة ، والمراد به هنا : بائع الثياب .

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين.

النوع الثانى من إزالة الفضلات : أجزاء تحذف ، مثل قص الشارب ونتف الإبط وحلق العانة ، وقص الأظافر ، ويكره نتف الشيب ويستحب خضابه [١] .

وباقى مراتب الطهارة يأتى فى ربع المهلكات والمنجيات إن شاء الله تعالى .

فصل
فى فضائل الصلاة

وأما الصلاة فإنها عماد الدين وغرة الطاعات . وقد ورد فى فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة ، ومن أحسن آدابها الخشوع .

وقد روى عن عثمان [بن عفان] رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة ، وذلك الدهر كله » [٢] .

وله فى حديث أيضاً عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » [٣] .

وكان [عبد الله] بن الزبير رضى الله عنهما إذا قام فى الصلاة كأنه عود [٤] من الخشوع ، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط ، وصلى يوماً فى الحِجر فجاء حجر قذافة [٥] فذهب ببعض ثوبه فما انفتل .

وقال ميمون بن مهران : ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً فى صلاة قط ، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفى المسجد يصلى فما التفت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا.

---

(١) خضابه : أى اختضب بالحناء ونحوه .

(٢) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١/ ٢٠٦ (٧) ، من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى فى الوضوء : ١/ ٣١١ - ٣١٢ (١٥٩) . ومسلم ١/ ٢٠٤ (٣) .

(٤) كأنه عود : أى ثابت لا يتحرك حتى يخيل للناظر أنه عود .

(٥) قذافة : آلة المنجنيق التى يرمى بها الحجارة .

وكان على بن الحسن رضى الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه ، فقيل له : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فقال : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

واعلم : أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً ، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب ، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال ، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة ، لأن النطق إذا لم يعرب عما فى الضمير كان بمنزلة الهذيان ، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال ، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة ، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم ، ولم يكن القلب حاضراً لم يحصل المقصود ، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقى صورة لا اعتبار بها قال الله تعالى : ﴿ **لن ينالَ اللهَ لحومها ولا دماؤها ولكن يَنالُهُ التقوى منكم** ﴾ [الحج: ٣٧] والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذى استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة ، فلا بد من حضور القلب فى الصلاة ولكن سامح الشارع فى غفلة تطرأ ، لأن حضور القلب فى أولها ينسب حكمه على باقيها .

والمعانى التى تتم بها حياة الصلاة كثيرة :

المعنى الأول : حضور القلب كما ذكرنا ، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له ، وسبب ذلك الهمة ، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة ، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة ، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا ، فمتى رأيت قلبك لا يحضر فى الصلاة ، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان ، فاجتهد فى تقويته .

والمعنى الثانى : التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب ، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى ، فينبغى صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها ، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها .

والمواد ، إما ظاهرة ، وهى ما يشغل السمع والبصر ، وإما باطنة وهى أشد كمن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، فإنه لا ينحصر فكره فى فن واحد ، ولم يغنه غض البصر ، لأن ما وقع فى القلب كاف فى الاشتغال به .

وعلاج ذلك إن كان من المواد الظاهرة ، بقطع ما يشغل السمع والبصر ، وهو القرب من القبلة ، والنظر إلى موضع سجوده ، والاحتراز فى الصلاة من المواضع المنقوشة ، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه ، فإن النبى ﷺ لما صلى فى أنبجانيه[1] لها أعلام نزعها وقال : « إنها ألهتنى آنفاً عن صلاتى » [2] .

وإن كان من المواد الباطنة ، فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويستعد لذلك قبل الدخول فى الصلاة ، بأن يقضى أشغاله ، ويجتهد فى تفريغ قلبه ، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة وخطر القيام بين يدى الله عَزَّ وجَلَّ وهول المطلع ، فإن لم تسكن الأفكار بذلك ، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه ، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق .

واعلم : أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوى ، والعلة إذا قويت جاذبت المصلى وجاذبها إلى أن تنقضى الصلاة فى المجاذبة ، ومثل ، ذلك كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره ، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفى يده خشبة يطيرها بها ، فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها ، فقيل له : هذا شئ لا ينقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة ، فكذلك شجرة الشهوة إذا علت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار ، فذهب العمر النفيس فى دفع ما لا يندفع ، وسبب هذه الشهوة التى توجب هذه الأفكار حب الدنيا .

قيل لعامر بن عبد قيس رحمه الله : هل تحدثك نفسك بشئ من أمور الدنيا فى الصلاة ؟ فقال : لأن تختلف [3] الأسِنَّة [4] فىَّ أحب إلىَّ من أن أجد هذا .

واعلم : أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب ، وزواله بالكلية عزيز ، فليقع الاجتهاد فى الممكن منه ، والله الموفق المعين .

---

(١) أنبجانية - بفتح الهمزة وقيل كسرها وسكون النون ، وكسر الموحدة ، وتخفيف الجيم ، وبعد النون ياء-: وهو كساء غليظ لا علم له ، وهو منسوج فى موضع يقال له أنبجان (انظر فتح البارى : ١/ ٥٧٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١/ ٥٧٥ (٣٧٣) .

(٣) أى يدخل بعضها فى جسمى إثر بعض .

(٤) الأسنة : جمع لا مفرد له ، وهى السيوف ، والمراد هنا : أن ضرب السيوف أهون عليه من انشغاله فى الصلاة .

المعنى الثالث : التعظيم لله والهيبة ، وذلك يتولد من شيئين : معرفة جلال الله تعالى وعظمته ، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستبعدة ، فيتولد من المعرفتين الاستكانة ، والخشوع .

ومن ذلك الرجاء : فإنه زائد على الخوف ، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره .

والمصلى ينبغى أن يكون راجياً بصلاته الثواب ، كما يخاف من تقصيره العقاب .

وينبغى للمصلى أن يحضر قلبه عند كل شئ من الصلاة ، فإذا سمع نداء المؤذن فليتمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة ، ولينظر ماذا يجيب ، وبأى بدن يحضر ، وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق ، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التى لا يطلع عليها إلا الخالق ، وليس لها عنه ساتر ، وأنها يكفرها الندم ، والحياء ، والخوف .

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك ، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها ، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه .

إذا كبرت أيها المصلى ، فلا يكذبنَّ قلبك لسانك ، لأنه إذا كان فى قلبك شئ أكبر من الله تعالى فقد كذبت ، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى .

فإذا استعذت ، فاعلم أن الاستعاذة هى لجوء إلى الله سبحانه ، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً ، وتفهَّم معنى ما تتلو ، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ واستحضر لطفه عند قولك : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ وعظمته عند قولك : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ وكذلك فى جميع ما تتلو .

وقد روينا عن زرارة بن أبى أوفى رضى الله عنه أنه قرأ فى صلاته : ﴿ **فإذا نُقر فى الناقور** ﴾ [المدثر : ٨] فخر ميتاً ، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف .

واستشعر فى ركوعك التواضع ، وفى سجودك زيادة الذل ، لأنك وضعت النفس موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذى خُلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق .

واعلم : أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ وحصول الأنوار فيه التى بها تتلمح عظمة المعبود ، وتطلع على أسراره ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها ، فإنه لا يطلع على شئ من ذلك بل ينكر وجوده .

فصل

فى آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهى نحو من خمسة عشر :

أحدها : أن يستعد لها من يوم الخميس وفى ليلة الجمعة ، بالتنظيف ، وغسل الثياب ، وإعداد ما يصلح لها .

الثانى : الاغتسال فى يومها ، كما جاء فى الأحاديث فى « الصحيحين » [١] وغيرهما ، والأفضل فى الاغتسال أن يكون قبل الرواح إليها .

الثالث : التزين بتنظيف البدن ، وقص الأظفار ، والسواك ، وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات ، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه .

الرابع : التبكير إليها ماشياً .

وينبغى للساعى إلى الجامع أن يمشى بسكون وخشوع ، وينوى الاعتكاف فى المسجد إلى وقت خروجه .

---

(١) ورد فى الصحيحين من حديث ابن عمر مرفوعاً : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ، ومن حديث أبى سعيد مرفوعاً : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » . (انظر : صحيح البخاري ، كتاب الجمعة : ٤١٥/٢ (٨٧٧) ، عن ابن عمر ورقم (٨٧٩) عن أبي سعيد الخدرى) ومسلم ٥٧٩/٢ (١-٢) .

الخامس : أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها .

السادس : أن لا يمر بين يدى المصلى .

السابع : أن يطلب الصف الأول ، إلا أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون له فى التأخر عذراً .

الثامن : أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام ، ويشتغل بإجابة المؤذن ، ثم بسماع الخطبة .

التاسع : أن يصلى السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين ، وإن شاء أربعاً ، وإن شاء ستاً .

العاشر : أن يقيم فى المسجد حتى يصلى العصر ، وإن أقام إلى المغرب فهو أفضل.

الحادى عشر : أن يراقب الساعة الشريفة التى فى يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر .

واختُلف فى هذه الساعة ، ففى أفراد مسلم حديث أبى موسى رضى الله عنه : أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة (1) ، وفى حديث آخر : هى ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة ، وفى حديث جابر رضى الله عنه : أنها آخر ساعة بعد العصر (2) ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس .

وقال أبو بكر الأثرم رحمه الله : لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين : إما أن يكون بعضها أصح من بعض ، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل فى الأوقات كتنقل ليلة القدر فى ليالى العشر .

---

(1) أخرجه مسلم فى الجمعة : ٢/ ٥٨٤ (١٦) عن ابن عمر .

(2) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١/ ٢٧٤ (١٠٤٨) والحاكم فى المستدرك ١/ ٢٧٩ وصححه .

الثانى عشر : أن يكثر من الصلاة على النبى ﷺ فى هذا اليوم ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى علىَّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة » [(١)] .

وإن أحب زاد فى الصلاة عليه الدعاء له ، كقوله : « اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، اللهم اجز نبينا عنا ما هو أهله » [(٢)] .

وليضف إلى الصلاة الاستغفار ، فإنه مستحب فى ذلك اليوم .

الثالث عشر : أن يقرأ سورة الكهف ، فقد جاء فى حديث من رواية عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بسورة ملأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ، ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينهما وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه[(٣)] الله تعالى أى الليل [(٤)] شاء » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « سورة الكهف » [(٥)] .

وروى فى حديث آخر : « أن من قرأها فى يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى الفتنة»[(٦)] .

---

(١) عزاه العراقى فى المغنى على هامش الإحياء للدارقطنى من رواية ابن المسيب قال : أظنه عن أبى هريرة، وقال : حديث غريب ، وقال ابن النعمان : حديث حسن . وذكره السخاوى فى كتابه القول البديع ص ١٩٤ ، وعزاه للتيمى ، وأبى الشيخ والديلمى وضعفه ، لكن يشهد لهذا الحديث ما أخرجه أبو داود فى سننه فى الصلاة : ١/ ٢٧٤ (١٠٤٧) عن أوس بن أوس مرفوعاً : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة . . . » وفيه قوله: « فأكثروا عَلَىَّ من الصلاة فيه . . . » إلخ ، وهذا الحديث صححه الحاكم فى المستدرك : ١/ ٢٨٨ ووافقه الحافظ الذهبى .

(٢) جزء من حديث الدعاء بعد النداء . أخرجه البخارى فى الأذان : ٢/ ١١٢ (٦١٤) .

(٣) بعثه : أى أيقظه .

(٤) أى الليل : جزء من الليل .

(٥) هذا الحديث لم أجده فى الإحياء ، أو ربما ذكره فى موضع آخر . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ١/ ١٧٠ (٢٨٦٢) وعزاه لابن مردويه عن عائشة وسكت عنه .

(٦) أخرج مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافرين : ١/ ٥٥٥ (٢٥٧) عن أبى الدرداء مرفوعاً : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » .

ويستحب أن يكثر من قراءة القرآن فى يوم الجمعة ، وأن يختم فيه أو فى ليلة الجمعة إن قدر .

الرابع عشر : أن يتصدق فى يوم الجمعة بما أمكن ، ولتكن صدقته خارج المسجد.

ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح فى يوم الجمعة .

الخامس عشر : يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة ، ويكف عن جميع أشغال الدنيا .

فصل
فى ذكر النوافل

اعلم : أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام :

سنن ، ومستحبات ، وتطوعات .

ونعنى بالسنة : ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه ، كالرواتب عقيب الفرائض والوتر والضحى .

ونعنى بالمستحب : ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه ، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه .

ونعنى بالتطوعات : ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر ، لكن العبد يتطوع بفعله .

وتسمى هذه الأقسام الثلاثة : نوافل ، لأن النفل هو زيادة ، وهذه زيادة على الفرائض .

واعلم : أن أفضل تطوعات البدن : الصلاة .

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة فى كتب الفقه وغيرها ، لكن نذكر منها صلاة التسبيح ، لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس .

فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال للعباس : « يا عماه : ألا أعطيك ، ألا أعلمك - وذكر الحديث إلى أن قال : « تصلى أربع

ركعات، تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً ، ثم تسجد فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ثم تهوى ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم ، فذلك خمس وسبعون ، وتفعل ذلك فى أربع ركعات ، إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تفعل ، ففى كل جمعة مرة فإن لم تفعل ، ففى كل شهر مرة ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة » [1] .

فصل

فى أوقات النهى عن الصلاة

ولا يتطوع فى أوقات النهى بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح ، لأن النهى مؤكد فيها عن الصلاة ، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه ، وأما ما له سبب ، كتحية المسجد ، وصلاة الكسوف ، والاستسقاء ونحوها ، فعلى روايتين .

واعلم : أن النهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار .

أحدها : ترك التشبه بعباد الشمس .

الثانى : التحذير من السجود لقرن الشيطان فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان[2] ، فإذا ارتفعت فارقها ، فإذا استوت قارنها ، فإذا زالت الشمس فارقها فإذا تضيفت [3] للغروب قارنها ، فإذا غربت فارقها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ٢/ ٢٩ (١٢٩٧) . وهو حديث ثابت ينبغى للناس العمل به .

(٢) روى ابن عمر مرفوعاً : « لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بقرنى شيطان » . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق : ٦/ ٣٨٦ (٣٢٧٢) . وقوله : قرن الشيطان : قيل المراد حزبه وأتباعه ، وقيل : قوته وغلبته ، وقيل : القرنان ناحيتا الرأس ، وإنه على ظاهره وهذا هو الأقوى .

(٣) تضيفت : أى مالت .

الثالث : أن سالكى طريق الآخرة مواظبون على العبادات ، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل ، فإذا وقع المنع زاد النشاط ، لأن النفس حريصة على ما منعت منه، فمنع الإنسان من الصلاة فى أوقات النهى ، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد كالقراءة ، والتسبيح لينتقل العابد من حال إلى حال ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود ، والله أعلم .

❋ ❋ ❋

٣ - كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها

الزكاة : أحد مبانى الإسلام ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة ، فقال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ [البقرة : ٤٣] .

أما أنواع الزكاة ، وأقسامها ، وأسباب وجوبها ، فظاهر مشهور فى مظانه من كتب الفقه ، وإنما نذكر هاهنا بعض الشروط والآداب .

فمن الشروط أن يخرج المنصوص عليه (١) ، ولا يخرج القيمة فى الصحيح (٢) فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تلمح سدَّ الخلة فقط ، وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه ، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام :

القسم الأول : تعبد محض ، كرمى الجمار ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له المعنى ، لأن ما يعقل معناه عليه يساعد الطبع ويدعو إليه ، فلا يظهر خلوص العبودية به ، بخلاف ما ذكرنا .

والقسم الثانى : عكس ذلك ، وهو ما لا يقصد منه التعبد ، بل المقصود منه حض محض ، كقضاء دين الآدميين ، ورد المغصوب ونحو ذلك ، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل ، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تركيب فيهما .

وأما القسم الثالث : فهو المركب ، وهو أن يقصد منه الأمران جميعاً : امتحان المكلف ، وحظ العباد ، فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار ، وحظ رد الحقوق فلا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد ، ولعل الأدق هو الأهم ، والزكاة من هذا القبيل ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة ، وحق التعبد مقصود الشرع فى اتباع التفاصيل ، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج ، والله أعلم .

---

(١) فالمنصوص عليه كما فى الصحيح عن ابن عمر مرفوعاً أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير . . . إلخ . (انظر صحيح البخارى كتاب الزكاة : ٣/ ٤٣٢ (١٥٠٤) وما بعده .

(٢) قلت : بل أجاز بعض الفقهاء إخراج القيمة ، وهذا أمر فيه متسع ، فلا يجب التضييق . والله أعلم .

فصل

فى دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة

اعلم : أن على مريد الآخرة فى زكاته وظائف :

الأولى : أن يفهم المراد من الزكاة ، وهو ثلاثة أشياء : ابتلاء مدعى محبة الله تعالى بإخراج محبوبه [(1)] ، والتنزه عن صفة البخل المهلك [(2)] ، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية : الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة ، وفى الإظهار إذلال للفقير أيضاً ، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالى من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية ، وأعطى غيره سراً .

الوظيفة الثالثة : أن لا يفسدها بالمن والأذى ، وذلك أن الإنسان إذا رأى محسناً إلى الفقير ، منعماً بالإعطاء ، ربما حصل منه ذلك ، ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذى هو طهرة له .

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة ، ولا ينبغى أن يحتقر الفقير لفقره ، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه.

الوظيفة الرابعة : أن يستصغر العطية ، فإن المستعظم للفعل معجب به، وقد قيل : لا يتم المعروف إلا بثلاث : بتصغيره ، وتعجيله ، وستره .

الوظيفة الخامسة : أن ينتقى من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه ، أما الحل ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأما الأجود ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وينبغى أن يلاحظ فى ذلك أمرين :

أحدهما : حق الله سبحانه وتعالى بالتعظيم له ، فإنه أحق من اختير له ، ولو أن الإنسان قدم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره .

---

(١) يقصد به المال لقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٢) لأن البخل يكون سبباً للهلاك . قال تعالى : ﴿ وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

والثانى : حق نفسه ، فإن الذى يقدمه هو الذى يلقاه غداً فى القيامة ، فينبغى أن يختار الأجود لنفسه .

وما أحبه إليه ، فلقوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبون** ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا اشتد حبه لشئ من ماله قرَّبه لله عز وجل . وروى : أنه نزل الجحفة [١] وهو شاكٍ ، فقال : إنى لأشتهى حيتاناً ، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً ، فأخذته امرأته فضعته ثم قربته إليه ، فأتى مسكين ، فقال ابن عمر رضى الله عنه : خذه ، فقال له أهله : سبحان الله ، قد عنيتنا [٢] ومعنا زاد نعطيه ، فقال : إن عبد الله يحبه .

وروى أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خيثم رحمة الله عليه فقال : أطعموه سكراً، فقالوا : نطعمه خبزاً أنفع له فقال : ويحكم أطعموه سكراً ، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة : أن يطلب لصدقته من تزكو به ، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية [٣] ، ولهم صفات :

الأولى : التقوى ، فليخص بصدقته المتقين ، فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى .

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود ، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم ، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه فقيل له : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ؟ فيقول : أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقينى .

الثانية : العلم ، فإن فى إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين ، وذلك تقوية للشرعية .

الثالثة : أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده ، ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها ، فأما الذى عادته المدح عند العطاء ، فإنه سيذم عند المنع .

---

(١) الجُحْفَة : اسم موضع بين مكة والمدينة وهو موضع ميقات أهل الشام ، أى : يحرم منه أهل الشام .

(٢) عنّيتنا : من المعاناة ، أى : أتعبتنا وأجهدتنا فى طلبه .

(٣) الأصناف الثمانية المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ﴾ [التوبة : ٦٠] .

الرابعة : أن يكون صائناً لفقره ، وساتراً لحاجته ، كاتماً للشكوى ، كما قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُم الجَاهلُ أَغْنياءَ منَ التعففِ ﴾ : [البقرة : ٢٧٣] .

وهؤلاء لا يحصلون فى شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم ، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته .

الخامسة : أن يكون ذا عائلة ، أو محبوساً لمرض أو دين ، فهذا من المحصرين والتصدق عليه إطلاق لحصره .

السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام ، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة .

وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر ، كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع .

فصل
فى آداب القابض

لا بد أن يكون أخذ الزكاة من الأصناف الثمانية ، وعليه فى ذلك وظائف .

الوظيفة الأولى : أن يفهم أن الله تعالى إنما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أهمه ويجعل همومه هماً واحداً فى طلب رضى الله عَزَّ وجَلَّ .

الوظيفة الثانية : أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنىَ عليه ، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب ، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، كما ورد فى الحديث [1] .

ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل ، ولا يذمه ، ويغطى ما فيه من عيب، وكما أن وظيفة المعطى الاستصغار فوظيفة المعطى الاستعظام ، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عَزَّ وجَلَّ ، فإن من لا يرى الواسطة واسطة ، فهو جاهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً .

الوظيفة الثالثة : أن ينظر فيما يعطاه ، فإن لم يكن من حل لم يأخذه أصلاً ، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة ، وإن كان من شبهة تورع عنه ، إلا أن يضيق عليه

---

(١) هذا حديث شريف أخرجه أبو داود فى الأدب : ٢٥٦/٤ (٤٨١١) ، والترمذى فى البر والصلة : ٢٩٩/٤ (١٩٥٤) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الأمر ، فمن كان أكثر كسبه حراماً فأخرج الزكاة ولم يعرف لما أخرجه مالك معين كانت الفتوى فيه أن يتصدق به ، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافى (١) .

الوظيفة الرابعة : أن يتوقى مواقع الشبه فى قدر ما يأخذ ، فيأخذ القدر المباح له ولا يأخذ أكثر من حاجته . فإن كان غارماً لم يزد على مقدار الدين ، أو غازياً لم يأخذ إلا مقدار ما يحتاج إليه ، وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغنى عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده ، والورع ترك ما يريب .

واختلف العلماء فى قدر المانع من الزكاة ، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام ، إما من تجارة ، أو صناعة ، أو أجر عقار ، أو غير ذلك ، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها ، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه .

وليكن ما يأخذه بقدر سنته ولا يزيد على ذلك ، وإنما اعتبار بالسنة ، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء .

فصل
فى صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهى كثيرة مشهورة :

منها : ما روى البخارى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » (٢) .

وفى « الصحيحين » من رواية أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من تصدق بعدل (٣) تمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يُرْبيها لصاحبها كما يُرْبِى أحدكم فلوه (٤) حتى يكون مثل الجبل » .

---

(١) انظر الإحياء : ١/ ٢٦٣ ، وانظر عبارة الإمام الغزالى هناك تجد اختلافاً بينهما .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١١/ ٢٦٤ - ٢٦٥ (٦٤٤٢) . (٣) عدل تمرة : أى مثلها .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣/ ٣٢٦ (١٤١٠) . وفلوه : الفلو : المهر سمى بذلك لأنه فلى عن أمه أى : فصل وعزل .

وفى حديث آخر : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ، وتقى ميتة السوء » [1].

وفى حديث آخر : « تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار » .

وعن بُرَيْدَةَ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لحى سبعين شيطاناً » [2] .

وروى أن راهباً تعبد فى صومعة ستين سنة ، ثم نزل يوماً ومعه رغيف ، فعرضت له امرأة فتكشفت له ، فوقع عليها ، فأدركه الموت وهو على تلك الحال ، وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات ، فجئ بعمل ستين سنة ، فوضع فى كفة وخطيئته فى كفة فرجحت بعمله ، حتى جئ بالرغيف فوضع فى عمله ، فرجح بخطيئته .

وفى أفراد مسلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أن قال : « ما نقصت صدقة من مال » [3] .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها؟» فقالت : ما بقى إلا كتفها ، فقال : « بقى كلها إلا كتفها » [4] .

وأما آدابها ، فنحو ما تقدم فى الزكاة .

واختلفوا : أيما أفضل للفقير ، أن يأخذ من الزكاة ، أو من الصدقة ؟ فقال قوم : من الزكاة أفضل ، وقال آخرون : من الصدقة أفضل .

وأما أفضل الصدقة فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » .

أخرجاه فى « الصحيحين » .

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزكاة : ٣/ ٥٢ (٦٦٤) عن أنس مرفوعاً ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند : ٥/ ٣٥٠ من حديث بريدة .

(٣) أخرجه مسلم فى البر والصلة : ٤/ ٢٠٠١ (٦٩) .

(٤) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة : ٤/ ٥٥٥ (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح .

٤ - كتاب الصوم وأسراره ومهماته وما يتعلق به

اعلم : أن فى الصوم خصيصة ليست فى غيره ، وهى إضافته إلى الله عَزَّ وجَلَّ حيث يقول سبحانه : « الصوم لى وأنا أجزى به » (١) ، وكفى بهذه الإضافة شرفاً كما شرف البيت بإضافته إليه فى قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج : ٢٦] ، وإنما فضل الصوم لمعنيين :

أحدهما : أنه سر وعمل باطن ، ولا يراه الخلق ولا يدخله رياء .

الثانى : أنه قهر لعدو الله ، لأن وسيلة العدو الشهوات ، وإنما الشهوات بالأكل والشرب ، وما دامت أرض الشهوات مخصبة ، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك .

وفى الصوم أخبار كثيرة تدل على فضلة وهى مشهورة

فصل (فى سنن الصوم)

يستحب السحور ، وتأخيره ، وتعجيل الفطر ، وأن يفطر على التمر .

ويستحب الجود فى : رمضان ، وفعل المعروف ، وكثرة الصدقة . . . اقتداء برسول الله ﷺ .

ويستحب دراسة القرآن ، والاعتكاف فى رمضان : لا سيما فى العشر الأواخر وزيادة الاجتهاد فيه .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ إذا دخل العشر [يعنى الأخير] شد مئزره ، وأحيا الليل ، وأيقظ أهله » (٢) .

وذكر العلماء فى معنى شد المئزر وجهين :

أحدهما : أنه الإعراض عن النساء .

الثانى : أنه كناية عن الجد والتشمير فى العمل .

قالوا : وكان سبب اجتهاده فى العشر طلب ليلة القدر .

---

(١) جزء من الحديث القدسى الذى رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم فى الصيام : ٢/ ٨٠٦ (١٦١) .

(٢) أخرجه البخارى فى فضل ليلة القدر : ٤/ ٣١٦ (٢٠٢٤) . ومسلم ٢/ ٨٣٢ (٧) .

بيان أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاث مراتب : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .

فأما صوم العموم فهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

وأما صوم الخصوص فهو : كف النظر ، واللسان ، واليد ، والرجل ، والسمع ، والبصر ، وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص فهو : صوم القلب عن الهمم الدنيئة ، والأفكار المبعدة عن الله تعالى ، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية ، وهذا الصوم له شروح تأتى فى غير هذا الموضع .

فمن آداب صوم الخصوص : غض البصر ، وحفظ اللسان عما يؤذى من كلام محرم أو مكروه ، أو ما لا يفيد ، وحراسة باقى الجوارح .

وفى الحديث من رواية البخارى ، أن النبى ﷺ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » (١) .

ومن آدابه : أن لا يمتلئ من الطعام فى الليل ، بل يأكل بمقدار ، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه فى باقيه ، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر ، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور ، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل ، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع ، ويكون تاركاً للمشتهى .

فأما صوم التطوع ، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة ، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان ، وكصيام يوم عرفة ، ويوم عاشوراً ، وتسع ذى الحجة ، والمحرم .

وبعضها يتكرر فى كل شهر ، كأوله ، وأوسطه ، وآخره ، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن ، غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض .

وبعضها يتكرر فى كل أسبوع وهو يوم الاثنين ، ويوم الخميس .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ١٣٩/٤ (١٩٠٣) . وأبو داود ٣١٧/٢ (٢٣٦٢) . والترمذى برقم (٧٠٧) وابن ماجه برقم (١٦٨٩) .

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك يجمع ثلاثة معان :

أحدها : أن النفس تعطى يوم الفطر حظها ، وتستوفى فى يوم الصوم تعبدها وفى ذلك جمع بين ما لها وما عليها ، وهو العدل .

والثانى : أن يوم الأكل يوم شكر ، ويوم الصوم يوم صبر ، والإيمان نصفان : شكر وصبر .

والثالث : أنه أشق على النفس فى المجاهدة، لأنها كلما أنست بحالة نقلت عنها.

فأما صوم الدهر : ففى أفراد مسلم من حديث أبى قتادة رضى الله عنه أن عمر رضى الله عنه سأل النبى ﷺ فقال : كيف بمن يصوم الدهر كله ؟ فقال : « لا صام ولا أفطر - أو - لم يفطر » [1] وهذا محمول على من سرد الصوم فى الأيام المنهى عن صيامها : فأما إذا أفطر يومى العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك .

فقد روى عن هشام بن عروة رحمه الله أن أباه كان يسرد الصوم ، وكانت عائشة رضى الله عنها تسرد .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه ، سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً .

واعلم : أن من رزق فطنة ، علم المقصود بالصوم ، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه .

فقد كان ابن مسعود قليل الصوم ، وكان يقول : إذا صمت ضعفت عن الصلاة وأنا أختار الصلاة على الصوم .

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن ، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة ، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم فى الصوم ٢/٨١٨ (١٩٦) ، وأبو داود فى الصوم ٢/٣٣٣ (٢٤٢٥) . وأحمد فى المسند : ١/٢٦

٥ - كتاب الحج وأسراره وفضائه وآدابه ونحو ذلك

ينبغى لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة ، ورد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، ويرد ما عنده من الودائع .

ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير ، على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد ، والرفق بالفقراء .

ويستصحب ما يصلحه كالسواك ، والمشط ، والمرآة ، والمكحلة .

ويتصدق بشئ قبل خروجه ، وإذا اكترى (١) فليظهر للجمَّال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير ، وقد قال رجل لابن المبارك : احمل لى هذه الرقعة إلى فلان. فقال : حتى أستأذن الجمَّال (٢) .

وينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن ضاق صدره صبَّره .

وليؤمَّر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقاً ، وأرفقهم بالأصحاب ، وإنما احتيج إلى التأمير لأن الآراء تختلف ، فلا ينتظم التدبير ، وعلى الأمير الرفق بالقوم ، والنظر فى مصالحهم ، وأن يجعل نفسه وقاية لهم .

وينبغى للمسافر تطيب الكلام ، وإطعام الطعام ، وإظهار محاسن الأخلاق ، فإن السفر يخرج خفايا الباطن ، ومن كان فى السفر الذى هو مظنة الضجر (٣) حسن الخلق ، كان فى الحضر أحسن خلقاً .

وقد قيل : إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكُّوا فى صلاحه .

وينبغى له أن يودع رفقاءه وإخوانه المقيمين ، ويلتمس أدعيتهم ، ويجعل خروجه بكرة يوم الخميس ، وليصلِّ فى منزله ركعتين قبل الخروج منه ويستودع أهله وماله

---

(١) اكترى : أى استأجر من يحمل له متاعه (وانظر القاموس : ٤/ ٣٨٢) .

(٢) أى حتى يستأذن صاحب الجمل الذى سيركب عليه .

(٣) الضجر : القلق من الغمّ .(مختار الصحاح ص ٣٧٦) .

ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله ، وفى ركوبه ونزوله ، وهى مشهورة فى كثير من الكتب فى مناسك الحج ، وكذلك جميع المناسك من الإحرام والطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، وغير ذلك من أعمال الحج يأتى فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب ، وكل ذلك مستوفى فى كتب الفقه وغيرها ، فليطلب هناك .

فصل
فى الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

اعلم : أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتجرد والانفراد لخدمته ، وقد كان الرهبان ينفردون فى الجبال طلباً للإنس بالله ، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة .

فمن الآداب المذكورة ، أن يكون خالياً فى حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه ليجتمع على طاعة الله تعالى ، وأن يكون أشعث أغبر ، رث الهيئة ، غير مستكثر من الزينة .

وينبغى أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر ، كن لا يستمسك على الزاملة [(١)] فإن النبى ﷺ حج على راحلة وتحته رحل رث [(٢)] .

وفى حديث جابر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن الله عَزَّ وجَلَّ يباهى بالحاج الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثاً غبراً من كل فج عميق أشهدكم أنى قد غفرت لهم » [(٣)] .

وقد شرَّف الله تعالى بيته وعظَّمه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حوله حرماً له تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه ، وجعل عرفة كالميدان على فنائه .

واعلم : أن فى كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر ، وعبرة للمعتبر .

فمن ذلك : أن يتذكر بتحصيل الزاد زاد الآخرة من الأعمال ، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه ، كالطعام الرطب الذى يفسد

---

(١) الزاملة : البعير الذى يحمل عليه المتاع . (٢) الرث : البالى (مختار الصحاح ص ٢٣٣) .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٢/ ٢٢٤ ، ٣٠٥ من حديث عبد الله بن عمرو ، وأبى هريرة .

فى أول منازل السفر ، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيراً ، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات ، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال .

ومن ذلك : أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه ، إذا لبس المحرم الإحرام لبس كفنه ، وأنه سيلقى ربه على زى مخالف لزى أهل الدنيا ، وإذا لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال : ﴿ **وأَذِّن فى النَّاسِ بِالحَجِّ** ﴾ : [الحج : ٢٧] وليرج القبول ، وليخش عدم الإجابة ، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغى أن يرجو الأمن من العقوبة ، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب ، غير أنه ينبغى الرجاء غالباً ، لأن الكرم عميم ، وحق الزائر مرعى ، وذمام [١] المستجير لا يضيع .

ومن ذلك : إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته فى قلبه ، وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين ، وليستشعر عظمة الطواف به ، فإنه صلاة ، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبالغ لله على طاعته ، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجأ المذنب إلى سيده وقرب المحب .

وأنشد بعضهم فى ذلك :

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد ... علقتها مستجيراً أيهـا البـارى

وما أظنك لما أن علقـت بهـا ... خوفاً من النار تدنينى من النارِ

وها أنا جار بيت أنت قلت لنا ... حجوا إليه وقد أوصيت بالجارِ

ومن ذلك : إذا سعى بين الصفا والمروة ، ينبغى أن يمثلهما بكفتى الميزان وتردده بينهما فى عرصات [٢] القيامة ، أو تردد العبد إلى باب دار الملك ، إظهاراً لخلوص خدمته ، ورجاء الملاحظة بعين رحمته ، وطمعاً فى قضاء حاجته .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق ، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة ، واجتماع الأمم فى ذلك الموطن ، واستشفاعهم .

---

(١) ذمام : الزمام : الحرمة (مختار الصحاح ص ٢٢٣) .

(٢) العَرْصَةُ : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء (انظر القاموس : ٢/ ٣٠٧) .

فإذا رميت الجمار : فاقصد الانقياد للأمر ، وإظهار الرق والعبودية ، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس .

وأما المدينة : فإذا لاحت فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه ﷺ ، وشرع إليها هجرته ، وجعل فيها بيته ، ثم مثل نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند تردده فيها ، وتصور خشوعه وسكينته ، فإذا قصدت زيارة القبر ، فأحضر قلبك لتعظيمه ، والهيبة له ، ومثل صورته الكريمة فى خيالك ، واستحضر عظيم مرتبته فى قلبك ، ثم سلم عليه ، واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك ، كما ورد فى الحديث[1] .

* * *

(١) أخرج النسائى فى السهو : ٣/٤٣ . والدارمى فى الرقاق ٢/٤٠٩ (٢٧٧٤) . وأحمد فى المسند ١/٣٨٧ ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ٢/٢٣٤ عن ابن مسعود يرفعه : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام » .

٦ - كتاب آداب القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عَزَّ وجَلَّ ، وقد مدحه الله تعالى فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ٩٢] و﴿ إِنَّ هذا القُرْآنَ يَهدى للَّتى هى أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] و﴿ لا يأتيه البَاطِلُ من بَيْنِ يَدَيْه ولَا من خَلْفه ﴾ : [فصلت : ٤٢] .

وفى أفراد البخارى ، من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن ، وعلمه » [١] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عز وجل أهلين من الناس ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته » رواه النسائى [٢] .

وفى حديث آخر ، أن النبى ﷺ قال : « لا يعذب الله قلباً وعى القرآن » [٣] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » [٤] . صححه الترمذى .

وعن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر [٥] ، وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنى لك اليوم من وراء كل تجارة ، فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويُكسى والداه حلتين لا تقوم لهما الدنيا ، فيقولان : بما كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٨/ ٦٩١ (٥٠٢٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١/ ٧٨ (٢١٥) وفى الزوائد : إسناده صحيح .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفا ومزيل الإلباس : ٢/ ٥٢١ (٣١٢٢) ، وعزاه للديلمى عن عقبة بن عامر .

(٤) أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن : ٥/ ١٦٣ (٢٩١٤) عن عبد الله بن عمرو ، وليس عمر كما ذكر هنا ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) الهواجر : نصف النهار عند اشتداد الحر .

يقال : اقرأ فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود ما كان يقرأ ، هذاً [1] كان أو ترتيلاً [2] .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون وبنهاره إذ الناس مفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون .

ولا ينبغى أن يكون جافياً ولا صخاباً [3] ولا حديداً [4] .

وقال الفضيل رحمه الله : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، ولا ينبغى أن يلغو مع من يلغو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلهو مع من يلهو ، تعظيماً لله تعالى .

ولا ينبغى أن يكون له إلى أحد حاجة ، بل ينبغى أن تكون حوائج الناس إليه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : رأيت رب العزة فى المنام ، فقلت : يا رب ، ما أقرب ما يتقرب به إليك المتقربون ؟ فقال : بكلامى يا أحمد ، فقلت : يا رب ، بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : بفهم وبغير فهم .

فصل
فى آداب التلاوة

ينبغى لقارئ القرآن أن يكون على وضوء ، ومستعملاً للأدب ، مطرقاً غير متربع ولا مكتئ ، ولا جالس على هيئة المتكبر .

وأفضل الأحوال : أن يقرأ فى الصلاة قائماً ، وأن يكون فى المسجد .

فأما مقدار القراءة ، فقد اختلفت فيها عادات السلف ، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة ، ومنهم من كان يختم فى اليوم والليلة أكثر من ذلك ، ومنهم من كان يختم فى ثلاثة ختمة ، ومنهم من كان يختم فى كل أسبوع ، ومنهم من كان يختم فى كل شهر ، اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم ، أو بتعليمه ، أو بنوع من التعبد غير القراءة ، أو بغيره من اكتساب الدنيا .

---

(١) هذاً : أى بسرعة ، والترتيل هو التجويد كما قال القرطبى .

(٢) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن : ٢/٥٤٣ (٣٣٩١) مطولاً .

(٣) الصخب : شدة الصوت .

(٤) الحديد : شديد الغضب .

وأولى الأمر : ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة ، ولا يؤذيه فى بدنه ، ولا يفوته معه الترتيل والفهم .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، لأن أقرأ البقرة وآل عمران ، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أقرأ القرآن كله هذرمة [1] ، ومن وجد خلسة فى وقت ، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب ، فقد كان عثمان رضى الله عنه يقرأ القرآن فى ركعة يوتر بها ، وكان الشافعى رحمه الله يختم فى رمضان ستين ختمة .

وأما الدوام : فليكن على قدر الإمكان ، كما أشرنا إليه .

واستحب بعضهم إذا ختم بالنهار أن يختم فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، وإذا ختم بالليل أن يختم فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليتسقبل بالختمة أول الليل وأول النهار .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من ختم القرآن فله دعوة مستجابة .

وكان أنس رضى الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا .

فصل
فى تحسين الصوت

ويستحب تحسين القراءة ، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنَّه ما استطاع ، فأما القراءة بالألحان [2] ، فقد كرهها السلف .

ويستحب الإسرار بالقراءة ، وقد جاء فى الحديث : « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » [3] . إلا أنه ينبغى أن يسمع نفسه .

ولا بأس بالجهر فى بعض الأوقات لمقصود صحيح ، إما لتجويد الحفظ ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم ، أو ليوقظ الوسنان [4] .

---

(١) الهذرمة : السرعة فى القراءة والكلام (مختار الصحاح ص ٦٩٣) .

(٢) أى القراءة بالألحان المطربة المرجعة كترجيع الغناء ، فإن ذلك ممنوع لما فيه من إخراج التلاوة عن أوضاعها. وانظر فى ذلك كتاب القول السديد فى فن التجويد ص ٤٣ .

(٣) أخرجه بمعناه أبو داود فى الصلاة : ٢/ ٣٩ (١٣٣٣) .

(٤) الوسن : شدة النوم (القاموس : ٤/ ٢٧٥) .

فأما حكم القراءة فى الصلاة ، ومقدار ما يقرأ فى صلاة الفرض ، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور فى كتب الفقه .

ومن كان عنده مصحف ينبغى له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً .

وينبغى لتالى القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه فى إيصال معانى كلامه إلى أفهامهم ، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه ، فإن التدبر هو المقصود من القراءة ، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية ، فليرددها ، فقد روى أبو ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها ﴿ **إن تُعَذبهمْ فَإنهُم عبادُكَ** ﴾ الآية [1] [المائدة : ١١٨] وقام تميم الدارى رضى الله عنه بآية وهى قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السيِّئات أن نَّجْعَلَهُم كَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات** ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وكذلك قام بها الربيع ابن خيثم رحمه الله عليه ليلة .

وينبغى للتالى [2] أن يستوضح من كل آية ما يتعلق بها ، ويتفهم ذلك ، فإذا تلا قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ السَّموَات وَالأَرْض** ﴾ [الأنعام : ١] فليعلم عظمته ويتلمح قدرته فى كل ما يراه .

وإذا تلا : . ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ** ﴾ : [الواقعة : ٥٨] فليتفكر فى نطفة متشابهة الأجزاء ، كيف تنقسم إلى لحم وعظم ، وعرق وعصب ، وأشكال مختلفة من رأس ويد ، ورجل ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع ، والبصر والعقل وغير ذلك ، فيتأمل هذه العجائب .

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر .

وليتخلَّ التالى من موانع الفهم ، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه ، فيكرره التالى ، فيصرف همته عن فهم المعنى .

ومن ذلك أن يكون التالى مصراً على ذنب ، أو متصفاً بكبر ، أو مبتلى بهوى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى إقامة الصلاة : ١/٤٢٩ (١٣٥٠) وفى الزوائد : إسناده صحيح رواته جميعاً ثقات ؛ ثم قال : رواه النسائى فى الكبرى . . . إلخ .

(٢) أى القارئ للقرآن .

ـمطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدأه ، فهو كالصدأ على المرآة ، يمنع من تجلى الحق ، فاللقب مثل المرآة ، والشهوات مثل الصدأ ، ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة .

وينبغى لتالى القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده ، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر [(١)] ، فليتنبه لذلك ، فيحنئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه .

فإن ذلك مثل العاصى إذ قرأ القرآن وكرره ، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر به فى الكتاب فهو مقتصر على دراسته ، ومخالف أوامره ، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت .

وينبغى أن يتبرأ من حوله وقوته ، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية[(٢)] ، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير ، كان ذلك سبب قربه .

* * *

(١) السمر والمسامرة : الحديث بالليل (مختار الصحاح ص ٣١٢) ، وأما العبر : أى العظة .

(٢) لأن رب العزة يقول : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم : ٣٢] .

٧ - كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم : أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى ، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى ، ويدل على فضل الذكر قوله تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُم** ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقوله : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] وقوله تعالى : ﴿ **والذَّاكِرِين الله كَثِيراً وَالذَّاكِرَات** ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » (١) .

وفى أفراد مسلم عنه ﷺ أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » (٢) ، وفى ذلك أحاديث كثيرة مذكورة فى فضائل الأعمال .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا على غير ذكر الله عز وجل ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار ، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة » (٣).

وفى حديث آخر : « لا يجلس قومٌ مجلساً لا يذكرون الله عز وجل ولا يصلون على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » .

وأما فضيلة الدعاء : فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس شئ أكرم على الله عز وجل من الدعاء » (٤) و« أشرف العبادة الدعاء » (٥)

---

(١) أخرجه البخارى تعليقاً فى التوحيد : ٥٠٨/١٣ ، باب (٤٣) عن أبى هريرة . ووصله أحمد فى المسند: ٥٤٠/٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء : ٢٠٧٤/٤ (٣٨ ، ٣٩) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٢٦٥/٤ - ٢٦٦ (٤٨٥٥) .

(٤) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٤٢٥/٥ (٣٣٧٠) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص ٧١٣ ، ورجاله جميعاً ثقات غير أن الحسن عنعنة وهو مدلس ولا يضر ذلك ، ويشهد له أحاديث كثيرة منها الدعاء مخ العبادة ، والدعاء هو العبادة . (انظر سنن الترمذى : ٤٢٥/٥ - ٤٢٦ (٣٣٧١ - ٣٣٧٢) .

و « من لا يسأل الله يغضب عليه » [1] وفى حديث آخر : « سلو الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل » [2] .

وللدعاء آداب : من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ورمضان من الشهور ، والجمعة من الأسبوع ، والسحر من الليل .

ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة ، وعقب الصلوات ، وعند نزول الغيث وعند القتال فى سبيل الله ، وعند ختم القرآن ، وفى السجود ، وعند الأفطار ، وعند حضور القلب ووجله .

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات ، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه ، وحالة السجود حالة الذل .

ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه ، وأن يخفض صوته حال الدعاء .

ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله عز وجل ، ثم يصلى على النبى ﷺ ولا يتكلف السجع فى الدعاء .

ومن آدابه وهو الأدب الباطن – وهو الأصل فى الإجابة – التوبة ورد المظالم .

فصل فى الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات

اعلم : أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده ، والعلم بقصر العمر وحب ترك التقصير فى هذا العمر القصير ، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل ، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٥ ، ٢٦]، فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات فى ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ**

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات جـ ٥ باب (٢٤) . وأحمد فى المسند : ٢/ ٤٤٢

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٥/٥٢٨ (٣٥٧١) عن ابن مسعود ، وقال : هكذا روى حماد بن واقد هذا الحديث وقد خولف فى روايته ، وحماد بن واقد ليس بالحافظ .

اللَّيل والنَّهَارَ خلْفَةً لِّمن أَرادَ أَن يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : ٦٢] أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما ما فات فى الآخر .

بيان
عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة ، وأراد الليل ستة .

فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

الورد الأول من أوراد النهار : ما بين طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس ، وهو وقت شريف ، وقد أقسم الله تعالى به فقال سبحانه : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ : [التكوير : ١٨] .

فينبغى للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » (١) . روى ذلك عن النبى ﷺ من أفراد البخارى .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذابٍ فى النار وعذابٍ فى القبر» (٢) .

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله ... » إلى آخره ويقول : « بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » (٣) ثلاث مرات ، « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » (٤) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات : ١١/ ١١٧ (٦٣١٢) عن حذيفة . ومسلم ٤/ ٢٠٨٣ (٥٩) عن البراء .

(٢) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء : ٤/ ٢٠٨٩ (٧٥) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٤/ ٣٢٥ (٥٠٨٨) . (٤) أخرجه مسلم فى الصلاة : ١/ ٢٩٠ (١٣).

فإذا صلى الفجر قال وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويمت ، وهو على كل شئ قدير » عشر مرات (١) .

ويذكر سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ،أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٢) .

ويقول : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » (٣) .

ويدعو : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » (٤) .

ويدعو بدعاء أبى الدرداء : « اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم » (٥) .

فهذه الأدعية لا يستغنى المريد عن حفظها .

وينبغى له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلى السنة فى منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول : « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وحق ممشاى هذا ، فإنى لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٦) .

---

(١) أخرجه مسلم فى الذكر : ٤/ ٢٠٨٩ (٧٦) .
(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ١١/ ١٠٠ - ١٠١ (٦٣٠٦) .
(٣) سبق تخريجه من حديث ابن مسعود مطولاً وأخرجه مسلم .
(٤) أخرجه مسلم فى الذكر : ٤/ ٢٠٨٧ (٧١) .
(٥) أخرج نحوه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الذكر : ٤/ ٢٠٨٤ (٦١ - ٦٢) .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى المساجد والجماعات : ١/ ٢٥٦ (٧٧٨) وفى الزوائد : هذا إسناده مسلسل بالضعفاء، لكن رواه ابن خزيمة من طريق آخر فهو صحيح عنده .

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم فى « صحيحه » أن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى ﷺ ثم ليقل : « اللهم افتح لى أبواب رحمتك» وإذا خرج فليقل : « اللهم إنى أسألك من فضلك » [(١)] ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية .

فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث فى مكانه إلى طلوع الشمس .

فقد روى أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى الفجر فى جماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » [(٢)] .

وليكن وظائف وقته أربعاً : الدعاء ، والذكر ، والقراءة ، والفكر . وليأت بما أمكنه ، وليتفكر فى قطع القواطع ، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدى وظائف يومه وليتفكر فى نعم الله تعالى ليتوفر شكره .

الورد الثانى : ما بين طلوع الشمس إلى الضحى ، وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار ، إذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة ، وهو الربع ، وهذا وقت شريف وفيه وظيفتان : إحداهما : صلاة الضحى .

والثانية : ما يتعلق بالناس من عيادة مريض ، أو تشييع جنازة ، أو حضور مجلس علم ، أو قضاء حاجة مسلم ، وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر .

الورد الثالث : من وقت الضحى إلى الزوال ، والوظيفة فى هذا الوقت ، الأقسام الأربعة ، وزيادة أمرين :

أحدهما : الاشتغال بالكسب والمعاش ، وحضور السوق ، فإن كان تاجراً فليتجر بصدق وأمانة ، وإن كان صاحب صنعة ، فليصنع بنصيحة وشفقة ، ولا ينس ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ، وليقنع بالقليل .

والثانى : القيلولة ، فإنها مما تعين على قيام الليل ، كما يعين على صيام النهار فإن نام فليجتهد فى الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت .

---

(١) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين : ١/ ٤٩٤ (٦٨) .

(٢) أخرجه الترمذى فى أبواب الصلاة : ٢/ ٤٨١ (٥٨٦) وقال : هذا حديث حسن غريب ، وسألت محمد بن إسماعيل - البخارى - عن أبى ظلال فقال : هو مقارب الحديث .

واعلم : أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهو ثمان ساعات ، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه ، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله ، فإذا نام أكثر من ذلك فى الليل فلا وجه لنومه فى النهار بل من نقص منه استوفى ما نقص فى النهار .

الورد الرابع : ما بين الزوال [(١)] إلى الفراغ من صلاة الظهر ، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها ، وينبغى له فى هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله ، ثم يقوم فيصلى الظهر وسنتها ، ثم يتطوع بعدها بأربع .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ، فيستحب له فى هذا الوقت الاشتغال بالذكر ، والصلاة ، وفنون الخير ، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة .

الورد السادس : إذا دخل العصر إلى أن تصفر الشمس ، وليس فى هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين ، ثم فرض العصر ، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التى سبق ذكرها فى الورد الأول ، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الورد السابع : من اصفرار الشمس إلى أن تغرب ، وهو وقت شريف . قال الحسن البصرى رحمه الله : كانوا أشد تعظيماً للعشى من أول النهار ، فيستحب فى هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة .

وبالمغرب تنتهى أوراد النهار فينبغى أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه ، فقد انقضت من طريقه مرحلة ، وليعلم أن العمر أيام تنقضى جملتها بانقضاء آحادها .

قال الحسن : يا بن آدم ، إنما أنت أيام ، إذا مضى يومك مضى بعضك . وليتفكر هل ساوى يومه أمسه ، فإن رأى أنه قد توفر على الخير فى نهاره ، فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق ، فإن تكن الأخرى ، فليتب وليعزم على تلافى ما سبق من التفريط فى الليل ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه ، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير ، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضى يوم إلا عن صدقة ، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير .

---

(١) الزوال : الذهاب والاستحالة ، وزال النهار : ارتفع والشمس زوالاً وزوولاً - بلا همزة - وزولاً : مالت عن كبد السماء . (انظر القاموس : ٣٩١/٣) .

ذكر أوراد الليل

الورد الأول : إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء ، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين (١) ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً وَممَّا رَزَقْنَاهُم يُنفقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٦] أن هذه الآية نزلت فى أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء ، عدلن له بعبادة اثنتى عشرة سنة » (٢) . رواه الترمذى .

الورد الثانى : من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم ، يستحب أن يصلى بين الأذانين ما أمكنه ، وليكن فى قراءته : ﴿ **ألم * تَنْزِيلُ الكتَاب** ﴾ [السجدة : ١ ، ٢] و﴿ **تَبَارَكَ الَّذى بِيَده المُلْكُ** ﴾ [الملك : ١] . فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأهما .

وفى حديث آخر ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم يصبه فاقة » (٣) .

الورد الثالث : الوتر قبل النوم ، إلا من كان عادته القيام بالليل ، فإن تأخيره فى حقه أفضل ، قالت عائشة رضى الله عنه : « من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل ، وأوسطه ، وآخره ، فانتهى وتره إلى السحر » (٤) متفق عليه ، ثم ليقل بعد الوتر : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات .

الورد الرابع : النوم ، وإنما عددناه من الأوراد ، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسبت عبادة . وقد قال معاذ رضى الله عنه : إنى لأحتسب فى نومتى كما أحتسب فى قومتى .

---

(١) أى المغرب والعشاء . (٢) أخرجه الترمذى فى أبواب الصلاة : ٢/٢٩٨ - ٢٩٩ (٤٣٥) وضعفه .

(٣) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ٢/٥٣٨ (٨٩٤٢) ، وعزاه للبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود وضعفه . (٤) أخرجه البخارى فى الوتر : ٢/٥٦٤ (٩٩٦) . ومسلم ١/٥١٢ (١٣٦) .

فمن آداب النوم : أن ينام على طهارة ، لما روت عائشة رضى الله عنها : « أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة » (١) .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : إن الأرواح يعرج بها فى منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش ، فما كان طاهراً سجد عند العرش وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش .

ومن آدابه أن يتوب قبل نومه ، لأنه ينبغى لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه ، لأنه ربما مات فى نومه .

ومنها : أن يزيل كل غش فى قلبه لمسلم ، ولا ينوى ظلمه ، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ .

ومنها : أن لا يبيت من له شئ يوصى به إلا ووصيته مكتوبة عنده ، لأن فى «الصحيحين » من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « ما حق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه ، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » (٢) .

وينبغى له أيضاً أن لا يبالغ فى تمهيد الفراش متنعماً بذلك ، فإنه يزيد فى النوم فإن النبى ﷺ ثُنى له فراشه فقال : « منعتنى وطأته صلاتى الليلة » .

وينبغى أن لا ينام حتى يغلبه النوم فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة .

ومن آدابه أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث فى ذلك ، وأن ينام على جنبه الأيمن ، فمما جاء فى ذلك ما روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدرى ما حدث بعده » (٣) .

فإذا وضع جنبه فليقل : « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (٤) أخرجاه فى « الصحيحين » .

وفى « الصحيحين » أيضاً ، من حديث عائشة ، أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قل

---

(١) أخرجه البخارى فى الغسل : ١/٤٦٨ (٢٨٨) . ومسلم ١/٢٤٨ (٢١-٢٢) .

(٢) أخرجه التسعة : البخارى فى الوصايا : ٥/٤١٩ (٢٧٣٨) . ومسلم ٣/١٢٤٩ (١-٣) .

(٣) أخرجه التسعة عدا مالك ، البخارى فى الدعوات : ١١/ ١٤٠ (٦٣٢٠) . (٤) متفق عليه .

﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات [1] .

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيراً » [2] .

وعن علىّ رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة : « إذا أخذتما مضجعكما أو أويتما إلى فراشكما ، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين ، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » متفق عليه [3] .

وحديث أبى هريرة فى حفظ زكاة رمضان مشهور ، وفيه أن شيطاناً قال له : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان . فأخبر رسول الله ﷺ فقال :« أما إنه قد صدقك وهو كذوب »[4] .

وفى أفراد مسلم أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ولا مُؤوى » [5] .

فإذا استيقظ للتهجد ، فليدع بدعاء رسول الله ﷺ : « اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت » وفى

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات : ١١/١٢٩ (٦٣١٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ١١/١١٧ (٦٣١٣) . ومسلم ٤/٢٠٨١ (٥٦)

(٣) أخرجه البخارى فى الدعوات : ١١/١٢٣ (٦٣١٨) . ومسلم ٤/٢٠٩١ (٨٠) .

(٤) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٦/٣٨٦ (٣٢٧٥) .

(٥) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء : ٤/٢٠٨٥ (٦٤) عن أنس .

رواية : « وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت »[1] متفق عليه .

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى ، وأول ما يجرى على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى ، فهاتان علامتان على الإيمان .

الورد الخامس من أوراد الليل : يدخل بمضى النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه ، وذلك وقت شريف . قال أبو ذر رضى الله عنه : سألت رسول الله ﷺ : أى صلاة الليل أفضل ؟ فقال : « نصف الليل أو جوف الليل ، وقليل فاعله » [2] .

وروى أن داود عليه السلام قال : يا رب ، أية ساعة أقوم لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ، لا تقم أول الليل ولا آخره ، ولكن قم فى شطر الليل حتى تخلو بى وأخلو بك ، وارفع إلىَّ حوائجك .

فإذا قام إلى التهجد قرأ العشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كما روى فى «الصحيحين » أن النبى ﷺ فعل ذلك [3] ، وليدع بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل ، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا قام أحدكم يصلى بالليل ، فليبدأ بركعتين خفيفتين»[4] رواه مسلم ، ثم يصلى مثنى مثنى ، وأكثر ما روى عن النبى ﷺ أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر ، وأقلهن سبع [5] .

الورد السادس من الليل : السدس الأخير وهو وقت السحر ، قال الله تعالى : ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٨] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٣/ ٣٨٣ (٧٣٨٥) .

(٢) أخرجه حميد بن زنجويه ، ومحمد بن نصر المروزى فى « قيام الليل » ص ٣٥ . وفى إسناده أبو مسلم الجذمى . قال ابن حجر فى تقريبه (ص ٦٧٣) مقبول . قلت : للحديث شواهد تقوية وتعضده : منها الحديث الصحيح الذى رواه أبو هريرة مرفوعاً : أى الصلاة أفضل ؟ قال : الصلاة فى جوف الليل . أخرجه مسلم وكثير من أصحاب السنن والمسانيد .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير : ٨/ ٨٣ - ٨٤ (٤٥٦٩) .

(٤) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين : ١/ ٥٣٢ (١٩٨) .

(٥) أخرج البخارى فى كتاب « التهجد » : ٣/ ٢٥ (١١٣٧ - ١١٣٩) عن ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول كيف صلاة الليل ؟ قال : « مثنى مثنى » .

وفى الحديث : إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة .

وجاء طاوس إلى رجل وقت السحر فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحداً ينام وقت السحر .

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر ، فليستغفر الله عز وجل . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يفعل ذلك .

فصل (فى اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال)

اعلم : أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال :

إما أن يكون عابداً ، أو عالماً ، أو متعلماً ، أو والياً ، أو محترفاً ، أو مستغرقاً بمحبة الله عَزَّ وجَلَّ مشغولاً به عن غيره .

الأول : العابد : وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد ، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد ، وقد تختلف وظائفه ، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة ، حتى يختم فى يوم ختمة ، أو ختمتين ، أو ثلاثاً ، وكان فيهم من يكثر التسبيح ، ومنهم من يكثر الصلاة ، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت .

فإن قيل : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد ؟

فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع ، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك ، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص*، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره ، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه ، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره .

قال أبو سليمان الدارانى : فإن وجدت قلبك فى القيام فلا تركع ، وإذا وجدته فى الركوع فلا ترفع .

الثانى : العالم : الذى ينتفع الناس بعلمه فى فتوى ، أو تدريس ، أو تصنيف ، أو [illegible]ير ، فترتيبه فى الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة فى الكتب [illegible]ـنيف والإفادة ، فإن استغرق الأوقات فى ذلك ، فهو أفضل ما يشتغل به بعد [illegible]ـوبات ، وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة الذى يرغب فى الآخرة ، ويعين على

سلوك طريقها ، والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته ، لأن استغراق الأوقات فى العلم لا تصبر عليه النفس ، فينبغى أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا ، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى فى الإفادة والتعليم فإن لم يكن عنده من يتعلم ، وصرف ذلك الزمان إلى التفكير فى العلوم ، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات ، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة ، ولا يترك ذلك إلا فى وقت أكل ، أو طهارة ، أو مكتوبة ، أو قيلولة ، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما قرأ عليه من تفسير ، أو حديث ، أو علم نافع ، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح ، فيكون ورده الأول من عمل اللسان والثانى فى عمل القلب بالتفكير ، والثالث فى عمل العين واليد والمطالعة والنسخ والرابع بعد العصر فى عمل السمع لتتروح العين واليد ، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرا بالعين .

وأما الليل : فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعى رحمه الله ، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء : الثلث الأول لكتابه العلم ، والثانى للصلاة ، والثالث للنوم ، فأما الصيف فربما لا يحتمل ذلك ، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار .

الثالث : حال المتعلم : فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل ، وحكم المتعلم حكم العالم فى ترتيب الأوراد ، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة ، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف ، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها .

الرابع : الوالى : مثل الإمام ، والقاضى ، أو المتولى للنظر فى أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة ، لأنه عبادة يتعدى نفعها ، فينبغى أن يقتصر فى النهار على المكتوبات ، ثم يستفرغ باقى الزمان فى ذلك ، ويقنع بأوراد الليل .

الخامس : المحترف : وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله ، فليس له أن يستغرق الزمان فى التعبد ، بل فى الكسب مع دوام الذكر ، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد .

السادس : المستغرق بمحبة الله سبحانه : فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى ، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده .

وينبغى أن يداوم على الأوراد ، لقول النبى ﷺ : « أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل » [١] . وكان النبى ﷺ عمله دِيمة » [٢] .

باب فى قيام الليل وفضله والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقال النبى ﷺ : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قربة إلى ربكم ، ومغفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم » [٣] وفى فضله أحاديث كثيرة .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة فى جوف الليل ، فقيل له : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره .

فصل فى الأسباب الميسرة لقيام الليل

اعلم : أن قيام الليل صعب إلا من وُفق للقيام بشروطه الميسره له .

فمن الأسباب ظاهر ، ومنها باطن .

فأما الظاهر : فأن لا يكثر الأكل ، كان بعضهم يقول : يا معشر المريدين ، لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً ، فتخسروا كثيراً .

ومنها : أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة .

ومنها : أن لا يترك القيلولة بالنهار ، فإنها تعين على قيام الليل .

ومنها : أن يجتنب الأوزار .

وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته .

---

(١) أخرجه البخارى فى اللباس : ١٠/٣٢٦ (٥٨٦١) .

(٢) هذا حديث متفق عليه من حديث عائشة قالت : كان عمله ديمة ، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق . (انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم : ٤/٢٧٧ (١٩٨٧) . ومسلم ١/٥٤١ (٢١٧) .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٥/٥١٦ - ٥١٧ (٣٥٤٩) عن بلال قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث بلال ، وفيه محمد بن سعيد الشامى : متروك . ورواه عن أبى هريرة بعده (٣٥٥٠) وقال : وهذا أصح من حديث أبى إدريس عن بلال .

وأما الميسرات الباطنة :

فمنها سلامة القلب للمسلين ، وخلوه من البدع ، وإعراضه عن فضول الدنيا .

ومنها : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل .

ومنها : أن يعرف فضل قيام الليل .

ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى ، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه ، وأنه حاضره ومشاهده ، فتحمله المناجاة على طوال القيام .

قال أبو سليمان رحمه الله : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ قال : « إن فى الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه ، وذلك كل ليلة » (١) .

وإحياء الليل مراتب :

إحداها : أن يحيى الليل كله ، روى ذلك عن جماعة من السلف .

الثانية : أن يقوم نصف الليل ، وهو مروى أيضاً عن جماعة من السلف ، وأحسن الطريق فى هذا أن ينام الثلث الأول من الليل ، والسدس الأخير منه .

المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل ، فينبغى أن ينام النصف الأول ، والسدس الأخير ، وهو قيام داود عليه السلام .

ففى « الصحيحين » : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثة ، وينام سدسه » (٢) ونوم آخر الليل حسن ، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة ، ويقلل صفرته .

المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسه ، والأفضل من ذلك ما كان فى النصف الأخير ، وبعضهم يقول : أفضله السدس الأخير .

المرتبة الخامسة : أن يراعى التقدير ، فإن مراعاة ذلك صعب .

---

(١) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين : ١/ ٥٢١ (١٦٦ - ١٦٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء : ٦/ ٥٢٥ (٣٤٢٠) . ومسلم ٢/ ٨١٦ (١٨٩) .

أحدهما : أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام ، فإذا انتبه قام ، فإذا غلبه النوم نام ، وهذا من أشد المكابدة ، وهو طريق جماعة من السلف .

وفى « الصحيحين » من حديث أنس رضى الله عنه : ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ مصلياً من الليل إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه [١] . وكان عمر رضى الله عنه يصلى من الليل ما شاء ، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله ، فيقول : الصلاة الصلاة .

وقال الضحاك : أدركت أقواماً يستحيُون من الله فى سواد هذا الليل من طول الضجعة .

الطريق الثانى : أن ينام أول الليل ، فإذا أخذ حظه من النوم وانتبه ، قام الباقى .

قال سفيان الثورى : إنما هى أول نومة ، فإذا انتبهت لم أقلها - يعنى : لم ينم.

المرتبة السادسة : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، فقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال : « صلوا من الليل ، صلوا أربعاً ، صلوا ركعتين . . . » [٢] الحديث .

وفى « سنن أبى داود » قال : قال رسول الله ﷺ : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين ، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » [٣] . وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل ، ويقول : صلوا ركعتين ، فإن الصلاة فى جوف الليل تحط الأوزار .

فهذه طرق قسمة الليل ، فليتخير المريد لنفسه ، ما يسهل عليه ، فإن صعب القيام عليه فى وسط الليل ، فلا ينبغى أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورود السَّحر ليكون قائماً فى الطرفين ، وهذه مرتبة سابعة .

فصل

« فيمن صعب عليه الطهارة فى الليل »

فأما من صعبت عليه الطهارة فى الليل ، وثقلت عليه الصلاة ، فليجلس مستقبل القبلة ، وليذكر الله تعالى ، وليدع مهما قدر . فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع

---

(١) متفق عليه من حديث أنس . (٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف فى الصلاة : ٢/ ١٧١ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ٢/ ٧١ (١٤٥١) .

ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته ، فليأت به بعد صلاة الضحى . فقد ورد ذلك فى الحديث (١) .

وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها ، ففى « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو : « لا تكن مثل فلان ، كان يقوم فترك قيام الليل » (٢) .

فصل
فى بيان الليالى والأيام الفاضلة

أما الليالى المخصوصات بمزيد الفضل التى يستحب إحياؤها ، فخمس عشرة ليلة ولا ينبغى للمريد أن يغفل عنهن ، لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الربح فمتى يربح؟! فمن هذه الليالى سبع فى رمضان : الليلة السابعة عشرة ، وهى التى كانت صبيحتها وقعة بدر ، والست الباقية هن أوتار العشر [الأخير] إذ فيهن تُطلب ليلة القدر ، وأما الثمانى الأخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة سبع وعشرين منه فإنها ليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين .

وقد ورد صلوات لبعض هذه الليالى وليس فيها ما يثبت .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يوماً : يوم عرفة ، ويوم عاشوراً ، ويوم سبع وعشرين من رجب ، وهو أول يوم هبط فيه جبريل على النبى ﷺ ، ويوم سبع عشرة من رمضان ، كان فيه وقعة بدر ، ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام المعلومات ، وهى عشر ذي الحجة ، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق (٣) .

ومن فواضل الأيام فى الأسبوع : يوم الاثنين ، والخميس ، وأيام البيض (٤) . وفيها فضل كبير مذكور فى فضائل الصوم .

آخر كتاب الأوراد ، وهو آخر ربع العبادات ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) والحديث الذى يقصده رواه مسلم وغيره عن عمر بن الخطاب مرفوعاً قال : « من نام عن حزبه أو عن شئ منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » . أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين: ١/ ١٥ (١٤٢) . (٢) أخرجه البخارى فى التهجد : ٣/ ٤٥ (١١٥٢) ، ومسلم فى الصيام : ٢/ ٨١٤ (١٨٥) .

(٣) أيام التشريق الثلاثة : هم اليوم الثانى والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى المبارك .

(٤) الأيام القمرية من كل شهر عربى وهى : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

الربع الثانى من الكتاب
ربع العادات

١ – باب فى آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة

وآداب الأكل ، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن القسم الأول : غسل اليدين قبل الأكل ، كما ورد فى الحديث (١) ، لأنها لا تخلو من درن ، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض ، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة ، وهو أدنى إلى التواضع ، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة ، فينصب رجله اليمنى ، ويعتمد على اليسرى وينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل ، ولا يقصد به التنعم فقط ، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع . قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه وثلث لنفسه » (٢) .

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع ، وأن يرفع يده قبل الشبع ، ومع فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب ، ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق ، ولا يحتقر اليسير منه ، وأن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده .

القسم الثانى : فى الآداب حالة الأكل : وهو أن يبدأ باسم الله فى أوله ، ويحمد الله تعالى فى آخره .

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها ، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى ، ولا يذم مأكولاً ، ومن ذلك أن يأكل مما يليه ، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة ، وليأكل بثلاث أصابع ، وإذا وقعت لقمة أخذها .

---

(١) يقصد بذلك قول النبى ﷺ : « بركة الطعام الوضوء قبله وبعده » . والحديث أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد ، وهو ضعيف .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٤/٥٠٩ (٢٣٨٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ومن ذلك أن لا ينفخ فى الطعام الحار ، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق واحد، ولا يجمعه فى كفه ، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه ، وكذا كل ماله عجم [(١)] وثفل ، ولا يشرب الماء فى أثناء الطعام ، فإنه أجود فى باب الطب .

ومن آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه : وينظر فيه قبل الشرب ، ويمص مصاً لا عبًا [(٢)] ، فقد روى عن عليّ رضى الله عنه : مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً ، فإن الكباد [(٣)] من العب [(٤)] .

ولا يشرب قائماً ، ويتنفس فى شربه ثلاثاً .

ففى « الصحيحين » أن النبى ﷺ كان يتنفس فى الإناء ثلاثاً [(٥)] ، والمعنى يتنفس فى شربه فى الإناء ، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس ، لا أن يكون التنفس فى الإناء .

القسم الثالث من آداب الأكل : ما يستحب بعد الطعام ، وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ، وأن يسلت [(٦)] القصعة ، وليحمد الله ، ففى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » [(٧)] ، ويغسل يديه من الغمر [(٨)] .

فصل

فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل

من ذلك أن لا يبتدئ فى الأكل إلا إذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن أو زيادة فضل ، إلا أن يكون هو المتبوع [(٩)] .

ومنها أن لا يسكتوا على الطعام ، بل يتكلمون بالمعروف ، ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

ومن ذلك أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه ، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل ، بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض .

---

(١) العَجَم : النوى ، والثفل : الحب .   (٢) العب : أن يشرب الماء مرة واحدة دون أن يقطع الجرع .

(٣) الكباد : داء يصيب الكبد .

(٤) أخرجه الديلمى فى مسنده من حديث أنس ، وفى إتحاف السادة المتقين : ٥/ ٢٢١ ، والعراقى فى المغنى : ٢/ ٦ ، وانظر كنز العمال برقم (٤١٠٥٠) . (٥) أخرجه البخارى فى الأشربة : ١٠/ ٩٥ (٥٦٣١) .

(٦) يسلت القصعة : أى يمسحها ولا يبقى فيها فضلة .   (٧) أخرجه مسلم فى الذكر : ٤/ ٢٠٩٥ (٨٩)

(٨) الغمر – بفتح الغين المعجمة والميم – الدسم من اللحم .   (٩) يراد به هنا صاحب البيت أو الوليمة .

ومن ذلك لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا .

ومن ذلك أن لا يفعل ما يستقذره من غيره ، فلا ينفض يده فى القصعة ، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه ، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمى به ، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ، ولا يغمس اللقمة الدسمة فى الخل ، ولا الخل فى الدسمة ، فقد يكرهه غيره ، ولا يغمس بقية اللقمة التى أكل منها فى المرقة .

فصل
فى تقديم الطعام إلى الإخوان

ويستحب تقديم الطعام إلى الإخوان ، روى ذلك عن علىّ رضى الله عنه قال : لأن أجمع إخوانى على صاع من الطعام أحب إلى من أن أعتق رقبة .

وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص [(١)] ، والطعام الطيب ، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول : كلوا ، فما صنعته إلا لكم .

ويقدم ما حضر من غير تكلف ، ولا يستأذنهم فى التقديم ، بل يقدم من غير استئذان ، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده .

ومن آداب الزائر أن لا يقترح طعاماً بعينه ، وإن خير بين طعامين اختار أيسرهما إلا أن يعلم أن مضيفه يسر باقتراحه ، ولا يقصر عن تحصيل ذلك ، فقد نزل الشافعى رحمه الله على الزعفرانى ، وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ، ويسلمها إلى الجارية ، فأخذ الشافعى الرقعة وألحق فيها لوناً آخر ، فلما علم الزعفرانى اشتد فرحه .

فصل
لا تدخل على قوم يأكلون

ولا ينبغى لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم ، فإن صادفهم من غير قصد ، فسألوه الأكل ، نظر ، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه ، فلا يأكل ، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم ، جاز له أن يأكل .

---

(١) الخبيص : نوع من الطعام مصنوع من التمر والسمن (انظر القاموس المحيط : ٢/ ٣٠٠) .

ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً أنه إن أكل من طعامه سر بذلك ، جاز له أن يأكل .

فصل
فى آداب الضيافة

ومن آداب الضيافة ، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق ، وقال بعض السلف : لا تأكل إلا طعام تقى ، ولا يأكل طعامك إلا تقى (١) .

وينبغى أن يقصد الفقراء دون الأغنياء .

وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافتهم ، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش (٢) وقطيعة الرحم . وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه ، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر ، بل استعمال السنة فى إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور على قلوب المؤمنين ، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة ، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب .

وأما آداب الإجابة ، فإن كانت دعوة عرس ، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم فى اليوم الأول ، وإن كانت لغيره ، فهى جائزة ، ثم ينبغى أن لا يخص الغنى بالإجابة دون الفقير ، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً ، بل يحضر ، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يسر أخاه المسلم فليفطر .

فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة ، وكذلك إذا كان ثَمَّة فرش محرمة أو إناء محرم ، أو مزمار أو صورة ، وكذلك إذا كان الداعى ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو مفاخراً بدعوته .

وينبغى أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل ، بل ينوى به الاقتداء بالسنة، وإكرام أخيه المؤمن ، وينوى صيانة نفسه عمن يسئ به الظن ، فربما ، قيل عنه إذا امتنع : هذا متكبر .

---

(١) هذا معنى حديث شريف رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعاً قال : لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى . وأخرجه أبو داود برقم ٤٨٣٢ ، والترمذى وحسنه برقم ١٣٩٥

(٢) الإيحاش : هنا بمعنى الوحشة .

وينبغى أن يتواضع فى مجلسه إذا حضر ، ولا يتصدر ، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعده ، ولا يكثر النظر إلى المكان الذى يخرج منه الطعام ، فإنه دليل على الشره .

فصل
فى آداب إحضار الطعام

وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب :

الأول : تعجيله ، فذلك من إكرام الضيف .

الثانى : تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها ، وذلك أصلح فى باب الطب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢١, ٢٢].

ثم أفضل ما يقدر بعد الفاكهة اللحم ، خصوصاً المشوى ، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد ، ثم الحلوى ، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد ، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر على اليد عند الغسل .

الثالث : أن يقدم جميع الألوان الحاضرة .

الرابع : أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم .

الخامس :أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص فى المروءة.

وينبغى أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام .

فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغى أن يخرج معه إلى باب الدار ، فإنه سنة وذلك من إكرام الضيف .

ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه ،وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

وأما الضيف فينبغى أن يخرج طيب النفس وإن جرى فى حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع ، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه ، ويراعى قلبه فى قدر الإقامة [1] .

* * *

---

(١) وقد بين لنا الرسول ﷺ أن الضيافة ثلاثة أيام ، فما زاد فهو صدقة . والحديث أخرجه البخارى فى الأدب : ٥٤٨/١٠ (٦١٣٥) . ومسلم فى اللقطة ١٣٥٢/٣ (١٤) .

٢ - كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به

لا يختلف العلماء فى أن النكاح مستحب ، ومندوب إليه ، كثير الفضائل ، وفيه فوائد:

منها : الولد ، لأن المقصود بقاء النسل ، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعى لذلك، ليبقى جنس الإنسان .

وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته (١) .

وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الصغير .

ومن فوائد النكاح : التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة .

وفيه ترويح النفس ، وإيناسها بمخالطة الزوجة .

ومنها : تفريغ القلوب عن تدبير المنزل ، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب العيش ، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة ، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته ، ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة ، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب .

ومن فوائده أيضاً : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى صلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربية الأولاد ، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها ، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله عَزَّ وجَلَّ .

وفى أفراد مسلم ، عن النبى ﷺ أنه قال : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أفضلها الذى أنفقته على أهلك » (٢) .

---

(١) فقد ورد فى حديث صحيح عن أنس مرفوعاً قال : كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل ويقول : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة (انظر مسند أحمد : ٣/١٥٨ ، ٢٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم فى الزكاة : ٢/٦٩٢ (٣٨ ، ٣٩) . والترمذى برقم ١٩٦٦ وقال : حسن صحيح ، وأحمد : ٥/٢٧٩

فصل (فى آفات النكاح)

وفى النكاح آفات :

أقواها : العجز عن طلب الحلال ، فإن ذلك يصعب ، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له .

الثانية : القصور عن القيام بحقوق النساء ، والصبر على أخلاقهن وأذاهن ، وفى ذلك خطر ، لأن الرجل راع وهو مسئول عن رعيته .

الثالثة : أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله عز وجل ، فينقضى ليله ونهاره بالتمتع بذلك ، فلا يتفرغ القلب للفكر فى الآخرة والعمل لها .

فهذه مجامع الآفات ، والفوائد ، فالحكم على شخص واحد ، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل ينبغى للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال ، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد ، بأن كان له مال حلال وحسن خلق ، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل ، فلا شك أن النكاح أفضل ، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات ، فتركه أفضل ، وهذا فى حق من لم يحتج إلى النكاح ، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه .

فصل (فى طيب العشرة)

ويعتبر فى المرأة لطيب العشرة أمور :

أحدها : الدين ، وهو الأصل ، لقول النبى ﷺ : « عليك بذات الدين » [1] فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها ، وأزرت به [2] . وإن سلكت سبيل الغيرة لم يزل فى بلاء وتكدير عيش .

الثانى : حسن الخُلُق ، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها .

الثالث : حسن الخَلْق ، وهو المطلوب ، إذ به يحصل التحصن ، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة . وقد كان أقوام لا ينظرون فى الحسن ، ولا يقصدون التمتع ، كما

---

(١) جزء من حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى النكاح : ٩/ ٣٥ (٥٠٩٠) . ومسلم ٢/ ١٠٨٦ (٥٣).

(٢) أزرى به : أى قلل من قيمته .

روى أن الإمام أحمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على أختها ، إلا أن هذا يندر والطباع على ضده .

الرابع : خفة المهر ، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين (١) .

وقال عمر رضى الله عنه : لا تغالوا فى مهور النساء (٢) .

وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة، ويكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

قال الثورى : إذا تزوج الرجل وقال : أى شئ للمرأة ؟ فاعلم أنه لص .

الخامس : البكارة ، لأن الشرع ندب إلى ذلك ، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب ، فيوجب ذلك الود ، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف ، وهو أيضاً أكمل لمودته لها ، لأن الطبع ينفر من التى مسها غيره .

السادس : أن تكون ولوداً .

السابع : النسب ، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح .

الثامن : أن تكون أجنبية .

وكما ينبغى للرجل أن ينظر فى المرأة ، ينبغى للوالى أن ينظر فى دين الرجل وأخلاقه وأحواله ، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة ، ومتى زوجها من فاسق أو مبتدع فقد جنى عليها وعلى نفسه .

قال رجل للحسن : ممن أزوج ابنتى ؟ قال : ممن يتقى الله ، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها .

فصل فى آداب المعاشرة
والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج ، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً :

الأول : الوليمة فإنها مستحبة .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور فى النكاح : ١/ ١٧١ (٦٢٠) ، وفى إسناده ضعف مسلم بن خالد الزنجى . قال الحافظ ابن حجر فى تقريبه (ص ٥٢٩) : صدوق كثير الأوهام ، ويسار بن عبد الرحمن قال عنه كذلك شيخ مقبول .

(٢) أخرجه أبو داود فى النكاح : ٢/ ٢٤١ (٢١٠٦) .

الثانى : حسن الخلق مع الزوجات . واحتمال الأذى منهن لقصور عقلوهن .

وفى الحديث الصحيح : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » [1] .

واعلم : أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم على طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ ، ففى « الصحيحين » ، من حديث عمر رضى الله عنه أن أزواج النبى ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحدهن اليوم إلى الليل [2] . والحديث مشهور .

الثالث : أن يداعبها ويمازجها ، وقد سابق ﷺ عائشة رضى الله عنها ، وكان يداعب نساءه ﷺ ، وقال لجابر : « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » [3] .

الرابع : أن يكون ذلك بقدر ، ولا ينبسط فى الدعابة إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة ، بل ينبغى أن يقصد طريق الاقتصاد . وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه عتب على بعض عماله ، فكلمته امرأة عمر رضى الله عنه فيه فقالت: يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه [4] ؟ قال : يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يُلعب بك ثم تُتركين .

الخامس : الاعتدال فى الغيرة ، وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التى يخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن ، وقد نهى النبى ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً [5] .

السادس : الاعتدال فى النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير ، ولا ينبغى للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب ، فإن ذلك مما يوغر الصدر .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدرى به كيف معاشرة

---

(١) أخرجه البخارى فى النكاح : ٨/ ١٦١ (٥١٨٦) . ومسلم فى الرضاع ٢/ ١٠٩١ (٦١) .

(٢) أخرجه البخارى فى النكاح : ٩/ ١٨٧ – ١٨٨ (٥١٩١) . ومسلم فى الطلاق ٢/ ١١١١ (٣٤) .

(٣) أخرجه البخارى فى النكاح : ٩/ ٢٤ (٥٠٧٠ ، ٥٠٨٠) . (٤) أى فى أى شئ غضبت منه .

(٥) أخرجه البخارى فى النكاح : ٩/ ٢٥١ (٥٢٤٣) . ومسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٢٧ (١٨١) .

الحائض ، ويلقنها الاعتقاد الصحيح ، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت ، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة ، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر ، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا لا يكاد النساء يراعينه .

الثامن : إذا كانت له نسوة ينبغى أن يعدل بينهن ، والعدل فى المبيت والعطاء ، لا فى الحب والوطء ، فإنه ذلك لا يملكه ، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

التاسع : النشوز (١) ، فإذا كان النشوز من المرأة ، فله أن يؤديها ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكنه ينبغى أن يتدرج فى تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف ، فإن لم ينفع هجرها فى المضجع ، فولاها ظهره أو انفرد عنها بالفراش ، وهجرها فى الكلام فيما دون ثلاثة أيام ، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح ، وهو أن لا يدمى لها جسماً ، ولا يضرب لها وجهاً .

العاشر : فى آداب الجماع ، يستحب البداءة بالتسمية ، والانحراف عن القبلة وأن يتغطى هو وأهله بثوب ، وأن لا يكونا متجردين (٢) ، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل . ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة ، ثم إذا قضى وطره فليتمهل لتقضى وطرها ، فإن إنزالها ربما تأخر .

ومن الآداب : أن تأتزر الحائض بإزار من حقويها (٣) إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها ، ولا يجوز وطؤها فى الحيض ، ولا فى الدبر ، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ .

ومن الآداب : أن لا يحلق شعره ، ولا يقلم أظافره ، ولا يخرج دماً وهو جنب ، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة .

الحادى عشر : فى آداب الولادة ، وهى ستة :

الأول : أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدرى فى أيهما الخير .

---

(١) النشوز : عدم طاعة المرأة لزوجها .　　(٢) التجرد : العرى .

(٣) الحقو : بالفتح والكسر ، وضع الإزار عند الكشح أو الخصر وهو جنب الإنسان ، ونهايته العمود الفقرى .

الثانى : أي أن يؤذن فى أذن المولود حين يولد .

الثالث : أن يسميه اسماً حسناً [١] .

وفى أفراد مسلم : « إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن»[٢] ومن كان له اسم مكروه ، استحب تبديله ، فقد غير النبى ﷺ أسماء جماعة ، وقد كره من الأسماء : أفلح ، ونافع ، ويسار ، ورباح ، وبركه ، لأنه يقال : أهو ثمة ؟ فيقال : لا [٣] .

الرابع : العقيقة عن الذكر شاتان ، وعن الأنثى شاة [٤] .

الخامس : أن يحنكه بتمرة أو حلاوة [٥] .

السادس : الختان .

الثانى عشر : مما يتعلق بالزواج : الطلاق ، وهو أبغض المباحات إلى الله عز وجل فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب ، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها ، فإذا أراد الطلاق فليراع فيه أربعة أشياء .

الأول : أن يطلقها فى طهر لم يصبها فيه ، لئلا تطول عليها العدة .

الثانى : أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم .

الثالث : أن يتلطف فى الأمر فى الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع ، فقد روى عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق .

---

(١) لما رواه أبو الدرداء عن النبى ﷺ قال : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسمائكم » والحديث أخرجه أبو داود فى الأدب : ٤/ ٢٨٩ (٤٩٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى الأدب : ٣/ ١٦٨٢ (٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه عن سمرة مرفوعاً قال : « لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجاحاً ولا أفلح . (انظر كتاب الأدب : ٣/ ١٦٨٦ (١٠ - ١٢) .

(٤) لما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن عائشة ترفعه : عن الغلام شاتان متكافئتان وعن الجارية شاة ، وهو حديث صحيح .

(٥) لما أخرجه الشيخان عن أبى موسى قال : ولد لى غلام فأتيت به النبى عليه الصلاة والسلام فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة » .

الرابع : أن لا يفشى سرها ، وفى الحديث الصحيح فى أفراد مسلم : « إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ، ثم ينشر سرها » [1] .

وروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له : ما الذى يريبك منها فقال : العاقل لا يهتك سراً ، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : ما لى ولامرأة غيرى . فهذا كله فى بيان ما على الزوجة والزوج .

القسم الثانى : من آداب المعاشرة ، ما على المرأة لزوجها .

عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » [2] لعظم حقه عليها .

وفى هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته ، وحقوقه عليها كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الستر والصيانة ، الثانى : القناعة .

وعلى هذا كان النساء فى السلف ، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله : إياك وكسب الحرام ، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار .

ومن الواجب عليها : أن لا تفرط فى ماله ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن كان بغير رضاه ، كان له الأجر وعليها الوزر .

وينبغى لوالدتها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة ، وينبغى للمرأة أن تكون قاعدة فى بيتها ، لازمة لمغزلها ، وقليلة الكلام لجيرانها ، كثيرة الانقباض فى حال غيبة زوجها ، تحفظه غائباً وحاضراً ، وتطلب مسرته فى جميع الأحوال ولا تخونه فى نفسها ولا فى ماله ، ولا توطئ فراشه من يكره ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه ، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها ، قائمة بخدمة الدار فى كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة للحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها .

آخر كتاب النكاح

* * *

---

(١) أخرجه مسلم فى النكاح : ٢/ ١٠٦٠ (١٢٣) عن أبى سعيد .

(٢) أخرجه الترمذى فى الرضاع : ٣/ ٤٦٥ (١١٥٩) وقال : حسن غريب عن أبى هريرة .

٣ - كتاب آداب الكسب والمعاش
وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الله سبحانه وتعالى بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تسبب واكتساب ، تارة للمعاش ، وتارة للمعاد ، ونحن نورد آداب التجارات ، والصناعات ، وضرورة الاكتساب وأسبابها ونشرحها .

فصل
فى فضل الكسب والحث عليه

قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً** ﴾ [النبأ : ١١] فذكره فى معرض الامتنان وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَكُم فيهَا مَعَايشَ قَليلاً مَا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف ١٠] فجعلها نعمة ، وطلب الشكر عليها ، وقال تعالى : ﴿ **ليسَ عليكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً من ربِّكُم** ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « طلب الحلال جهاد » (١) و« إن الله ليحب العبد المحترف » (٢) وفى أفراد البخارى أن النبى ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (٣) .

وفى حديث آخر : « أن زكريا عليه السلام كان نجاراً » (٤) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان آدم عليه السلام حراثاً ، ونوح نجاراً وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زرّاعين ، وصالح تاجراً ، وداود زراداً (٥) وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاةً .

وأما الآثار فروى أن لقمان الحكيم قال لابنه : يا بنى استعن بالكسب الحلال

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ٢/ ٣٢٥ (٥٢٧٣) ، وعزاه للقضاعى عن ابن عباس ، ولأبى نعيم عن ابن عمر ، ورمز له بالضعف .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٤/ ٦٢ ، وعزاه للطبرانى فى الكبير والأوسط عن ابن عمر وقال : فيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف . والمحترف : هو صاحب الحرفة اليدوية .

(٣) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء : ٦/ ٥٢٢ (٣٤١٧) وفى البيوع كذلك .

(٤) أخرجه مسلم فى الفضائل : ٤/ ١٨٤٧ (١٦٩) . (٥) زراداً : أى : حداداً .

فإنه ما افتقر أحد قط أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به .

وقيل لأحمد بن حنبل : ما تقول فى رجل جلس فى بيته أو مسجده وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبى ﷺ : « إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى » [1] ، وقال حين ذكر الطير : « تغدو خماصاً وتروح بطاناً » [2] .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ، يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخلهم والقدوة بهم .

وقال أبو سليمان الدارانى : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبَّد ، فإن قيل : قال أبو الدرداء : زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فاخترت العبادة ؟ فالجواب : أنَّا لا نقول : إن التجارة لا تراد لذاتها ، بل للاستغناء عن الناس ، وإغناء العائلة ، وإفاضة الفضل على الإخوان ، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه ، والتفاخر ونحو ذلك ، فهو مذموم ، وليكن العقد الذى به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين .

الأمر الأول : فى الصحة ، فإن كان العقد بيعاً ، فله ثلاثة أركان : العاقد والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : أما العاقد ، فينبغى للتاجر أن لا يعامل المجنون ، لأنه غير مكلف ، فلا يصح بيعه ، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له ، وكذلك الصبى لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصى ، فيصير بمنزلة العبد المأذون له ، وعند الشافعى لا تصح عقود الصبى ، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة ، يصح بيعه وشراؤه ، وعند الشافعى لا تصح .

وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام ، فلا ينبغى أن يعامل إلا فى شئ يعرف أن عينه حلال .

---

(١) أخرجه البخارى تعليقاً فى الجهاد : ٦/ ١١٥ (باب ٨٨) عن ابن عمر ووصله أحمد فى المسند : ٢/ ٥٠
(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٤/ ٤٩٥ (٢٣٤٤) وقال : حسن صحيح .

الركن الثانى : المعقود عليه ، وهو المال المقصود نقله ، ولا يجوز بيع الكلب [(١)] لأنه نجس العين ، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما ، سواء قلنا : إنهما طاهران أو نجسان ، ولا يجوز بيع الحشرات ، ولا بيع العود والمزمار ، والصور المصنوعة من الطين ونحوه ، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً ، أما الحس فكالطير فى الهواء ، والعبد الآبق ونحوهما ، وأما الشرع فكالمرهون ، وبيع الأم دون الولد الصغير ، أو الولد دون الأم ، فهذا ممنوع تسليمه شرعاً .

الركن الثالث : اللفظ ، وهو الإيجاب والقبول ، فإن تقدم القبول للإيجاب لم يصح فى إحدى الروايتين ، ويصح فى الأخرى ، سواء كان بلفظ الماضى أو بلفظ الطلب ، فإن تبايعا بالمعاطاة ، فظاهر كلام أحمد صحة البيع .

وقال القاضى أبو يعلى : لا يصح ذلك إلا فى الأشياء اليسيرة ، وهذا أصلح الأقوال ، أعنى أن تكون المعاطاة فى الأشياء المحقرة دون النفيسة ، لجريان العادات بذلك ، وينبغى من طريق الورع أن يشرك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف، وقد شدد الله تعالى فى أمر الربا ، وينبغى أن يحذر من الوقوع فيه ، وهو قسمان : ربا الفضل [(٢)] ، وربا النسيئة [(٣)] ، فينبغى أن يعرف ذلك وما يجرى فيها الربا ، ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السَّلَم ، والإجارة والمضاربة ، والشركة ، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة .

فصل
فى العدل واجتناب الظلم فى المعاملة

الأمر الثانى : وهو العدل ، واجتناب الظلم فى المعاملة ، ونعنى الظلم ما يتضرر به الغير ، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص .

الأول : الاحتكار ، وهو منهى عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس .

---

(١) وأجاز بعضهم بيع الكلب المعلم للصيد ، والآن كلاب الحراسة ونحوها .

(٢) ربا الفضل : هو ربا الزيادة فى الدين فى مقابل الأجل .

(٣) ربا النسيئة : هو ربا لتأخير الدين ، وذلك بأن يشترط الدائن إذا تأخر المدين عن موعد كذا فعليه زيادة كذا .

وصفته : أن يستكثر من ابتياع الغلات فى الغلاء ، ويتربص بها زيادة الأسعار ، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها ، فليس محتكراً ، وكذلك إذا كان الشراء فى حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس ، وفى الجملة تكره التجارة فى القوت ، لأنه قوام الآدمى .

القسم الثانى : ما يخص ضرره ، نحو أن يثنى على السلعة بما ليس فيها ، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشترى . وقد قال النبى ﷺ : « من غشنا فليس منا » (١) .

واعلم : أن الغش حرام فى البيوع ، وفى الصناعات ، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين ، فقال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه .

وينبغى للتاجر أن يحقق الوزن ، ولا يتخلص فى هذا حتى يرجح إذا أعطى ، وينتقص إذا أخذ ، ومتى خلط العلاف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف ، وكذلك القصاب (٢) إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله .

وقد نهى عن النجش ، وهو أن يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها لِيَغُرَّ المشترى، ونهى عن التصرية (٣) .

فصل فى الإحسان بالمعاملة

الأمر الثالث : فى الإحسان بالمعاملة ، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان ، فمن الإحسان المسامحة فى البيع ، وأن لا يغبنه فى الربح بما لا يتغابن فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته ، فينبغى أن يمتنع البائع من قبول ذلك ، فإن ذلك من الإحسان .

ومن ذلك أنه إذا أراد استيفاء الثمن أو الدين ، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض ، وتارة بالإنظار ، وتارة بالتساهل ، وتارة فى جودة النقد .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١/ ٩٩ (١٦٤) .   (٢) القصاب : الجزار .

(٣) التصرية : ترك حلب الحيوان حتى يجتمع اللبن فى ضرعه ، فيبدوا للمشترى كبيراً ، وهذا حرام ، لأنه نوع من الغش .

ومن الإحسان : أن يقيل من يستقيله [١] ، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع ، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة ، وما لصاحبها من الأجر والثواب .

فصل (فى شفقة التاجر على دينه)

الأمر الرابع : فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته ، ولا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، بل يراعى دينه ، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء :

الأول : حسن النية فى التجارة ، فلينو بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية العيال ، ليكون بذلك من جملة المجاهدين ، ولينو النصح للمسلمين .

الثانى : أن يقصد القيام فى صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش ، إلا أن من الصناعة ما هو مهم ، ومنها ما يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التنعم ، فليشتغل بصناعة مهمة ، ليكون فى قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً ، وليتجنب صناعة الصياغة ، والنقش ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما يزخرف به ، فإنه مكروه .

ومن المعاصى : خياطة الخياط القباء [٢] الديباج [٣] للرجل ، ويكره أن يكون جزاراً ، لأنه يوجب قساوة القلب ، أو حجاماً ، أو كناساً لما فيه مباشرة النجاسة ، وفى معناه الدباغ .

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن [٤] ، والعبادات ، وفروض الكفايات .

الثالث : أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وسوق الآخرة المساجد ، فينبغى أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته ، فيواظب على الأوراد ، وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة ، ووسطه للتجارة، وإذا سمع أذان الظهر والعصر، ينبغى أن يترك المعاش اشتغالاً بأداء الفرض.

---

(١) أى يقبل رجوع المشترى فيما اشتراه ، وإن لم يكن واجباً . (٢) القباء : نوع من أنواع الثياب .

(٣) والديباج : نوع من أنواع الحرير .

(٤) بل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن إذا تفرغ لذلك ولم يكن له مصدر آخر يكتسب منه .

الرابع : أن يلازم ذكر الله تعالى فى السوق ، ويشتغل بالتسبيح والتهليل .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، فلا يكون أول من يدخل السوق ، ولا آخر من يخرج منها .

السادس : أن لايقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتوقى مواقع الشبه ومواضع الريب ، ولا يقف مع الفتاوى ، بل يستفتى قلبه فيما يحز فى القلب .

* * *

٤ – كتاب الحلال والحرام

اعلم : أن طلب الحلال فرض على كل مسلم ، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال ، وقالوا : لم يبق منه إلا الماء الفرات ، والحشيش النبات ، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة ، فلما وقع لهم هذا ، وعلموا أنه لا بد لهم من الأقوات توسعوا فى الشبهة والحرام ، وهذا من الجهل ، وقلة العلم ، فإن فى : « الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات » (١) .

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها ، واستطار فى الدين شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة .

ونحن نوضح ذلك فى أقسام :

القسم الأول : فى فضيلة طلب الحلال ، وذم الحرام ، ودرجات الحلال والحرام . قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَات واعْمَلُوا صَالِحاً** ﴾ [المؤمنون : ٥١] والطيبات : الحلال ، فأمر بذلك قبل العمل ، وقال فى ذم الحرام : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بينكم بِالبَاطِلِ** ﴾ [البقرة : ١٨٨] إلى غير ذلك من الآيات .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وذكر الحديث إلى قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنَّى يستجاب لذلك » (٢) رواه مسلم . وروى فى ذلك غير حديث .

وروى أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن تُستجاب دعوته ، فقال له : « أطب طعمتك تُستجب دعوتك » .

وقد كان السلف ينظرون فى الحلال ويدققون فيه ، فأكل أبو بكر الصديق رضى الله عنه شيئاً من شبهة ثم قاءه (٣) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١/١٥٣ (٥٢) . (٢) أخرجه مسلم فى الزكاة : ٢/٧٠٣ (٦٥) .
(٣) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٧/١٨٣ (٣٨٤٢) مطولاً من حديث عائشة رضى الله عنها .

فصل (فى درجات الحلال والحرام)

اعلم : أن الحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض ، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ، ولكنه يقول : هذا حار فى الدرجة الأولى ، وهذا فى الدرجة الثانية ، وهذا فى الثالثة ، وهذا فى الرابعة ، مثال ذلك فى الحرام المأخوذ بعقد فاسد ، حرام ولكنه ليس فى درجة المغصوب على سبيل القهر ، بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع فى الاكتساب ، وليس فى العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط ، وكذلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو يتيم ، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق .

فصل (فى درجات الورع)

والورع له درجات أربع :

الدرجة الأولى : وهى درجة العدول عن كل ما تقتضى الفتوى تحريمه ، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة .

الدرجة الثانية : الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها ، ولكن يستحب ، كما يأتى فى قسم الشبهات . ومن هذا قوله ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [1] .

الدرجة الثالثة : الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع فى الحرام .

الدرجة الرابعة : الورع عن كل ما ليس لله تعالى ، وهو ورع الصديقين ، مثال ذلك ما روى عن يحيى بن يحيى النيسابورى رحمة الله عليه أنه شرب دواءً ، فقالت له امرأته : لو مشيت فى الدار قليلاً حتى يعمل الدواء ، فقال : هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة . فهذا الرجل لم تحضره نية فى هذه المشية تتعلق فى الدين ، فلم يقدم عليها ، فهذا من دقائق الورع .

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية ، وبينهما درجات فى الاحتياط ، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً ، كان أسرع جوازاً على الصراط ، وأخف ظهراً ، وتتفاوت

---

(١) رواه البخارى تعليقاً فى البيوع : ٤/ ٣٤١ (باب ٣) . ووصله الترمذى فى صفة القيام ٤/ ٥٧٦ (٢٥١٨) وقال : حسن صحيح .

المنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع ، كما تتفاوت دركات النار فى حق الظلمة بحسب درجات الحرام ، فإن شئت فزد فى الاحتياط ، وإن شئت فترخص ، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص .

القسم الثانى : فى مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام ، وحديث النعمان ابن بشير رضى الله عنه نص فى هذه الأقسام الثلاثة ، وهى الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هو المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس ، وهو الشبهة .

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول : الحلال المطلق الذى لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه ، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية .

مثال ذلك الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد .

الحرام المحض : ما فيه صفة محرمة ، كالشدة فى الخمر ، والنجاسة فى البول ، أو حصل بسبب منهى عنه ، كالمتحصل بالظلم والربا ، فهذان الطرفان ظاهران ، ويلتحق بهما ما تحقق أمره ، ولكن يحتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه ، فإن صيد البر والبحر حلال ، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة ، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت ، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ، فمساكنة ذلك الاحتمال فى الصيد ورع الموسوسين ، لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه ، فلو دل عليه دليل ، مثل أن يجد فى الظبية جرحاً لا يقدر عليه ، إلا بعد الضبط ، كالكى ، ويحتمل أن يكون غيره ، فهذا موضوع الورع .

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادات صدراً عن شيئين مقتضيين لاعتقادين .

ومثالات الشبهة كثيرة ، والمهم منها مثالان :

المثال الأول : الشك فى السبب المحلل أو المحرم ، وينقسم إلى أربعة أنواع :

النوع الأول : أن يكون الحل معلوماً من قبل ، ثم يقع الشك فى المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها ، ويحرم الإقدام عليها ، مثاله أن يرى صيداً فيجرحه فيقع فى الماء فيصادفه ميتاً ، ولا يدرى هل مات بالغرق أو بالجرح ؟ فهذا حرام ، لأن الأصل التحريم .

النوع الثانى : أن يعرف الحل ويشك فى المحرم ، فيكون الأصل الحل ، والحكم له كما لو طار طائر ، فقال رجل : إن كان هذا غراباً فامرأته طالق ، وقال آخر : وإن

لم يكن غراباً ، فامرأته طالق ، ثم التبس الأمر ، فإنا لا نقضى بالتحريم فى واحد منهما ، ولكن الورع اجتنابها وتطليقها .

النوع الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ، مثاله أن يرمى إلى صيد فيغيب عنه ، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه ، فهذا الظاهر فيه الحل ، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دليل التحق بالوسوسة ، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالنوع الأول .

النوع الرابع : أن يكون الحل معلوماً ، ولكن يغلب على الظن طريان المحرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعاً ، مثاله أن يؤدى اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه ، كما أوجب منع الوضوء به .

المثال الثانى : أن يختلط الحرام بالحلال ، ويشتبه الأمر فيه . وذلك على أضرب:

أحدها : إذا اختلطت ميتة بمذكاة [١] ، أو بعشرة من المذكيات ، ونحو ذلك من العدد المحصور ، ومثله بأن تشتبه أخته بأجنبيات ، فهذه شبهة يجب اجتنابها .

الثانى : أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اشتبهت أخته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم اجتناب نكاح أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، لأن فى تحريمهن حرجاً كبيراً ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً ، لم يلزمه ترك الشراء والأكل ، لأن فى ذلك حرجاً ، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن فى الناس من يرابى ، وما تركوا الدراهم بالكلية ، وأن مجناً سرق فى زمانه ، وما تركوا شراء مجن [٢] ، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة .

الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر ، كحكم الأموال فى زماننا هذا ، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شئ بعينه ، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، فإن لم يكن له علامة، فتركه ورع ، ولا يحرم ذلك ، لأنه قد علم فى زمانه ﷺ والخلفاء بعده أن

---

(١) بمذكاة : أى مذبوحة .

(٢) المجن : بفتح الميم وكسرها ، وفتح الجيم ، وهو الترس : آلة من آلات الحرب القديمة فى عصرهم .

أثمان الخمور ودرام الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال ، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق ، ولولا صحة ذلك لانسد باب جميع التصرفات ، فإن الفسق يغلب على الناس ، لكن الأصل فى الأموال الحل ، وإذا تعارض أصل وغالب ، ولا أمارة على الغالب ، حكم بالأصل ، كما قلنا فى طين الشوارع وأوانى المشركين ، فقد توضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية ، مع أن مشربهم الخمر ، ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة ، وكانت الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة .

ومن تأمل أحوال الدباغين والصابغين ، علم غلبة النجاسة عليهم ، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة ، أو يكون عليها علامة ، فأما الظن الذى يستفاد من رد الوهم إلى مجارى الأحوال ، فلم يعتبروه ، فإن قيل : قد كانوا يتوسعون فى أمور الطهارة ، ويحترزون من شبهات الحرام ، فما الفرق ؟

قلنا : إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل ، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح ، وأما تورعهم عن الشبه ، فكان بطريق كف النفس عما ليس به مخافة ما به بأس ، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس ، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال ، والله أعلم .

القسم الثالث : من الكتاب فى الحلال والحرام والبحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإمال ومظانها .

اعلم : أنه لو قدم لك الطعام أو أهديت لك هدية ، أو أردت أن تشترى شيئاً من شخص فليس لك أن تقول : هذا مما لا أتحقق حله ، فأريد أن تفتش عنه وليس لك أن تترك البحث مطلقاً ، بل السؤال واجب مرة ، وحرام مرة ، ومندوب مرة ، ومكروه مرة .

والقول الشافى فيه : أن مظنة السؤال الريبة [1] ، وهى تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال ، أما ما يتعلق بصاحب المال ، فنحو أن يكون مجهولاً ، وهو الذى ليس عليه قرينة تدل على ظلمه ، كزى الأجناد [2] ، ولا على صلاحه ، كثياب

---

(١) الريبة : الشك .

(٢) زى الأجناد : ما يلبسه الجند فى المعركة .

أهل العلم والزهد ، فهاهنا لا يجب السؤال ولا يجوز ، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا يقال لهذا : إنه مشكوك فيه ، لأن المشكوك فيه الذى تحصل فيه الريبة بدلالة . مثل أن يكون على خلقة الأتراك ، وأهل البوادى المعروفين بالظلم ، وقطع الطريق ، فهذا يجوز معاملته ، لأن اليد تدل على الملك ، وهذه الدلالات ضعاف ، إلا أن الترك من الورع .

وأما ما يتعلق بالمال ، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال ، كما إذا طرح فى السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق ، فإنه لا يجب على من يشترى فى تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه ، إلا أن يظهر أن أكثر ما فى أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب .

وكذلك نقول فى رجل له مال حلال خالطه حرام ، مثل أن يكون تاجراً يعامل معملات صحيحة ويرابى ، فهذا إن كان الأكثر من ماله حراماً ، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال جاز ، وإلا ترك ، وإن كان الحرام أقل ، فالمأخوذ شبهة ، والورع تركه .

واعلم : أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة ، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المفضية له ، بأن لا يكون المسئول متهماً ، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً فى حضورك أو قبول هديته ، فلا ثقة بقوله ، وينبغى أن يسأل غيره .

القسم الرابع : فى باب الحلال والحرام ، وكيفية خروج التائب عن المظالم المالية .

اعلم : أن من تاب وفى يده مال مختلط ، فعليه تمييز الحرام وإخراجه ، فإن كان معلوم العين ، فأمره سهل ، وإن كان ملتبساً مختلطاً ، فإن كان من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، وكان معلوم القدر ، ميز القدر ، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما : الأخذ بغالب الظن .

الثانى : الأخذ باليقين ، وهو الورع .

فإذا خرج المال الحرام ، فإن كان له مالك معين ، وجب صرفه إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة ، جمع ذلك كله وصرفه إليه ، وإن يئس من معرفة

المالك ولم يدر أمات عن وارث أم لا ؟ فليتصدق به ، وإن كان ذلك من مال الفئ والأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين .

مسألة : إذا كان فى يده مال حلال وشبهة ، فليخص نفسه بالحلال ، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور [١] ، وأصل هذا قوله ﷺ فى كسب الحجام [٢] : « اعلفه ناضحك » [٣] .

ولو كان فى يد أبويه حرام ، فليمتنع من مؤاكلتهما ، فإن كان شبهة داراهما ، فإن لم يقبلا تناول اليسير .

وقد روى أن أم بشر الحافى ناولته تمرة فأكلها ، ثم صعد الغرفة فقاءها .

القسم الخامس : فى إدرار السلاطين وصلاتهم ، وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ، ونحو ذلك .

اعلم : أن من أخذ مالاً من السلطان فلا بد أن ينظر فى مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو ، وفى صفته التى يستحق بها الأخذ ، وفى مقدار الذى يأخذه ، هل يستحق ؟

وقد تورع جماعة عن ذلك ، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به .

وأما فى هذا الزمان ، فالاحتراز عنه أولى ، لأنه قد علم طريق الأخذ ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار .

وقد كان بعض السلف لا يأخذ ، ويعلل بأن باقى المستحقين لم يأخذوا ، وهذا ليس بشئ ، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك فى مقام مظلوم ، وليس المال مشتركاً .

فصل

فى أحوال من يخالط الأمراء والعمال والظلمة

اعلم : أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن تدخل عليهم وهى شرها .

(١) إسجار التنور : أوقده ، يقال : سجر ، يسجره ، سجراً ، أوقده وأحماه .

(٢) الحجام - بالكسر -: شئ يجعل فى خطم البعير كيلاً يعض . (٣) أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ٣٤١ .

فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أتى أبواب السلاطين افتتن وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً » [1] .

وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن فقيل : وما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد : ألا تأتينا ؟ فقال : أخاف إن أدنيتنى فتنتنى . وإن أقصيتنى حرمتنى ، وليس فى يدك ما أريده ، ولا فى يدى ما أخافك عليه ، وإنما أتاك من أتاك ليستغنى بك عمن سواك ، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عنى .

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين .

وأيضاً فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصى الله عز وجل ، إما بفعله أو قوله أو سكوته .

أما الفعل : فإن الدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغصوبة ، ولو فرض أنه فى موضع غير مغصوب ، ففى الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام ، والانتفاع بذلك حرام ، ولو فرض ذلك حلالاً ، فربما يقع فى غيره من المحذورات ، إما أن يسجد له ، أو يمتثل له قائماً ، ويخدمه ، ويتواضع له بسبب ولايته التى هى آلة ظلمه .

والتواضع للظالم معصية ، بل من تواضع لغنى لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضى التواضع ، ذهب ثلث دينه ، فكيف إذا تواضع للظالم ؟!

وتقبيل اليد له معصية ، إلا أن يكون عند خوف ، أو لإمام عادل ، أو عالم يستحق ذلك ، فأما غير ما ذكرنا ، فلا يباح فى حقهم إلا مجرد السلام .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم ، أو يثنى عليه ، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله ، أو تحريك رأسه ، أو بتبشار فى وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه ، والحرص على طول بقائه ، فإنه فى الغالب لا يقتصر على السلام ، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام .

---

(1) أخرج نحوه أبو داود فى الصيد : ٣/ ١١٠ - ١١١ (٢٨٥٩ ، ٢٨٦٠) عن أبى هريرة . والترمذى فى الفتن ٤/ ٤٥٤ (٢٢٥٦) وقال : حسن صحيح غريب .

وقد جاء فى الأثر : « من دعا لظالم بطول البقاء ، فقد أحب أن يُعصى الله » .

ولا يجوز دعاؤه له إلا بأن يقول : أصلحك الله ، أو وفقك الله ، أو نحو ذلك .

وأما السكوت : فهو أن يرى فى مجالسهم من الفرش الحرير ، وأوانى الفضة ، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير ، ونحو ذلك ، فيسكت . وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه ، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء ، فإن السكوت عن ذلك كله حرام ، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فإن قلت : إنه يخاف على نفسه ، فهو معذور فى السكوت .

قلنا : صدقت ، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد ، لم يجب عليه الأمر والنهى ، وكل من علم بفساد فى مكان ، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته ، لم يجز له أن يحضر .

فصل
فى الدخول على الأمراء الظلمة بعذر

فإن سلم مما ذكرنا ، وهيهات ، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه ، لما يرى من توسعهم فى التنعم ، فيزدرى نعمة الله عليه ، ثم يقتدى به غيره فى الدخول ، ويكون مكثراً لسواد الظلمة .

وروى أن سعيد بن المسيب دعى إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار ، فقالوا : ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر ، قال : لا والله لا يقتدى بى أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح[1] .

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين :

أحدهما : إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى .

والثانى : أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم ، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثنى ولا يدع نصيحة ويتوقع لها قبولاً ، فهذا حكم الدخول .

---

(١) المسوح : كساء خشن من الشعر ، ألبسوه إياه إذلالاً له ومبالغة فى تعذيبه . وهذا الخبر أخرجه أبو نعيم فى الحلية : ٢/ ١٧٠ .

الحال الثانى : أن يدخل عليه السلطان زائراً ، فجواب السلام لا بد منه .

وأما القيام والإكرام ، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه ، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد ، كما أنه بالظلم مستحق للذم . فإن دخل عليه وحده ، وقد رأى أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولى ، وإن كان دخول عليه فى جمع ، فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا الأولى وأمثل ، ولا بأس بالقيام على هذه النية .

وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً فى الرعية ولا يناله أذى من غضبه ، فترك الإكرام بالقيام أولى ، ثم يجب عليه أن ينصحه ، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدرى أنه محرم .

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر ، فلا فائدة فيه ، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصى مهما ظن أن التخويف يؤثر فى قلبه ، وعليه أن يرشده إلى المصالح . ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه .

الحال الثالث : أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه ، والسلامة فى ذلك ، ثم ينبغى أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ، فلا يحب لقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يقترب إلى المتصلين بهم ، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم ، كما قال بعضهم : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، إما يوم مضى فلا يجدون لذته ، وأنا وإياهم فى غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون فى اليوم ؟

مسألة : إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء ، وكان له مالك معين ، لم يحل أخذه ، وإن لم يكن له ، كان حكمه أن يتصدق به ، كما سبق بيانه ، ويتولى تفرقته على الفقراء .

ومن العلماء من امتنع من أخذه ، إذا كان أكثر أموالهم الحرام ، حرمت معاملتهم وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد والسقايات ، وينبغى أن ينظر فيه ، فإن كانت تلك الأعيان التى بنيت بها لمالك معين ، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة ، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها ، والورع الامتناع ، والله أعلم .

* * *

٥ - كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق

اعلم : أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق سوء الخلق ، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر ، ولا يخفى ما فى حسن الخلق من الفضل ، والأحاديث دالة على ذلك .

فقد روى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن » [(١)] رواه الترمذى وصححه .

وفى حديث آخر : « إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسانكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً » [(٢)] .

وسئل النبى ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة ؟ فقال : «تقوى الله وحسن الخلق»[(٣)] .

وأما المحبة فى الله تعالى ، ففى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »[(٤)] فذكر منهم : « ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » .

وفى حديث آخر يقول الله عز وجل : « حقت محبتى للمتحابين فىَّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ » .

وفى حديث آخر : « أوثق عرى الإيمان ، أن تحب فى الله وتبغض فى الله » ، والأحاديث فى ذلك كثيرة .

واعلم : أن من يحب فى الله يبغض فى الله ، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله ، فإذا عصى الله أبغضته فى الله ، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضده، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى البر والصلة : ٣١٨/٤ - ٣١٩ (٢٠٠٢) ، وقال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر والصلة : ٣٢٥/٤ (٢٠١٨) عن جابر وقال : حسن غريب ، وأخرج البخارى جزءاً منه فى فضائل الصحابة : ١٢٨/٦ (٣٧٥٩) بلفظ : « إن من أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً » عن عبد الله ابن عمرو .

(٣) أخرجه الترمذى فى البر والصلة : ٣١٩/٤ (٢٠٠٤) وقال : صحيح غريب .

(٤) أخرجه البخارى فى الأذان : ١٦٨/٢ (٦٦٠) ومسلم فى الزكاة : ٧١٥/٢ (٩١) .

فينبغي أن تحب المسلم لإسلامه ، وتبغضه لمصعيته ، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال ، فأما يجرى منه مجرى الهفوة التى يعلم أنه نادم عليها ، فالأولى حينئذ الإغماض والستر ، فإذا أصر على المعصية ، فلا بد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد ، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها .

واعلم : أن المخالف لأمر الله تعالى على أقسام :

أحدها : أن يكون كافراً ، فإن كان حربياً فهو مستحق للقتل والإرقاق ، وليس بعد هذين إهانة ، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه ، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق الطريق، وترك البداءة بالسلام، فإن سلم قيل له : وعليك.

والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته ، ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يُعل بالأصدقاء .

القسم الثانى : المبتدع ، فإن كان ممن يدعو إلى بدعة ، وكانت البدعة بحيث يُكفر بها ، فأمره أشد من الذمى ، لأنه يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة ، وإن كان ممن لا يكفر بها ، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعدٍّ ، لأنه لا يُلتفت إلى قوله ، بخلاف المبتدع الذى يدعو إلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق ، فيكون سبباً لغواية الخلق ، فشره متعد ، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد .

فأما المبتدع العامى الذى لا يقدر أن يدعو ولا يُخاف الاقتداء به ، فأمره أهون ، والأولى أن يتلطف به فى النصح ، فإن قلوب العوام سريعة التقلب ، فإن لم ينفع النصح وكان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه ، وتأكد استحباب الإعراض عنه، وإن علم أن ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده فى قلبه ، فالإعراض عنه أولى، لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها .

القسم الثالث : العاصى بفعله لا باعتقاده ، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره ، كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك ، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته ، وكذلك الحكم فيمن يدعو إلى الفساد ،

كالذى يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب لأهل الفساد ، فهذا ينبغى إهانته ومقاطعته والإعراض عنه .

فأما الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أو ترك واجب ، فالأمر فيه أخف ، ولكنه فى وقت مباشرته إن صودف ، وجب منعه بما يمتنع به ، فإن كان النصح يرده وكان أنفع له ، نصح وإلا أغلظ له .

فصل

فى بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

روينا عن النبى ﷺ أنه قال : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل»(1) .

واعلم : أنه لا يصلح للصحبة كل أحد ، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها فى صحبته ، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ، وهى إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة ، وليس ذلك غرضنا ، وإما دينية ، وتجتمع فيها أغراض مختلفة ، منها الاستفادة بالعلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب ويصد عن العبادة ، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت ، ومنها الاستعانة فى المهمات ، فتكون عدة فى المصائب وقوة فى الأحوال ، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة ، كما قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة .

فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها .

وفى الجملة ، فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال :

أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا .

أما العقل ، فهو رأس المال ، ولا خير فى صحبة الأحمق ، لأنه يريد أن ينفعك

(1) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٠٩/٤ (٢٣٧٨) وقال : حسن غريب . وأبو داود فى الأدب ٢٦١/٤ (٤٨٣٣) والحديث صححه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

فيضرك ، ونعنى بالعاقل : الذى يفهم الأمور على ما هى عليه ، إما بنفسه ، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم .

وأما حسن الخلق ، فلا بد منه ، إذ ربَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير فى صحبته .

وأما الفاسق ، فإنه لا يخاف الله ، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته [١] ولا يوثق به .

وأما المبتدع فيخاف من صحبته بسراية بدعته .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم [٢] ، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه [٣] ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى .

قال يحيى بن معاذ : بئس الصديق تحتاج أن تقول له : اذكرنى فى دعائك ، وأن تعيش مع بالمداراه [٤] ، أو تحتاج أن تعتذر إليه .

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم ، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة فى البيت ، فقال : رحمك الله ، هذا والله فعل الإخوان .

وقال أبو جعفر لأصحابه : أيدخل أحدكم يده فى كم أخيه فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم بإخوان كما تزعمون .

ويروى أن فتحاً الموصلى جاء إلى صديق له يقال له : عيسى التمار ، فلم يجده فى المنزل ، فقال للخادمة : أخرجى لى كيس أخى ، فأخرجته ، فأخذ منه درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك ، فقال : إن كنت صادقة ، فأنت حرة، فنظر فإذا هى صدقت ، فعتقت .

---

(١) غائلته : خدعته .
(٢) الكنف : الجوار .
(٣) يقليك : يبغضك .
(٤) المداره هنا : إتقاء شره .

فصل (فى بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق)

الحق الأول : قضاء الحاجات والقيام بها ، وذلك درجات : أدناها : القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ، ولكن مع البشاشة والاستبشار .

وأوسطها : القيام بالحوائج من غير سؤال .

وأعلاها : تقديم حوائجه على حوائج النفس .

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضى حوائجهم .

الحق الثانى : على اللسان بالسكوت تارة ، وبالنطق أخرى .

أما السكوت ، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى حضوره وغيبته ، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته ، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله ، ولا يسأله إذا لقيه : إلى أين ؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك ، وأن يكتم سره ولو بعد القطيعة ، ولا يقدح فى أحبابه وأهله ، ولا يبلغه قدح غيره فيه .

الحق الثالث : وينبغى أن يسكت عن كل ما يكرهه ، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة فى السكوت ، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه فى المعنى .

واعلم : أنك إن تطلب منزهاً عن كل عيب لم تجد ، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية .

وقال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب الزلات .

وقال الفضيل : الفتوة : الصفح عن زلات الإخوان .

وينبغى أن تترك إساءة الظن بأخيك ، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن ، وقد قال النبى ﷺ : « وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [1] .

واعلم : أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهى عنه ، وأن ستر العيوب والتغافل عنها سيمة أهل الدين .

---

(١) أخرجه البخارى فى النكاح : ٩/١٠٦ (٥١٤٣) . ومسلم فى البر والصلة ٤/ ١٩٨٥ (٢٨-٣٠) عن أبى هريرة .

واعلم : أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك ، وأن يسكت عن مساويك ، فلو ظهر لك منه ضد اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم له ؟

ومتى التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ [المطففين : ٢ ، ٣] ومنشأ التقصير فى ستر العورة والمغرى بكشفها الحقد والحسد .

واعلم : أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة (١) ، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه ، ومن مارى أخاه فقد نسبه إلى الجهل والحمق ، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشئ على ما هو عليه ، وكل ذلك استحقار ، وهو يوغر الصدر ويوجب المعاداة ، وهو ضد الأخوة .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق ، فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكروه ، تقتضى النطق بالمحبوب ، بل هو أخص بالأخوة ، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم ، لأن السكوت معناه الأذى ، فعليه أن يتودد إليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله ، ويسأل عما عرض له ، ويظهر شغل قلبه بسببه ، ويبدى السرور بما يُسر به .

وفى الصحيح من رواية الترمذى : « إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه » (٢) .

ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليك .

ومن ذلك أن يثنى عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله ، حتى فى خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب .

---

(١) المماراة : أى الجدل المذموم .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥١٧/٤ (٢٣٩٢) عن المقدام ، وقال الترمذى : وفى الباب عن أبى ذر وأنس ، ولم يحكم عليه .

وكذلك ينبغى أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به ، فإن إخفاء ذلك محض الحسد .

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك ، وأن تذب عنه فى غيبته إذا قصد بسوء ، فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة .

وفى الحديث الصحيح : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) ، ومتى أهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه ، ولك فى ذلك معياران :

أحدهما : أن تقدر أن الذى قيل فيه ، قد قيل فيك وهو حاضر ، فتقول ما تحب أن يقوله .

الثانى : أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك ، فما تحرك فى قلبك من نصرته فى حضوره ينبغى أن يتحرك فى غيبته ، ومن لم يكن مخلصاً فى إخائه فهو منافق .

ومن ذلك التعليم والنصيحة ، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، وإذا كنت غنياً بالعلم فواسه وأرشده .

وينبغى أن يكون نصحك إياه سراً ، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار ، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء ، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء ، فأنت مدار ، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن .

ومن ذلك : العفو عن الزلات ، فإن كانت زلته فى دينه فتلطف فى نصحه مهما أمكن ، ولا تترك زجره ووعظه ، فإن أبى فالمصارمة .

الحق الخامس : الدعاء للأخ فى حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى الدرداء ، أن النبى ﷺ قال : « دعوة المرء لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم : ١١٦/٥ (٢٤٤١) ، ومسلم فى البر والصلة : ١٩٩٦/٤ (٥٨) كلاهما عن ابن عمر مرفوعاً .

(٢) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء : ٢٠٩٤/٤ (٨٨) .

وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوته يسميهم بأسمائهم وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو فى السحر لستة نفر .

أما الدعاء بعد الموت ، فقال عمرو بن حريث : إذا دعا العبد لأخيه الميت ، أتى بها ملك قبره ، فقال : يا صاحب القبر الغريب ، هذه هدية من أخ عليك شفيق .

الحق السادس : الوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء : الثبات على الحب إلى الموت، وبعد الموت ، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه ، وقد أكرم ﷺ عجوزاً وقال : «إنها كانت تغشانا [1] فى أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » [2] .

ومن الوفاء أن لا يتغير على أخيه فى التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه .

واعلم : أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين ، فقد كان الشافعى رحمه الله آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ، فلما احتضر قيل له: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه فقال : إلى أبى يعقوب البويطى ، فانكسر لها محمد ، مع أن محمداً كان قد حمل مذهبه ، لكن البويطى كان أقرب إلى الزهد والورع ، فنصح الشافعى رحمه الله المسلمين وترك المداهنة ، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه ، وصار من أصحاب مالك .

ومن الوفاء أن يسمع بلاغات الناس على صديقه ، ولا يصادق عدو صديقه .

الحق السابع : التخفيف وترك التكليف [والتكلف] ، وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، بل يُرَوِّحُ سرَّه عن مهماته وحاجاته ، ولا يستمد من جاهه ولا ماله ، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له ، بل يكون قصده بمحبته الله وحده ، والتبرك بدعائه ، والاستئناس بلقائه ، والاستعانة على دينه ، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه . وتمام التخفيف طى بساط الاحتشام حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى فيه من نفسه .

قال جعفر بن محمد : أثقل أخوانى علىَّ من يتكلف لى وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى .

---

(١) تغشانا ، أى : تأتينا . (٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه على شرط الشيخين عن عائشة .

وقال بعض الحكماء : من سقطت كلفته دامت ألفته ، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك ، لا لنفسك عليهم ، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم .

فصل (جملة من آداب المعاشرة للخلق)

ولنذكر فى آخر هذا الباب جملة من اداب المعاشرة للخلق :

فمن حسن المعاشرة أن تتوقر من غير كبْر ، وتتواضع فى غير ذلة ، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم ، وتتحفظ فى مجالسك من تشبيك أصابعك ، وإدخال أصبعك فى أنفك ، وكثرة بصاقك ، والتثاؤب .

واصغ إلى محدثك ، ولا تسأله الإعادة ، ولا تحدِّث بإعجابك بولدك وجاريتك ، ولا تتصنع تصنُّع المرأة فى التزين ، ولا تتبذل [1] تبذل العبد .

وخوف أهلك فى غير عنف ، ولِنْ لهم من غير ضعف .

ولا تهازل [2] أمَتك وعبدك ، فيسقط وقارك ، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك .

ولا تجالس السلطان ، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة ، وصن سره ، واحذر المداعبة عنده ، وتحفظ من الجشاء [3] بحضرته والتخلل [4] ، وإن قربك فكن منه على حذر ، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبى ، وكلمه بما يشتهيه ، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه [5] .

وإياك وصديق العافية .

ولا تجعل مالك أكرم من عرضك .

وإذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو أقرب للتواضع .

ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضال.

ولا تبصق فى جهة القبلة ولا عن يمينك ، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى .

---

(١) التبذل : ترك التصاون . (٢) الهزل : ضد الجد ، والمراد : لا تشارك جاريتك وعبدك فى الهزل .

(٣) التجشؤ : تنفس المعدة عند الامتلاء ، وجشأت المعدة وتجشأت : تنفست .

(٤) التخلل : إخراج ما بين الأسنان من طعام . (٥) حشم الرجل : خدمه وأتباعه .

واحذر مجالسة العوام ، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجرى من سوء أخلاقهم وترك الخوض فى حديثهم .

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك فى المزاح ، والسفيه يجترئ عليك .

* * *

باب
فى حقوق المسلم والرحم والجوار والملك

فمن حقوق المسلم : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب ، وتحب له ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك ، وجميع هذا منقول فى الآثار .

ومنها : أن لا تؤذى أحداً من المسلمين بقول ولا فعل ، وأن تتواضع للمسلمين ، فلا تتكبر عليهم ، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم فى بعض ، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض .

ومنها : أن لا تزيد فى الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه ، للحديث المشهور فى ذلك [(١)] .

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه النبى ﷺ قال : « لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام ، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام ، فقد اشتركا فى الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد برئ المسلم من الهجرة »[(٢)] .

واعلم : أن هذه الهجرة إنما هى فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصى ينبغى أن تدوم ، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

ومنها : أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع ، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه ، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف .

---

(١) الحديث المشهور رواه أبو أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/٥٠٧ (٦٠٧٧) . ومسلم ٤/ ١٩٨٤ (٢٥) .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٤/ ٢٨٠ (٤٩١٢) .

ومنها : أن يخالق الناس بخلق حسن ، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته ، فإنه متى لقى الجاهل بالعلم ، واللاهى بالفقه ، والغبى بالبيان ، أذى وتأذى .

ومنها : أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان ، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً ، وأن يفى لهم بالوعد ، وينصف الناس من نفسه ، ولا يأتى إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه .

قال الحسن : أوحى الله إلى آدم عليه السلام أربع كلمات ، وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين الخلق ، فأما التى لى : فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى لك : فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك : فعليك الدعاء وعلىَّ الإجابة، وأما التى بينك وبين الناس : فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به .

ومنها زيادة توقير ذوى الهيئات .

ومنها : إصلاح ذات البين ، وستر عورات المسلمين .

واعلم : أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة فى الدنيا اقتدى بلطفه ، فإنه جعل الشهادة فى الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل فى المكحلة ، وهذا لا يتفق ، ومن هذا أثر كرمه فى الدنيا يرجى منه ذلك فى الآخرة .

ومنها : أن تقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به ، وألسنتهم عن غيبته .

ومنها : أن تشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حوائجهم .

ومنها : أن يبدأ بالسلام كل مسلم قبل أن يكلمه ، ومن السنة المصافحة ، فقد روى عنب أنس [1] رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من مسلمين التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، إلا كان حقًا على الله عز وجل أن يحضر دعاءهما، وألا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما » .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٣/ ١٤٢ ، وأبو يعلى فى المسند : ٧/ ١٦٦ (٤١٣٩) وإسناده جيد .

وفى حديث آخر : « إذا صافح المؤمن المؤمنَ نزلت عليهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون لأبشهما وأحسنهما خلقاً [(١)] .

ولا بأس بتقبيل يد المعظم فى الدين ، ولا بأس بالمعانقة ، وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء ، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت رضى الله عنهما ، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن ، وأما الانحناء فمنهى عنه .

ومنها : أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير ، ويناضل دونه وينصره .

ومنها : أنه إذا ابتلى بذى شر ، فينبغى أن يجامله ويتقيه ، لحديث عائشة رضى الله عنها [(٢)] .

وقال محمد ابن الحنفية : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً ، حتى يجعل الله عز وجل له فرجاً .

ومنها : أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالمساكين ، ويحسن إلى الأيتام .

ومنها : عيادة مرضاهم .

ومن آداب العائد : أن يضع يده على المريض ، ويسأله كيف هو ، ويخفف الجلوس ، ويظهر الرقة ، ويدعو له بالعافية ، ويغض البصر عن عورات المكان .

ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم فى أفراده ، من حديث عثمان بن أبى العاص رضى الله عنه أن شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل باسم ا. ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » [(٣)] .

وجملة آداب المريض : حسن الصبر ، وقلة الشكوى والتضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل على الله سبحانه .

---

(١) قال الحافظ العراقى فى المغنى على الإحياء : رواه البزار فى مسنده ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الشعب ، وفى إسناده نظر .

(٢) روت عائشة عن النبى ﷺ قوله : « بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة .... وقال فى آخره : إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » . والحديث أخرجه البخارى فى الأدب : ٤٧٦/١٠ (٦٠٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى السلام : ١٧٢٨/٤ (٦٧) .

ومنها : أن يشيع جنائزهم ، ويزور قبورهم .

والمقصود من التشييع : قضاء حق المسلمين ، والاعتبار .

قال الأعمش : كنا نحضر الجنائز ، فلا ندرى من نعزى لحزن القوم كلهم .

والمقصود من زيارة القبور : الدعاء ، والاعتبار ، وترقيق القلب .

ومن آداب تشييع الجنبائز : المشى ، ولزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت ، والتفكير فى الموت ، والاستعداد له .

وأما حقوق الجار : فاعلم أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة ، وجاء فى الحديث : « إن الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فالجار الذى له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ، وأما الذى له حقان : فالجار المسلم ، له حق الإسلام ، وحق الجوار ، وأما الذى له حق واحد : فالجار المشرك [1] .

واعلم : أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى والرفق ، وابتداء الخير ، وأن يبدأ جاره بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويهنئه فى الفرح ، ويصفح عن زلاته ، ولا يطلع إلى داره ، ولا يضايقه فى وضع الخشب على جداره ، ولا فى صب الماء فى ميزابه ، ولا فى طرح التراب فى فنائه ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه ، ويغض طرفه عن حرمه ، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب .

فصل (فى حقوق الأقارب والرحم)

وأما حقوق الأقارب والرحم : ففى الحديث الصحيح ، من رواية عائشة ، أن النبى ﷺ قال : « الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » [2] .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ١/ ٢٢٢ (٣٦٥٦) وعزاه للبزار ، وأبى الشيخ فى الثواب ، وأبى نعيم فى الحلية جميعاً عن جابر ، ورمز له بالضعف . (٢) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٠/ ٤٣١ (٥٩٨٩).

وفى حديث آخر من أفراد البخارى : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلها » [1] .

وفى حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىّ ، قال: « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تُسفُّهم الملّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » [2] والمعنى أنك منصور عليهم ، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة ، كما ينقطع كلام من سف الملّ ، وهو الرماد الحار .

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة فى صلة الرحم ، وفى حقوق الوالدين ،وفى تأكد حق الأم .

وأما حقوق الولد : فاعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به ، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد ، فيترك تعليمه وتأديبه ، وقد قال الله تعالى : . ﴿ **قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُم نَاراً** ﴾ : [التحريم : ٦] .

قال المفسرون : معناه : علموهم وأدبوهم .

وينبغى للوالد أن يحسن اسم ابنه ، ويعق عنه [3] ، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه ، فإذا بلغ زوَّجه .

وأما حقوق المملوك ، فأن يطعمه ، ويكسوه ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، ولا ينظر إليه بعين الازدراء ، وأن يعفو عن زلله ، وليتذكر الله عند زلل نفسه ، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه .

باب العزلة

اختلف الناس فى العزلة والمخالطة ، أيتهما أفضل ؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل ، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة .

وممن ذهب إلى اختيار العزلة سفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى والفضيل وبشر الحافى ، وآخرين .

---

(١) أخرجه البخاري فى الأدب : ١٠/ ٤٣٧ (٥٩٩١) .

(٢) أخرجه مسلم فى البر والصلة : ٤/ ١٩٨٢ (٢٢) عن أبى هريرة .

(٣) لما روت عائشة عن النبى ﷺ قال : عن الغلام شاتان متكافئتان وعن الجارية شاه ، وسبق تخريجه .

وكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج ، ونحن نشير إلى ذلك .

أما حجة الأولين ، فقد روى فى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد قال : قيل: يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قل : « رجل يجاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » [(١)] .

وفى حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : « املك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » [(٢)] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خذوا بحظكم من العزلة . وقال سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنه : لوددت أن بينى وبين الناس باباً من حديد، لا يكلمنى أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الليل ، أحلاس البيوت جُدُدَ القلوب [(٣)] خُلْقَانَ [(٤)] الثياب ، تُعرفون فى أهل السماء ، وتُخفون على أهل الأرض .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : نعم صومعة المرء المسلم بيته ، يكف لسانه وفرجه وبصره ، وإياكم ومجالس الأسواق ، فإنها تلهى وتلغى .

وقال داود الطائى : فر من الناس كما تفر من الأسد .

وقال أبو مهلهل : أخذ بيدى سفيان الثورى وأخرجنى إلى الجبانة ، فاعتزلنا ناحية ، فبكى ثم قال : يا أبا مهلهل ، إن استطعت أن لا تخالط فى زمانك أحداً فافعل ، وليكن همك مرمة [(٥)] جهازك .

وأما حجة من اختار المخالطة ، فمن ذلك قول النبى ﷺ : « المؤمن الذى يخالط

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٦/٨ (٢٧٨٦) . ومسلم فى الإمارة ٣/١٥٠٣ (١٢٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٤/٥٢٣ (٢٤٠٦) وقال : هذا حديث حسن .

(٣) جدد القلوب : كناية عن عدم الفتور فى العبادة ، أى لا تملو من العبادة .

(٤) خلقان الثياب : الثياب البالية .

(٥) الرم : معناه : إصلاح ما فسد ، ولم ما تفرق ، يقال : رممت الشئ أرمه ومرمة : إذا أصلحته .

الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » [1] ، واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك ، منها قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٥] وهذا ضعيف ، لأن المراد تفرق الآراء والمذهب فى أصل الشريعة ، واحتجوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة فوق ثلاث » [2] قالوا : والعزلة هجر بالكلية ، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة .

فصل

فى ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم : أن اختلاف الناس فى هذا أيضاً هو كاختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فكذلك نقول فيما نحن فيه ، فلنذكر أولاً فوائد العزلة ، وهى ست .

الفائدة الأولى : الفراغ للعبادة ، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه ، فإن ذلك يستدعى فراغاً ، ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصاً فى البداية.

قل لبعض الحكماء : إلى أى شئ أفضى بهم الزهد والخلوة ؟ قال: إلى الأنس بالله .

وقال أويس القرنى رضى الله عنه : كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره .

واعلم : أن من تيسر له بدوام الأنس بالله ، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله ، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة .

الفائدة الثانية : التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة ، وهى أربعة :

أحدها : الغيبة ، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض [3] والتفكه بها ، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكت كنت شريكاً ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة : ٤/ ٥٧٢ (٢٥٠٧) وسكت عنه .

(٢) سبق تخريجه مطولاً من حديث أبى أيوب الأنصارى فى الصحيحين ، ومن حديث أبى هريرة فى السنن لأبى داود .

(٣) التمضمض بالأعراض : الخوض فى أعراض الناس ، فلما كان لسانه لا يتوقف عن ذلك كان شبيهاً بالمضمضة التى هى المبالغة فى تحريك الماء فى الفم عند الوضوء وغيره .

فإن المستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة ، وربما خرجوا إلى الشتم .

الثانية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصى الله ، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر ،وفى العزلة سلامة من هذا .

الثالثة : الرياء ، وهو الداء العضال الذى يعسر الاحتراز منه ، وأول ما فى مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم ، ولا يخلو ذلك عن الكذب ، إما فى الأصل ، وإما فى الزيادة ، وقد كان السلف يحترزون فى جواب قول القائل : كيف أصبحت ، وكيف أمسيت ؟ كما قال بعضهم وقد قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين ، نأكل أرزاقنا ، وننتظر آجالنا .

واعلم : أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه : كيف أصبحت ؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة ، كان تكلفاً ورياء ، وربما سأله وفى القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله ، وفى العزلة الخلاص عن هذا ، لأنه من لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه ، ويذهب دينهم فيه ، ويذهب دينه ودنياه فى الانتقام منهم.

الرابعة : مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة ، وهو دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين ، وذلك أنه قَلَّ أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة ، مع كونه منكراً عليه فى باطنه ، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً فى النفور عن الفساد ، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع ، ويسقط وقعه واستعظامه ، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره ، احتقر نفسه ، واستصغر عبادته ، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد ، وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة .

ومما يدل على سقوط وقع الشئ بسبب تكرره ومشاهدته ، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر فى رمضان ، استعظموا ذلك ، حتى يكاد يفضى إلى اعتقادهم فيه الكفر ، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها ، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصلاة ، مع أن ترك صلاة واحدة تخزج إلى الكفر ، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر ، والتساهل فيها يكثر ، وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير ، أو

خاتماً من ذهب ، لاشتد إنكار الناس لذلك ، وقد يشاهدونه يغتاب ، فلا يستعظمون ذلك ، والغيبة أشد من لبس الحرير ، ولكن لكثرة سماعها ، ومشاهدة المغتابين ، سقط عن القلوب وقعها ، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس ، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد فى حرصك على الدنيا ، وفى غفلتك عن الآخرة ، وتهون عليك المعصية ، وتضعف رغبتك فى الطاعات ، فإن وجدت مجلساً يذكر الله فيه ، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن .

الفائدة الثالثة : الخلاص من الفتن والخصومات ، وصيانة الدين عن الخوض فيها ، فإنه قلما تخلوا البلاد من العصبية والخصومات ، والمعتزل عنهم سليم .

وقد روى ابن عمرو رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ذكر الفتن ، ووصفها وقال : «إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم (١) ، وخفت أماناتهم ، فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، فقلت : ما تأمرنى ؟ فقال : الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودع أمر العامة » (٢) .

وقد روى غير ذلك من الأحاديث فى معناه .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس ، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ، ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن ، ومرة بالتهمة ، ومرة بالأطماع الكاذبة ، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو ، وغير ذلك من أنواع الشر التى يلقاها الإنسان من معارفه، وفى العزلة خلاص من ذلك ، كما قال بعضهم :

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصحـابِ
فإن الداء أكثر مـا نـراه ... يكون من الطعام أو الشرابِ

وقال عمر رضى الله عنه : فى العزلة راحة من خلطاء السوء .

وقال إبراهيم بن أدهم : لا تتعرف إلى من لا تعرف ، وأنكر من تعرف .

وقال رجل لأخيه : أصحبك إلى الحج ؟ فقال : دعنا نعش فى ستر الله ، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه (٣) .

---

(١) مرجت عهودهم ، أى : اختلطت بالشر ، أو اختلفت وفسدت .

(٢) أخرجه أبو داود فى الملاحم : ٤/ ١٢١ - ١٢٢ (٤٣٤٣) .

(٣) نَتَمَاقَت عليه : أى يمقت بعضنا بعضاً ، والمقت : البغض .

وهذه فائدة أخرى فى العزلة ، وهى بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة : أن ينقطع طمع الناس عنك ، وطمعك عنهم .

أما طمعهم ، فإن رضاهم غاية لا تدرك ، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم فى حضور ولائمهم وإملاكاتهم (١) ، وغير ذلك .

وقد قيل : من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم .

وأما انقطاع طمعك ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر المطامع فيتأذى .

وفى الحديث : « انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » (٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [طه : ١٣١] .

الفائدة السادسة : الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ، ومقاساة أخلاقهم ، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء ، لم يلبث ، أن يغتابهم ، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم ، فانجر االأمر فساد الدين ، وفى العزلة سلامة من ذلك .

فصل (فى آفات العزلة)

اعلم : أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة .

ومن فوائد المخالطة : التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع ، واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال ، والاعتبار بها ، فهذه فوائد الخلطة ، ولنفصلها :

الفائدة الأولى : التعلم والتعليم ، قد ذكرنا فضلها فى كتاب العلم ، فأما من تعلم

---

(١) الملاك والإملاك : بمعنى التزويج وعقد النكاح .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤/ ٢٢٧٥ (٩) . وقوله : « لا تزدروا : أى لا تحقروا » .

الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ، ورأى الاشتغال بالعبادة ، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران .

ولهذا قال الربيع بن خيثم : تفقه ثم اعتزل ، والعلم أصل الدين ، ولا خير فى عزلة العوام .

سئل بعض العلماء : ما تقول فى عزلة الجاهل ؟ فقال : خبال ووبال ، فقيل له : فالعالم ؟ فقال : ما لك ولها ، دعها ، معها حذاؤها وسقاؤها ، ترد الماء ، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها (١) .

وأما التعليم ، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه ، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع ، فهو هلاك الدين ، وقد سبق ذلك فى كتاب العلم ، والغالب فى هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين ، فيقتضى الدين الاعتزال عنهم ، فإن صودف طالب الله ومتقرب بالتعلم إليه ، لم يجز الاعتزال عنه ، ولا يحل كتمان العلم ، ولا ينبغى أن يقول من قال : تعلمنا لغير الله فأبى أن يكون إلا لله ، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، وذلك يتضمن التخويف والتحذير ، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه ، فإن لم يؤثر فى الحال أثر فى المآل ، فأما علم الكلام وعلم الخلاف (٢) ، فإنه لا يرد الراغب فى الدنيا إلى الله تعالى ، بل لا يزال صاحبه متمادياً فى حرصه إلى آخر عمره .

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع ، أما الانتفاع بالناس ، فالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة ، وأما إن كان معه ما يقنعه ، فالعزلة أفضل إلا أن يقصد التصدق بكسبه ، فذلك أفضل من العزلة ، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به ، عن كشف وبصيرة ، لا عن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع : فهو أن ينفع الناس ، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم ، ومن قدر

---

(١) اقتباس من نور النبوة ، من حديث زيد بن خالد الجهنى يرفعه ، وفيه قوله : « ومالك ولها ؟ معها سقاؤها وحذاؤها حتى ترد الماء وترعى الشجر . . . . » الحديث أخرجه البخارى برقم ٩١ ، ومسلم فى اللقطة رقم (١) .

(٢) علم الكلام : هو علم التوحيد ، وعلم الخلاف : هو علم الفقه أو الفروع .

على ذلك مع القيام بحدود الشرع ، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل فى عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر ، فذاك الذى لا يعدل به ألبتة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب ، ونعنى به الارتياض [1] بمقاساة الناس ، والمجاهدة فى تحمل أذاهم ، وكسر النفس ، وقهر الشهوة ، وذلك أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه .

وينبغى أن يفهم أن الرياضة لا تراد لنفسها كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة ، بل المراد منها أن تتخذ مركباً تقطع عليه المراحل ، والبدن مطية [2] يسلك بها طريق الآخرة ، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها فى الطريق ، فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها ، ولا يتستفيد إلا الخلاص من عضها ورفسها ، وهى لعمرى فائدة ، ولكن ليست معظم المقصود ، قيل لراهب : يا راهب ، فقال : لست براهب ، إنما أنا كلب عقور ، حبست نفسى حتى لا أعقر الناس ، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر ، لكن لا ينبغى أن يقتصر عليه .

وأما التأديب : فهو أن يؤدب غيره ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ما ذكر .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس ، وقد يكون مستحباً كالاستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة ، فينبغى أن يكون الاستئناس فى بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين .

الفائدة الخامسة : فى نيل الثواب وإنالته .

أما الأول : فبحضور الجنائز ، وعيادة المرضى ، وحضور الإملاكات ، والدعوات ، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن .

وأما الثانى : فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه ، فإنهم ينالون بذلك ثواباً ، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم فى زيارته .

---

(١) الارتياض هنا بمعنى : الرى والارتواء .

(٢) المطية : الدابة التى يركبها الإنسان .

ولكن ينبغى أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها ، فيرجح العزلة أو المخالطة ، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها .

الفائدة السادسة : التواضع ، ولا يقدر على ذلك فى الوحدة ، فقد يكون الكبر سبباً فى اختياره العزلة ، ويمنعه فى المحافل التقصير فى إكرامه وتقديمه ، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه ، أو نحو ذلك .

وعلامة من هذه صفته أن يحب أن يزار ولا يحب أن يزور ، ويفرح وبتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه وتقبيل يده ، فالعزلة بهذا السبب جهل لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير .

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ ، بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله ، وإلى الخيط وحاله ، وإلى الباعث على مخالطته ، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد ، ويقاس الفائت بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل .

فقد قال الشافعى رحمه الله : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة للسوء ، فكن بين القبض والبسط ، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار عن حاله ، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال .

فإن قيل : فما آداب العزلة ؟

قلنا : ينبغى للمعتزل أن ينوى بعزلته كف شره عن الناس ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً ، فهذه اداب بينة .

ثم ليكن فى خلواته مواظباً على العلم والعمل ، والذكر والفكر ، فيجتنى ثمرة العزلة ، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته ، وليكف عن السؤال عن أخبارهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف [1] البلد وما الناس مشغولون به ، فإن جميع ذلك ينغرس فى القلب حتى ينبعث فى أثناء الصلاة ، فوقوع الأخبار فى

(١) الأراجيف : جمع إرجاف ، وهو خوض الناس فى الأحاديث الكاذبة . ومنه قوله تعالى : ﴿ والمرجفون فى المدينة ﴾ وهم الذين يختلقون الأكاذيب .

السمع كوقوع البدر فى الأرض ، وليقنع باليسير من المعيشة ، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس .

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس ، ولا يصغى إلى الثناء عليه بالعزلة ، ولا القدح فيه بترك الخلطة ، فإن ذلك يؤثر فى القلب فيقف عن السير فى طريق الآخرة .

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة ، ففى ذلك عون على بقية الساعات ، ولا يتم الصبر فى العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله ، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسى ، وإذا أمسى لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم .

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة ، وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به ، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه ، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة ، كما قال الله فى حق الشهداء : ﴿ **بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] وكل متجرد لله فى جهاد نفسه ، فهو شهيد ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[(١)].

* * *

(١) أخرجه البيهقى فى كتاب الزهد من حديث جابر بن عبد الله وقال : هذا إسناد فيه ضعف . انظر كشف الخفا : ١/٥١١ ، وقال ابن حجر : هو من كلام إبراهيم بن عيلة .
والخطيب فى التاريخ ١٣/٤٩٣ ، وفى الأسرار المرفوعة ص ٢٠٦

٦ - كتاب آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه ، أو الوصول إلى مرغوب إليه .

والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن الوطن ، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات ، وهذا أشرف السفرين ، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء ، ولازم درجة القصور ، قانع برتبة النقص ، ومستبدل بمتسع عرضه السموات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس .

ولم أر فى عيوب الناس عيباً　　　كنقص القادرين على التمام

إلا أن السفر لما كان مقتحمه فى خطر خطير ، اندرست مسالكه [١] .

فأما سفر البدن : فهو أقسام ، وله فوائد وآفات عظيمة ، فإنه يضاهى النظر فى العزلة والمخاطلة ، وقد ذكرنا منهاج ذلك .

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب ، فالهرب إما من أمر له نكاية [٢] فى الأمور الدنيوية ، كالطاعون إذا ظهر ببلد ، أو كخوف فتنة وخصومة ، أو غلاء سعر .

وإما أمر له نكاية فى الدين ، كمن ابتلى فى بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب ، فصده عن التجرد لله تعالى ، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه ، كمن يدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تخل مباشرته ، فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب ، فهو إما دنيوى كالمال والجاه ، أو دينى كالعلم بأمور دينه ، أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه ، وقل مذكور بالعلم محصل من زمان الصحابة رضى الله عنهم إلى زماننا إلا وحصل العلم بالسفر لأجله .

وأما علمه بنفسه وأخلاقه ، فذلك أيضاً مهم ، فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه ، وإنما سمى السفر سفراً ، لأنه يسفر عن الأخلاق .

وفى الجملة فالنفس فى الوطن لا تظهر خبائث أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق طبعها

---

(١) اندرست : أى امحت وزالت .　　(٢) النكاية : الغلبة والهزيمة والقهر .

من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء [1] السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة ، امتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها [2] ، ووقع الوقوف على عيوبها .

وأما آيات الله فى أرضه ، ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر :

ففيها قطع متجاورات ، وفيها الجبال والبرارى [3] والقفار [4] والبحار ، وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شئ إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ، مسبح بلسان ذلق [5] لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

وإنما نعنى بالسمع : سمع الباطن ، فيه يدرك نطق لسان الحال ، وما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية .

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق ، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، ولا يتصور فراغ القلب فى الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها ، وقد نجا المخفون وهلك المثقلون ، والمخف الذى ليست الدنيا أكبر همه .

فصل (فى السفر المباح)

ومن أقسام السفر أن يكون مباحاً ، كسفر التفرج والتنزه ، فأما السياحة فى الأرض لا لمقصود ، وإلا إلى مكان معروف ، فإنه منهى عنه .

فقد روينا من حديث طاوس أن النبى ﷺ قال : « لا رهبانية ، ولا تبتل ، ولا سياحة فى الإسلام » [6] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما السياحة من الإسلام فى شئ ولا من فعل النبيين ولا الصالحين . ولأن السفر يشتت القلب ، فلا ينبغى للمريد أن يسافر إلا فى طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به فى سيرته .

---

(١) وعثاء السفر : تعبه ومشقته . (٢) غوائلها : شرورها . (٣) البرارى : جمع برية ، وهى الصحراء .

(٤) القفار : جمع قفر – وتذكر وتؤنث – والقفر : الخلاء من الأرض . (٥) ذلق اللسان: أى حاد اللسان.

(٦) مرسل ، رفعه طاووس لسيدنا رسول الله ﷺ ، ولم أقف عليه بهذا اللفظ ، لكن وردت أحاديث كثيرة صحيحة فى النهى عن الرهبانية . أخرج أحمد فى المسند : ٦/٢٢٦ عن عائشة وفيه قوله : « يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا » . والدارمى فى النكاح ٢/١٧٩ (٢١٦٩) . وفى الصحيحين أن النبى ﷺ رد على عثمان التبتل .

وللسفر آداب معروفة مذكورة فى مناسك الحج وغيرها .

ومن ذلك أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ورد الودائع .

ومنها : أن يختار رفيقاً صالحاً ، ويودع الأهل والأصدقاء .

ومنها : أن يصلى صلاة الاستخارة ، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة .

ومنها : أن لا يمشى منفرداً ، وأن يكون أكثر سيره بالليل ، ولا يهمل الأذكار والأدعية إذا وصل منزلاً أو علا نشزاً (١) أو هبط وادياً (٢) .

ومنها : أن يستصحب معه ما فيه مصلحته ، كالسواك ، والمشط ، والمرآة والمكحلة، ونحو ذلك .

فصل
فيما لا بد للمسافر منه

ينبغى له أن يتزود للدنيا والآخرة ، أما زاد الدنيا ، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه .

ولا ينبغى أن يقول : أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً ، فهذا جهل ، فإن حَمْلَ الزاد لا يناقض التوكل .

وأما زاد الآخرة ، فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصلاته وعبادته ، وتعلم رخص السفر ، كالقصر والجمع والفطر ، ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم والتنفل للماشى ، وكل كذلك مذكور فى كتب الفقه بشروط .

ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر ، وهو علم القبلة والأوقات ، فإن ذلك فى السفر آكد من الحضر .

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرَّة على ما هو مبين فى موضعه (ويعتبر الجبال بأن وجوهها جميعها مستقبلة البيت) .

وأما المجرَّة ، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلى اليسرى إلى القبلة ، ثمَّ

---

(١) المكان المرتفع .   (٢) الوادى : مفرج ما بين جبال أو تلال (القاموس المحيط : ٣٩٩/٤) .

يلتوى رأسها حتى تصير فى آخر الليل على كتفه اليمنى ، وتسمى المجرة : سُرُج السماء .

وأما معرفة أوقات الصلوات ، فلا بد منها ، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس فلينصب المسافر عوداً مستقيماً ، وليعلم علامات على رأس الظل ، ولينظر ، فإن رآه فى النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر ، فإذا أخذ فى الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت وهو أول وقت الظهر ، وآخره إذا صار ظل كل شىء مثله ثم يدخل أول وقت العصر ، وآخره إلى أن يصير ظل كل شئ مثليه .

وعن الإمام أحمد : أن آخره ما لم تصفر الشمس ، ثم يذهب وقت الاختيار ، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس ، وباقى الأوقات معروفة .

* * *

٧ – كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

اعلم : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى بعث الله به النبيين ، ولو طوى بساطه ، لاضمحلت الديانة ، وظهر الفساد خربت البلاد .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن منكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وفى هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين ، لأنه قال : ﴿ **وَلْتَكُن مِنْكُم أُمَّةٌ** ﴾ ولم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف ، فإذا قام به من يكفى سقط عن الباقين ، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له .

وفى القرآن العظيم آيات كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها ، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها [(١)] وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم ، فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً » [(٢)] .

فصل
(فى مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه)

فقد جاء فى الحديث المشهور من رواية مسلم ، أن النبى ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [(٣)] .

وفى حديث آخر : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » [(٤)] .

---

(١) أوعرها : أصعبها .
(٢) أخرجه البخارى فى الشهادات : ٥/٣٤٦ (٢٦٨٦) .
(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١/ ٦٩ (٧٨) .
(٤) أخرجه أبو داود فى الملاحم : ٤/ ١٢٢ (٤٣٤٤) .

وفى حديث آخر : « إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تُودع منهم » (١) .

وقام أبو بكر رضى الله عنه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم** ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب » (٢) .

وعنه ﷺ أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم » .

فصل

فى أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك

اعلم : أن أركان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أربعة :

أحدها : أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً ، وهذا شرط لوجوب الإنكار .

فإن الصبى المميز ، له إنكار المنكر ، ويُثاب على ذلك ، ولكن لا يجب عليه .

وأما عدالة المنكر ، فاعتبرها قوم وقالوا : ليس للفاسق أن يحتسب ، وإنما استدلوا بقوله تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُم** ﴾ [البقرة : ٤٤] وليس لهم فى ذلك حجة .

واشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالى ، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة ، وهذا فاسد ، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصى ، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم .

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم ، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا ، ولكن جوابهم أن يقال إذا جاءوا إلى القاضى طالبين حقوقهم : نصرتكم أمر بالمعروف ، واستخراج

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٢/٢٦٣ ، ١٩٠ من حديث عبد الله بن عمرو ، وأخرجه كذلك الحاكم والبيهقى وسنده صحيح عن عبد الله بن عمرو . انظر المستدرك ٤/٩٦ ، وأبو داود برقم ٤٣٣٨ .

(٢) صحيح ، أخرجه أحمد فى المسند : ١/٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩ . والترمذى برقم ٢١٦٩ .

حقوقكم من يد من ظلمكم نهى عن المنكر ، ولم يجئ زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد .

فإن قيل : فى الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم ، مع كونه حقاً ، فينبغى ألا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان .

قلنا : أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة .

واعلم أن الحسبة لها خمس مراتب

الأولى : التعريف .

الثانية : الوعظ بالكلام اللطيف .

الثالثة : السب والتعنيف ، ولسنا نعنى بالسب الفاحشة ، بل نقول له : يا جاهل يا أحمق ، ألا تخاف من الله تعالى ! ونحو ذلك .

والرابعة : المنع بالقهر ، ككسر الملاهى وإراقة الخمر .

والخامسة : التخويف والتهديد بالضرب ، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه ، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها ، لأنه ربما جر إلى فتنة .

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض .

فإن قيل : فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد ، والعبد على السيد ، والزوجة على الزوج ، والرعية على الوالى ؟

قلنا : أصل الولاية ثابت للكل ، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب :

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف ، ثم بالوعظ والنصح باللطف .

وله من الرتبة الخامسة : أن يكسر العود ، ويريق الخمر ، ونحو ذلك ، وهذا الترتيب ينبغى أن يجرى فى العبد والزوجة .

وأما الرعية مع السلطان ، فالأمر فيه أشد من الولد ، فليس معه إلا التعريف والنصح .

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار ، فأما العاجز ، فليس عليه إنكار إلا بقلبه ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى ، بل يلتحق به خوف مكروه يناله فذلك فى معنى العجز .

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع ، فينقسم إلى أربعة أحوال :

أحدها : أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه ، فيجب عليه الإنكار .

الحالة الثانية : أن يعلم أن كلامه لا ينفع وإنه إن تكلم ضرب ، فيرتفع الوجوب عنه .

الحالة الثالثة : أن يعلم أن إنكاره لا يفيد ، لكنه لا يخاف مكروهاً ، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة ، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين .

الحالة الرابعة : أن يعلم أنه يصاب بمكروه ، ولكن يبطل المنكر بفعله ، مثل أن يكسر العود ، ويريق الخمر ، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك ، فيرتفع الوجوب عنه ويبقى مستحباً لقوله فى الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » [1] .

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل ، وإن علم أنه يُقتل ، لكن إن علم أنه لا نكاية له فى الكفار ، كالأعمى يطرح نفسه على الصف ، حرم ذلك ، وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه ، لم يجز له الإقدام على ذلك ، لأن هذا لا يؤثر فى الدين أثراً بفدية بنفسه ، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، وظهر لفعله فائدة ، كمن يحمل فى صف الكفار ونحوه .

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه ، لم تجز له الحسبة ، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة فى شئ . ولسنا نعنى بالعلم فى هذه المواضيع إلا غلبة الظن ، فمن غلب على ظنه أن يصيبه مكروه لم يجب عليه الإنكار ، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب ، ولا اعتبار بحالة الجبان ، ولا بالشجاع المتهور ، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع ، السليم المزاج . ونعنى

(١) سبق تخريجه أول هذا الكتاب ، فصل فى مراتب الإنكار .

بالمكروه : الضرب أو القتل ، وكذلك نهب المال ، والإشهار فى البلد مع تسويد الوجه ، فأما السب والشتم ، فليس بعذر فى السكوت ، لأن الآمر بالمعروف يَلْقَى ذلك فى الغالب .

الركن الثانى : أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً فى الحال ظاهراً ، فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع فى الشرع ، والمنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر ، فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذلك لو رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه .

وقولنا : موجوداً فى الحال ، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها ، ونحو ذلك ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد ، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد فى ثانى الحال كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب الليلة ، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ .

وقولنا : ظاهراً ، احتراز ممن تستر بالمعصية فى داره وأغلق بابه ، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه ، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار ، كأصوات المزامير والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهى ، فإن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار .

ويشترط فى إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد ، فكل ما هو فى محل الاجتهاد ، فلا حسبة فيه ، فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكله متروك التسمية ، ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شربه يسير النبيذ الذى ليس بمسكر .

الركن الثالث : هو فى المنكر عليه ، ويكفى فى صفته أن يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبى والمجنون .

الركن الرابع : نفس الاحتساب ، وله درجات وآداب .

الدرجة الأولى : أن يعرف المنكر ، فلا ينبغى له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجرى ، بل لو أخبره عدلان ابتداءً أن فلاناً يشرب الخمر ، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر .

الدرجة الثانية : التعريف ، فإن الجاهل يقدم على الشئ لا يظنه منكراً ، فإذا عرف أقلع عنه ، فيجب تعريفه باللطف ، فيقال له : إن الإنسان لا يولد عالماً ، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علَّمنا العلماء ، فلعل قريتك خالية من أهل العلم . فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء . ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر ، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه ، فقد غسل الدم بالبول .

الدرجة الثالثة : النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله ، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد ، ويحكى له سيرة السلف ، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وهاهنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها ، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم ، وذل غيره بالجهل .

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه ، وهو غاية الجهل ومذلة عظيمة ، وغرور من الشيطان ، ولذلك محك ومعيار ، فينبغى أن يمتحن به المحتسب نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه ، أو باحتساب غيره عليه ، أحب إليه من امتناعه [عنه] باحتسابه ، فإن كانت الحسبة شاقة عليه ، ثقيلة على نفسه ، وهو يود أن يكفى بغيره ، فليحتسب ، فإن باعثة هو الدين ، وإن كان الأمر بالعكس ، فهو متبع هوى نفسه ، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره ، فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه .

وقيل لداود الطائى : أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال : أخاف عليه السوط . قيل : هو يقوى على ذلك ، قال : أخاف عليه السيف ، قيل: هو يقوى على ذلك ، قال : أخاف عليه الداء الدفين : العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف ، وظهور مبادئ الإصرار ، والاستهزاء بالوعظ والنصح ولسنا نعنى بالسب : الفحش والكذب ، بل نقول له : يا فاسق ، يا أحمق ، يا جاهل ، ألا تخاف الله ، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **أُفٍّ لكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ الله أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٧] .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ، ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، وإخراجه من الدار المغصوبة ، وفى هذه الدرجة أدبان :

أحدهما : أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة ، فلا ينبغى أن يجره ولا يدفعه .

والثانى : أن يكسر الملاهى كسراً يبطل صلاحيتها للفساد ، ولا يزيد على ذلك ويتوقى فى إراقة الخمور الأوانى إن وجد إليه سبيلا ، وإن لم يقدر إلا بأن يرمى ظروفها بحجر أو نحوه ، فله ذلك ، وتسقط قيمة الظروف ، ولو ستر الخمر بيديه فإنه يقصد يديه بالضرب ليتوصل إلى إراقة الخمر ، ولو كانت الخمر فى قوارير ضيقة الرءُوس ، بحيث إنه إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه ، فله كسرها ، لأن هذا عذر ، وكذلك إن كان يضيع الزمان فى صبها ، وتتعطل أشغاله فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق .

فإن قيل : فهلا يجوز الكسر زجراً ، وكذلك الجر بالرِجْلِ فى الإخراج من الدار المغصوبة زجراً ؟

قلنا : إنما يجوز مثل ذلك للولاة ، ولا يجوز لآحاد الرعية ، لخفاء وجه الاجتهاد فيه .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف كقوله : دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا ، وينبغى أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه .

والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه ، كقوله : لأنهبن دارك ولأسبين زوجك ، لأنه إن قال ذلك عن عزم ، فهو حرام ، وإن قاله عن غير عزم فهو كذب .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح ، وذلك للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدى إلى القتال ، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام ، لأنه يؤدى إلى الفتن وهيجان الفساد .

وقيل : لا يشترط فى ذلك إذن الإمام .

فصل
فى صفات المحتسب [1]

وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة ، وجملتها ثلاث صفات فى المحتسب .

الأول : العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها ، ليقتصر على حد الشرع .

والثانى : الورع ، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض .

والثالث : حسن الخلق ، وهو أصل ليتمكن من الكف ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه ما لم يكن فى الطبع خلق حسن .

قال بعض السلف : لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به ، حليم فيما ينهى عنه ، فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه.

ومن الآداب : تقليل العلائق ، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة ، فقد حكى عن بعض السلف أنه كان له سنور ، وكان يأخذ لسنورهٌ فى كل يوم من قصاب فى جواره شيئاً من الغدد ، فرأى على القصاب منكراً ، فدخل الدار فأخرج السنور ، ثم جاءه فأنكر على القصاب ، فقال : لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك ، فقال : ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك ، وهذا صحيح ، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم .

أحدهما : من لطف ينالونه به .

والثانى : من رضاهم عنه وثنائهم عليه .

---

(١) قال الإمام الغزالى فى تعريف الحسبة : هى عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأركانها أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . (انظر الإحياء : ٣٣٩/٢) .

وأما الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمتعين ، قال الله تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً ليناً﴾ [طه : ٤٤] .

وروى أن أبا الدرداء رضى الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه فقال : أرأيتم لو وجدتموه فى قليب [(١)] ، ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم . فقالوا : أفلا تبغضه ؟ فقال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه ، فهو أخى .

ومر فتى يجر ثوبه ، فَهَمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة : دعونى أكفكم أمره ، ثم قال : يابن أخى ، إن لى إليك حاجة، قال : ما هى ؟ قال : أحب أن ترفع إزارك ، قال : نعم ونعمى عين [(٢)] فرفع إزاره ، فقال صلة لأصحابة : هذا كان أمثل مما أردتم ، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم .

ودعى الحسن إلى عرس ، فجئ بجام [(٣)] من فضة فيه خبيص [(٤)] ، فتناوله وقلبه على رغيف ، فأصاب منه ، فقال رجل : هذا نهى فى سكون .

❊ ❊ ❊

باب فى المنكرات المألوفة فى العادات وفى الإنكار على الأمراء والسلاطين وأمرهم بالمعروف

ولنذكر فى ذلك فصلين :

الفصل الأول

اعلم : أن المنكرات المألوفة فى العادات لا يمكن حصرها ، لكنا نشير إلى جمل يستدل بها على أمثالها ، فمن ذلك :

● منكرات المساجد :

مما يشاهد كثيراً فى المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة فى الركوع والسجود

(١) القليب : البئر .
(٢) نعمى عين : أى قرة عين .
(٣) الجام : إناء من فضة .
(٤) الخبيص : الحلواء .

وكذلك كل ما يقدح فى صحة الصلاة ، من نجاسة على ثوب المصلى لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب عمى أو ظلام .

ومن ذلك اللحن فى القراءة [1] .

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها .

ومن ذلك : تراسيل [2] المؤذنين وتطويلهم مد كلماته .

ومن ذلك : أن يكون على الخطيب ثوب حرير ، أو بيده سيف مذهب .

ومن ذلك : ما يجرى من القصاص فى المساجد من الكذب ، والأشياء المنهى عنها، كالخوض فى الكلام الموجب للفتن ، ونحو ذلك .

ومن ذلك أن يكون الرجال مختلطين بالنساء ، فينبغى إنكار ذلك عليهم .

ومنها : الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة ، والتعويذات ، وقيام السؤَّال وإنشادهم الأشعار ، ونحو هذا . فهذه منها ما هو حرام ، ومنها ما هو مكروه .

● منكرات الأسواق :

ومن ذلك : الكذب فى المرابحة ، وإخفاء العيب ، فمن قال : اشتريت هذه السلعة بعشرة ، ورابح فيها درهماً ، وكان كاذباً ، فهو فاسق .

ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه ، فإن سكت مراعاة للبائع كان شريكاً له فى الخيانة . وكذلك إذا علم العيب ، لزمه أن يبينه للمشترى ، وكذلك التفاوت فى الميزان والذراع ، ويجب على كل من عرفه تغييره ، إما بنفسه ، أو برفعه إلى الوالى حتى يغيره .

ومنها : الشروط الفاسدة ، واستعمال الربا ، وبيع الملاهى ، والصور المجسمة ونحو ذلك .

● منكرات الشوارع :

ومن ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة ، وإخراج الأجنحة ، وغرس الأشجار

---

(١) اللحن : عند اللغويين له عدة معان (انظر لسان العرب ، مادة لحن) . واللحن على ضربين : لحن جلى ولحن خفى ، ولكل منهما حد يخصه . (انظر القول السديد فى فن التجويد ففيه الإفادة ص ٤٥ للدكتور أحمد النجولى الجمل .

(٢) التراسيل : أى الإطالة والمط .

إذا كان ذلك يؤدى إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارة . فأما وضع الحطب والطعام فى الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة فى الحاجة إليه.

ومن المنكرات : ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتوذى الناس ، فيجب المنع من ذلك ، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب .

ومن ذلك : تحميل الدواب من الأحمال ما لا يطيق ، وكذلك طرح الكناسة على جواد الطريق ، وتبديد قشور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق ، والماء الذى يجتمع فى ميزاب معين . فأما إن كان من المطر ، فذلك على الولاة ، وليس للآحاد فى ذلك إلا الوعظ .

● **منكرات الحمامات :**

من ذلك : صور الحيوانات على باب الحمَّام أو داخله ، ويكفى فى زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور ، بحيث يبطل به تصويرها . ومن لم يقدر على الإنكار ، لم يجز له الدخول إلا للضرورة ، وليعدل إلى حمام آخر .

ومن ذلك : كشف العورات ، والنظر إليها ، وكشف المدلك عن الفخذ ، وما تحت السرة ، لتنحية الوسخ أو مس العورة .

ومنها : غمس اليد والأوانى النجسة فى المياه القليلة ، فإن فعل ذلك مالكى ، لم ينكر عليه ، بل يتلطف به ، ويقول له : يمكنك أن لا تؤذينى بتفويت الطهارة علىَّ.

● **منكرات الضيافة :**

من ذلك فرش الحرير للرجال ، والبخور فى مجمرة فضة أو ذهب ، والشرب فيهما ، واستعمال ماء الورد منهما ، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور ، وسماع القينات [(١)] والأوتار [(٢)] ، واطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم ، فكل ذلك منكر يجب تغييره ، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج .

وأما الصور على النمارق [(٣)] والبسط ، فليس بمنكر ، وكذلك الفراش الحرير والذهب للنساء ، فإنه جائز ، ولا رخصة فى تثقيب آذان الصبية [(٤)] لأجل تعليق

---

(١) أى المغنيات . (٢) آلات الموسيقى . (٣) النمارق : الوسائد .

(٤) أجازه الإمام الجليل ابن قيم الجوزية فى « تحفة المودود » واستدل على ذلك بأحاديث . انظر تحفة المودود، باب « ثقب أذن الصبى والصبية » .

حلق الذهب ، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز ، وفى المخانق والأسورة كفاية عن ذلك والاستئجار على ذلك غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام .

ومن ذلك أن يكون فى الضيافة مبتدع يتكلم فى بدعته ، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر عليه الرد ، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه ، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب ، لم يجز الحضور ويجب الإنكار ، فإن كان مزحاً لا كذب فيه ولا فحش ، أبيح ما لم يقل من ذلك فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه .

● **المنكرات العامة :**

من تيقن فى السوق منكراً يجرى على الدوام ، أو فى وقت معين وهو قادر على تغييره ، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود فى بيته ، بل يلزمه الخروج ، فإن قدر على تغيير البعض لزمه .

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه ، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه ، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم ، فإن قام بذلك الأقرب وسقط عن الأبعد ، وإلا خرج به كل قادر عليه .

الفصل الثانى : فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف ، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما : التعريف والوعظ ، فأما تخشين القول ، نحو : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير ، لم يجز ، وإن لم يخف إلا على نفسه ، فهو جائز عند جمهور العلماء ، والذى أراه المنع من ذلك لأن المقصود إزالة المنكر ، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذى قصد إزالته ، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم ، فإن سمعوا من آحاد الرعية : يا ظالم ، يا فاسق ، رأوا غاية الذل ، لم يصبروا على ذلك .

قال الإمام أحمد رحمه الله : لا تتعرض بالسلطان ، فإن سيفه مسلول ، فأما ما

جرى من السلف من التعرض لأمرائهم ، فإنهم كانوا يهابون العلماء ، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم فى الأغلب .

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء فى كتاب « المصباح المضئ » وأنا أنتخب منه هاهنا حكايات .

قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه : اخش الله فى الناس ، ولا تخش الناس فى الله ، ولا يخالف قولك فعلك ، فإن خير القول ما صدَّقة الفعل ، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات [1] إلى الحق حيث علمته ولا تخف فى الله لومة لائم . قال : ومن يستطيع ذلك يا أبا سعيد ؟ قال : من ركب فى عنقه مثل الذى ركب فى عنقك .

❋ ❋ ❋

وقال قتادة : خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه من المسجد ومعه الجارود فإذا امرأة برزة على الطريق ، فسلم عليها ، فردت عليه ، أو سلمت عليه ، فرد عليها ، فقالت : هيه [2] يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً [3] فى سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت ، فبكى عمر رضى الله عنه ، فقال الجارود : هيه ، لقد تجرأت على أمير المؤمنين وأبكيتيه .

فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه ؟ هى خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها[4] من فوق سماواته ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها .

❋ ❋ ❋

ودخل شيخ من الأزد على معاوية ، فقال : اتق الله يا معاوية ، واعلم أنك [فى] كل يوم يخرج عنك ، وفى كل ليلة تأتى عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ، ومن

---

(١) الماء الكثير . (٢) بمعنى إية ، وأيه . (٣) تصغير عمر .

(٤) يقصد بذلك قوله تعالى فى صدر سورة المجادلة : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

الآخرة إلا قرباً ، وعلى إثرك طالب لا تفوته ، وقد نصب لك علم لا تجوزه ، فما أسرع ما تبلغ العلم ، وما أوشك أن يلحقك الطالب ، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذى نحن صائرون إليه باق ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* * *

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة ، فأقام بها ثلاثاً ، فقال : ما هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا ؟

فقيل له : هاهنا رجل يقال له : أبو حازم ، فبعث إليه ، فجاء .

فقال سليمان : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء ؟ فقال له أبو حازم : وأى جفاء رأيت منى ؟ فقال له : أتانى وجوه المدينة كلهم ولم تأتنى ؟! فقال : ما جرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها . قال : صدق الشيخ ، يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . قال : صدقت يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً ، وأما المسئ فكالآبق يقدم على مولاه خائفاً محزوناً . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ، ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال : يا أبا حازم ، وأنى أصيب تلك المعرفة من كتاب الله ؟ قال : عند قوله : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيم * وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيم** ﴾ [الانفطار :١٣ ، ١٤] قال يا أبا حازم: فأين رحمة الله ؟ قال : . ﴿ **قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِين** ﴾ : [الأعراف : ٥٦] . قال : يا أبا حازم ، من أعقل الناس ؟ قال : من تعلَّم الحكمة وعلمها الناس . قال : فمن أحمق [(١)] الناس ؟ قال : من حظ نفسه فى هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال : يا أبا حازم ، فما أسمع الدعاء ؟ قال : دعاء المخبتين [(٢)] . قال : فما أزكى الصدقة ؟ قال : جهد المقل .

قال : يا أبا حازم ، ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : اعفنى من هذا . قال سليمان نصيحة تلقيها . قال أبو حازم : إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة [(٣)] من غير مشاورة

---

(١) الأحمق : من يفعل فعل الحمقى غير المتزنين . (٢) المخبتين : الخاشعين . (٣) قوة وغصباً .

المسلمين ، ولا إجماع من رأيهم ، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ، ثم ارتحلوا عنها ، فليت شعرى ، ما قالوا ؟ وما قيل لهم ؟ فقال بعض جلسائهم : بئس ما قلت يا شيخ ، فقال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال سليمان : يا أبا حازم ، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك . قال: أعوذ بالله من ذلك . قال : ولم ؟ قال : أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقنى ضعف الحياة ، وضعف الممات . قال : فأشر علىّ . قال : اتق الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

قال : يا أبا حازم ، ادع لنا بخير . فقال : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير ، وإن كان غير ذلك ، فخذ إلى الخير بناصيته . قال : يا غلام ، هات مائة دينار ، ثم قال : خذ هذا يا أبا حازم . قال : لا حاجة لى به ، لى ولغيرى فى هذا المال أسوة ، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لى فيها ، إنى أخاف أن يكون لما سمعت من كلامى . فكأن سليمان أعجب بأبى حازم ، فقال الزهرى : إنه لجارى منذ ثلاثين سنة ، ما كلمته قط ، فقال أبو حازم : إنك نسيت الله فنسيتنى . قال الزهرى : أتشتمنى ؟ قال سليمان : بل أنت شتمت نفسك ، أما علمت أن للجار على الجار حقاً ؟ قال أبو حازم : إن بنى إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تفر بدينها منهم ، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم ، وأتوا به الأمراء ، واجتمع القوم على المعصية ، فسقطوا وانتكسوا ، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم ، لم تزل الأمراء تهابهم . قال الزهرى : كأنك إياى تريد وبى تعرض ؟ قال : هو ما تسمع .

* * *

وحكى أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . قال : قل قال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا [1] دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يخافوه فيه خربوا الآخرة وعمروا الدنيا ، فهم حرب للآخرة

(١) أى اشتروا .

سلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا بمسؤلين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره . فقال سليمان : أما أنت فقد سللت لسانك ، وهو أقطع من سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك . قال : فهل من حاجة فى ذات نفسك ؟ قال : أما خاصة دون عامة فلا ، ثم قال فخرج . فقال سليمان : لله دره (١) ما أشرف أصله وأجمع قلبه ، وأزرب (٢) لسانه ، وأصدق نيته ، وأورع نفسه ، هكذا فليكن الشرف والعقل .

❋ ❋ ❋

وقيل : وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبى حازم : عظنى . فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن .

❋ ❋ ❋

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، إنما الدنيا سوق من الأسواق ، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم ، وكم من قوم غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عُدَّة ، ولا لما كرهوا منها جُنة (٣) ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التى نغبطهم بها فنخلفهم فيها ، وإلى الأعمال التى نتخوف عليهم فيها فنكف عنها ، فاتق الله ، وافتح الأبواب ، وسهل الحجاب (٤) ، وانصر المظلوم، ورد الظالم . ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله عز وجل : إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

❋ ❋ ❋

(١) دَرّه : أى عمله .　　(٢) أذرب اللسان : أى فصيح اللسان .　　(٣) جُنّة : وقاية .
(٤) الحجاب : هم من يمنعون الناس من الدخول على الأمراء .

ودخل عطاء بن أبى رباح على هشام ، فرحب به ، وقال : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون ، فسكتوا ، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطياتهم . فقال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم ، ثم قال : يا أبا محمد هل من حاجة غيرها ؟ فقال : نعم : فذكره بأهل الحجاز ، وأهل نجد ، وأهل الثغور ، ففعل مثل ذلك ، حتى ذكره بأهل الذمة أن لا يُكلفوا ما لا يطيقون ، فأجابه إلى ذلك ، ثم قال له فى آخر ذلك : هل من حاجة غيرها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اتق الله فى نفسك ، فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك ، وتحشر وحدك ، وتحاسب وحدك ، لا والله ما معك ممن ترى أحد.

قال : فأكب هشام يبكى ، وقام عطاء . فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندرى ما فيه ، أدراهم أم دنانير ؟ قال : إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا فقال : ﴿ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيه منْ أَجْرٍ إن أَجْرِيَ إلا عَلَى رَبِّ العَالَمين ﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة [١] ماء فما فوقها .

وعن محمد بن على قال : إنى لحاضر مجلس المنصور ، وفيه ابن أبى ذئب وكان والى المدينة الحسن بن زيد ، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ، سل عنهم ابن أبى ذئب . قال: فسأله عنهم ، فقال : أشهد أنهم أهل الحطم فى أعراض الناس . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ؟ فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين ، فسله عن الحسن بن زيد ، فسأله ، فقال : أشهد أن يحكم بغير الحق . فقال : قد سمعت يا حسن . قال : يا أمير المؤمنين ، سله عن نفسك ، فقال : ما تقول فىَّ ؟ قال : أويعفينى أمير المؤمنين؟ فقال : والله لتخبرنى . فقال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه وجعلته فى غير أهله . فوضع يده فى قفا ابن أبى ذئب ، وجعل يقول له : أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك . فقال ابن أبى ذئب : قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية ، وأخذا بأقفاء فارس والروم ، فخلاه أبو جعفر ، وقال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنى أنصح لك من ابنك المهدى .

(١) المراد : أنه لم يشرب عندهم من الماء شربة واحدة .

وعن الأوزاعى رحمه الله قال [(١)] : بعث إلىَّ المنصور وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه استجلسنى ، ثم قال : ما الذى أبطأ بك يا أوزاعى ؟

قلت : وما الذى تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به ، فصاح بى الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، حدثنى مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة » [(٢)] .

يا أمير المؤمنين ، كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ، أحمرهم ، وأسودهم ، ومسلمهم ، وكافرهم ، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام [(٣)] ، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه .

يا أمير المؤمنين ، حدثنى مكحول عن زياد بن حارثة ، عن حبيب بن مسلمة ، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه - فى خدش خدشه - أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً فدعا ﷺ الأعرابى ، فقال : « اقتص منى » فقال الأعرابى : قد أحللتك ، بأبى أنت وأمى وما كنت لأفعل ذلك أبداً ، ولو أتيت على نفسى . فدعا له بالخير [(٤)] .

يا أمير المؤمنين ، رُضْ نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك .

يا أمير المؤمنين ، جاء فى تأويل هذه الآية عن جدك : ﴿ **مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ**

---

(١) حديث الأوزاعى ، قال العراقى فى المغنى على الإحياء : ٢/ ٣٧٧ ، والقصة بجملتها رواها ابن أبى الدنيا فى كتاب مواعظ الخلفاء ، ورويناها فى مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ، ومشيخة ابن طبرزد ، وفى إسنادها أحمد بن عبيد ناصح ، قال ابن عدى : يحدث بمناكير ، وهو عندى من أهل الصدق .

(٢) حديث عطية بن ياسر : أخرجه ابن أبى الدنيا ، وابن عدى فى الكامل فى ترجمة أحمد بن عبيد . (انظر المغنى بهامش الإحياء : ٢/ ٣٧٧) .

(٣) الفئام : الجماعة الكثيرة من الناس .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى موعظة الخلفاء كما جاء فى المغنى : ٢/ ٣٨٨ وأبو داود ٤/ ١٨١ (٤٥٣٧) . وأحمد : ١/ ٤١ .

صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : ٤٩] قال : الصغير : التبسم ، والكبيرة الضحك ، فكيف بما عملته الأيدى ، وحصدته الألسن .

يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سخلة[1] على شاطى الفرات ضيعة ، لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟

يا أمير المؤمنين ، جاء فى تأويل هذه الآية عن جدك : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى ﴾ [سورة ص : ٢٦] قال : إذا قعد الخصمان بين يديك ، وكان لك فى أحدهما هوى ، فلا تتمنين فى نفسك أن يكون الحق له فيفلج على صاحبه ، فأمحوك من نبوتى ، ثم لا تكون خليفتى ، يا داود : إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ، ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسر ، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء .

يا أمير المؤمنين ، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه .

يا أمير المؤمنين : حدثنى يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبى عميرة الأنصارى: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله ؟ قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « ما من والٍ يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، يوقف على جسر جهنم ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوى به فى النار سبعين خريفاً »، . فقال له : ممن سمعت هذا ؟ فقال : من أبى ذر وسلمان رضى الله عنهما فأرسل إليهما عمر فسألهما ، فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر رضى الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خده بالأرض ، فأخذ المنديل - يعنى المنصور - فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكانى .

---

(١) السخلة : ولد الشاه من الظأن ذكراً كان أو أنثى .

ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، قد سأل جدك العباس رسول الله ﷺ إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن ، فقال له ﷺ : « يا عم ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها » [(1)] نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه ، وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئاً إذ أوحى إليه : ﴿ **وَأَنذِرْ عشيرَتَكَ الأقربينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : يا عباس ، ويا صفية ، ويا فاطمة، إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً [(2)] ، لى عملى ولكم عملكم ، وقد قال عمر بن الخطاب : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل لا تأخذه فى الله لومة لائم . . . وذكر تمام كلامه للمنصور ، ثم قال : فهى نصيحة والسلام عليك .

ثم نهض فقال : إلى أين ؟ فقال : إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين . فقال : أذنت لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها بقبولها ، والله الموفق للخير ، والمعين عليه وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثلها ، فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة .

قلت : أفعل إن شاء الله . فأمر له بمال يستعين به على خروجه ، فلم يقبله وقال : أنا فى غنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا كلها ، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى رده .

* * *

ولما حج الرشيد قيل له : يا أمير المؤمنين ، قد حج شيبان . قال : اطلبوه لى فأتوه به ، فقال : يا شيبان ، عظنى ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا رجل ألكن ، لا أفصح بالعربية ، فجئنى بمن يفهم كلامى حتى أكلمه ، فأتى برجل يفهم كلامه فقال له بالنبطية : قل له : يا أمير المؤمنين ، إن الذى يخوفك قبل أن تبلغ المأمن أنصح لك من الذى يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف ، قال له : أى شئ تفسير هذا ؟ قال: قل له : الذى يقول لك : اتق الله فإنك رجل مسئول عن هذه الأمة ، استرعاك الله عليها ، وقلدك أمورها ، وأنت مسئول عنها ، فاعدل فى الرعية ، واقسم

---

(١) حديث : « يا عم ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها » أخرجه ابن أبى الدنيا معضلاً - كما قال العراقى فى المغنى : ٣٧٨/٢ . قال : ورواه البيهقى من حديث جابر متصلاً ، ومن رواية ابن المنكدر وقال : هذا هو المحفوظ مرسلاً .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٤٤٩/٥ (٢٧٥٣) .

بالسوية، وانفذ فى السرية ، واتق الله فى نفسك ، هذا الذى يخوفك ، فإذا بلغت المأمن أمنت ، هذا أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم وفى شفاعته ، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت ، قال : فبكى هارون حتى رحمه من حوله ثم قال : زدنى ، قال : حسبك .

* * *

وعن علقمة بن أبى مرثد ، قال : لما قدم عمر بن هبيرة العراق ، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبى ، فأمر لهما ببيت ، فكانا فيه نحواً من شهر ، ثم دخل عليهما وجلس معظماً لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد المطلب يكتب إلىَّ كتباً أعرف أن فى إنفاذها الهلكة ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريان فى متابعتى إياه فرجاً ؟ فقال الحسن : يا أبا عمرو ، أجب الأمير . فتكلم الشعبى ، فانحط فى أمر ابن هبيرة ، كأنه عذره ، فقال : ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال : أيها الأمير قد قال الشعبى ما قد سمعت . فقال : ما تقول أنت ؟ قال : أقول: يا عمر بن هبيرة ، ، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك .

يا عمر بن هبيرة ، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالى .

يا عمر بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد ابن عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك .

يا عمر بن هبيرة ، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة ، كانوا عن الدنيا وهى مقبلة عليهم أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة عنكم .

يا عمر بن هبيرة ، إنى أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١٤] .

يا عمر بن هبيرة ، إن تك مع الله فى طاعته ، كفاك يزيد بن عبد الملك ، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصى الله ، وكلك الله إليه .

فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته .

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما ، وأكثر فيها للحسن ، وكان فى جائزة الشعبى بعض الإقتار ، فخرج الشعبى إلى المسجد ، فقال : أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل ، فوالذى نفسى بيده ، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته ، ولكنى أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصانى الله منه .

* * *

ودخل محمد بن واسع رحمه الله على بلال بن أبى بردة فى يوم حار وبلال فى حبشة ، وعنده الثلج ، فقال له : يا أبا عبد الله ، كيف ترى بيتنا هذا ؟ قال : إن بيتك لطيب ، والجنة أطيب منه ، وذكر النار يلهى عنه . قال : ما تقول فى القدر ؟ قال : جيرانك أهل القبور ، ففكر فيهم ، فإن فيهم شغلاً عن القدر . قال : ادع الله لى . قال : وما تصنع بدعائى ؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون : إنك ظلمتهم يُرفع دعاؤهم قبل دعائى ، لا تظلم ، ولا تحتاج لدعائى .

* * *

فهذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء ، فمن أراد الزيادة ، فلينظر فى « المصباح المضئ » .

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاتهم (١) ، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض مواعظ هؤلاء .

والذى أراه الآن ، الهرب من السلاطين ، فهو الأولى ، فإن قدر لقاء ، اقتنع بلطف الموعظة حسب (٢) .

ولذلك سببان :

أحدهما : يتعلق بالواعظ ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء ، فلا يخلص له وعظه .

---

(١) تقاتهم : أى على وقاية أنفسهم من البطش ومنه قوله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ .
(٢) أى فحسبه ذلك .

والثانى : يتعلق بالموعوظ ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء ، وليس لمؤمن أن يذل نفسه .

* * *

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذكر المصنف قبل ذلك كتاباً فى السماع والوجد ، فلنذكر شيئاً منه هاهنا مختصراً .

فصل فى حكم السماع

اعلم : أن السماع الذى نعنى به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب ، وغر به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد ، فضلاً عن العوام ، حتى ادَّعَوْا حضور القلب مع الله عند سماع الأغانى المطربة ، وظنوا ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها ، وجد يتعلق بالآخرة .

وإذا أردت أن تعرف الحق ، فانظر فى القرن الأول ، هل فعل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك أو أصحابه ، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم ، وفقهاء الأمة كمالك وأبى حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، رحمهم الله ، فكل القوم ذموا الغناء ، حتى قال مالك : إذا اشترى جارية ، فوجدها مغنية ، كان له ردها ، وسئل عن الغناء ، قال: إنما يفعله الفساق .

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية ، فاحتاج الصبى إلى بيعها ، فقال : تباع على أنها ساذجة [1] لا مغنية ، فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفاً إذا كانت مغنية ، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً ، فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء .

ومن المتأخرين أبو الطيب الطبرى من كبار أصحاب الشافعى ، وصنف كتاباً وبالغ فى النهى عنه ، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون ، قالوا : قد أجازه قوم من السلف .

وقد سمع أحمد بن حنبل قول قوَّال ، فقال: لا بأس بهذا ، فينبغى أن يتأمل الذى

---

(١) الساذجة : أى غير البالغة .

أفتى بجوازه ما هو ، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها ، من غير ضرب بقضيب، أو آلة تطرب ، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص .

وعلى هذا يحمل حديث عائشة [1] فى الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعاث فإن ذلك لا يطرب .

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق ، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة فى النفوس وتزعج ، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقاً بالآخرة ، وهيهات .

وليتهم قالوا : إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه ، وإنما يظنونه قربة ، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجداً [2] ، وربما أوجد الطرب ما لا يحل ، من تمزيق الثياب والتخبيط ، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف ، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة ، فلا ينبغى للإنسان أن يغالط نفسه ، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد ، وشوق من الوعد وندم على التفريط ، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر ، لا الجمز[3] والتصفيق ، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد ، حتى نحتاج فى إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدى ، ولا ننكر أنه يتفق فى بعض تلك الأشعار ما يصح أن يوجد إشارة ، إلا أن الأغلب منها إمالة القلوب إلى الهوى الدنيوى .

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة ، كمثل من قال : أنا أنظر إلى الأمرد [4] المستحسن لأتعجب من صنعة القادر ، فإنه قد أخطأ الطريق ، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه ، فلذلك نمنعه ونقول : انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى : . ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ : [سورة ق : ٦] . ومن قال : إنه لا يؤثر عندى ما يؤثر عند غيرى من انجذاب

---

(١) حديث عائشة أخرجه الشيخان ، البخارى فى العيدين : ٢/ ٥١٠ (٩٤٩) . ومسم ٢/ ٦٠٩ (١٩) .

(٢) الوجد : تأثير يحدث للقلب عند سماع ما يشجيه .

(٣) الجمز : يقال : حمار جمزى : أى وثاب سريع . (٤) الأمرد : الفتى الجميل الهيئة .

الطبع إلى الهوى ، كان مدعياً ما يخالف الجبلة (١) ، فلا يلتفت إلى دعواه ، وقد بالغت فى الكشف عن هذا كله فى كتابى المسمى بـ « تلبيس إبليس » فلم أر التطويل هاهنا ، والله أعلم .

❋ ❋ ❋

باب
آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم : أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر والأعمال نتائج الأخلاق ، والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها ، وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها .

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغنى عن إعادتها هاهنا ، لكن نقتصر فى هذا الباب على شئ من آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأجلهم قدراً، فكيف بمجموعها ؟

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن(٢) ، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال : . ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : [القلم : ٥] ، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

وهذه جملة من محاسن أخلاقه ﷺ وصفته

كان رسول الله ﷺ أحلم الناس ، وأسخى الناس ، وأعطف الناس .

وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم فى مهنة أهله .

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها .

وكان يجيب دعوة المملوك ، ويعود المرضى ، ويمشى وحده ، ويردف خلفه

---

(١) الجبلة : الخلقة .

(٢) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين : ١/ ٥١٢ - ٥١٤ (١٣٩) .

ويقبل الهدية ، ويأكلها ، ويكافئ عليها ، ولا يأكل الصدقة ، ولا يجد من الدقل[(١)] ما يملأ بطنه ، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً .

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع .

وكان يأكل ما حضر ، وما عاب طعاماً قط .

وكان لا يأكل متكئاً ، ويأكل مما يليه .

وكان أحب الطعام إليه اللحم ، ومن الشاة الكتف ، ومن البقول الدُّباء [(٢)] ومن الصبغ [(٣)] الخل ، ومن التمر العجوة .

وكان يلبس ما وجد ، مرة برد حبرة ، ومرة جبة صوف .

ويركب تارة بعيراً ، وتارة بغلة ، وتارة حماراً ، ويمشى مرة راجلاً حافياً .

وكان يحب الطيب ، ويكره الريح الخبيثة .

ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف .

ولا يجفو على أحد ، ويقبل معذرة المعتذر إليه .

يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يضحك فى غير قهقهة ، لا يمضى عليه وقت فى غير عمل لله تعالى ، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه .

وما لعن امرأة ولا خادماً قط .

وما ضرب أحداً بيده قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله .

وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله .

وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه .

وقال أنس رضى الله عنه : خدمته عشر سنين ، فما قال لى : أف قط ، ولا قال لشئ فعلتُه : لم فعلته ، ولا لشئ لم أفعله : لا فعلت كذا [(٤)] ؟

---

(١) الدقل : التمر الردئ . (٢) الدباء : القرع . (٣) الصبغ : الإدام .

(٤) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٥/ ٤٦٤ (٢٧٦٨) . ومسلم فى الفضائل ٤/ ١٨١٤ .

ومن صفته فى التوراة : محمد رسول الله ، عبدى المختار ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح [١] .

وكان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه ، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ .

وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم ، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه .

وكان طويل السكوت ، فإذا تكلم لم يسرد كلامه ، بل يتثبت فيه ويكرره ليُفهم .

وكان يعفو مع القدرة ، ولا يواجه أحداً بما يكره .

وكان أصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة [٢] ، وأكرمهم عشرة ومن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، وكان أصحابه إذا تكلموا فى أمر الدنيا تحدث معهم ، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وكان أشجع الناس . قال بعض أصحابه : كنا إذا احمرت الحدق ، واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير ، كان ربعة من القوم.

وكان أزهر [٣] اللون ولم يكن بالآدم [٤] .

وكان رجل [٥] الشعر ، ليس بالسبط [٦] ولا الجعد القطط [٧] ، وكان شعره إلى شحمة أذنه .

وكان واسع الجبهة ، أزج [٨] الحواجب ، أدعج [٩] العينين ، أهدب الأشفار أقنى العرنين ، سهل الخدين ، كث اللحية ، كأن عنقه جيد دمية عريض الصدر ، سواء البطن والصدر، رحب [١٠] الراحة، طويل الزندين [١١] ،كفه ألين من الحرير ﷺ.

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع (باب ٥٠) ، والدارمى فى المقدمة (٢) . والفظ : خشن الكلام غير رقيق . صخاب : الصخب : هو الصياح والجلبة وارتفاع الصوت .

(٢) لين العريكة : إذا كان سلساً مطاوعاً منقاداً قليل الخلاف . (٣) أزهر : أبيض اللون مشرب بحمرة.

(٤) الآدم : شديد السمرة . (٥) رجل الشعر : أسمر الشعر . (٦) السبط : المرسل .

(٧) الجعد القطط : شعر الزنجى أى ليس متكسراً . (٨) أزج : أى دقيق .

(٩) أدعج : شديد سواد الحدقة مع السعة . (١٠) رحب الراحة : واسع الكف .

(١١) طويل الزندين : الزند : عظم الساق ، أى موصل طرف الذراع فى الكف .

● **وأما معجزاته ﷺ :**

فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق عنده ريب فى أن ذلك لم يكن محتسباً بحيلة ، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك لا يصح لُمُلبِّس ولا كذاب ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه .

ومن أعظم معجزاته ، وأوضح دلالته القرآن العزيز الذى عجز الخلائق عن الإتيان بمثله ، ومعجز كل نبى انقضى بذهابه ، وهذا المعجز باق أبداً .

ومن معجزاته انشقاق القمر (١) ، ونبع الماء من بين أصابعه (٢) ، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير (٣) ، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير وحنين الجذع إليه كما يحن العشار ، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال (٤) ، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه (٥) ، وتفل فى عين علىٍّ رضى الله عنه وهو أرمد فصح من وقته (٦) ، إلى غير ذلك من المعجزات التى شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها .

نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته ، إنه كريم مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وأنس .

(٢) متفق عليه من حديث أنس . (٣) رواه الشيخان وغيرهما .

(٤) إخباره صلى الله عليه وسلم بالغائبات متفق عليه عن أكثر من راوٍ وأكثر من حادثة : ومنها حديث «ويح عمار تقتله الفئة الباغية » والحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين .

(٥) رد عن قتادة : ذكره الحافظ العراقى فى المغنى : ٢/٤١٨ وعزاه إلى أبى نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل. (٦) هذا حديث أخرجه الشيخان من حديث سهل بن سعد .

الربع الثالث
ربع المهلكات

١ - كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم : أن أشرف ما فى الإنسان قلبه ، فإنه العالم بالله ، العامل له ، الساعى إليه، والمقرب المكاشف ، بما عنده ، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد .

ومن عرف قلبه عرف ربه ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم ، والله يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته ، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين ، وأساس طريق السالكين .

فصل
فى مداخل إبليس فى قلب الإنسان

اعلم : أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى ، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى مائل عن ذلك ، والتطارد فيه بين جندى الملائكة والشياطين دائم ، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيتمكن ، ويستوطن ، ويكون اجتياز الثانى اختلاساً ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ شَرِّ الوَسْوَاس الخَنَّاس ﴾ [الناس : ٤] وهو الذى إذا ذكر الله خنس[١] ، وإذا وقعت الغفلة انبسط ، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى ، فإنه لا قرار له مع الذكر .

واعلم : أن مثل القلب كمثل حصن ، والشيطان يريد أن يدخل الحصن ، ويملكه ويستولى عليه ، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد ، وهى كثيرة ، إلا أنَّا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب [٢] التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

---

(١) خنس : انقبض واستخفى .

(٢) الدروب المكان الضيق بين الجبال ، وأطلق على باب السكة والواسعة أو الباب الأكبر (هكذا فى اللسان) .

فمن أبوابه العظيمة : الحسد ، والحرص ، فمتى كان العبد حريصاً على شئ أعماه حرصه وأصمه ، وغطى نور بصيرته التى يعرف بها مداخل الشيطان .

وكذلك إذا كان حسوداً ، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكراً أو فاحشاً .

ومن أبوابه العظيمة : الغضب ، والشهوة ، والحدة ، فإن الغضب غول [(١)] العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان . وقد رُوى أن إبليس يقول : إذا كان العبد حديداً ، قلبناه كما يقلبّ الصبيان الكرة .

ومن أبوابه : حب التزين فى المنزل والثياب والأثاث ، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، والتزين بالثياب ، والأثاث ، فيسخر الإنسان طول عمره فى ذلك .

ومن أبوابه : الشبع ، فإنه يقوى الشهوة ، ويشغل عن الطاعة .

ومنها : الطمع فى الناس ، فإن من طمع فى شخص ، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه ، وداهنه [(٢)] ، ولم يأمره بالمعروف ، ولم ينهه عن المنكر .

ومن أبوابه : العجلة ، وترك التثبت ، وقد قال النبى ﷺ : « العجلة من الشيطان، والتأنى من الله تعالى » [(٣)] .

ومن أبوابه : حب المال ، ومتى تمكن من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه إلى البخل ، وخوفه الفقر ، فمنع الحقوق اللازمة .

ومن أبوابه : حمل العوام على التعصب فى المذاهب ، دون العمل بمقتضاها .

ومن أبوابه أيضاً : حمل العوام على التفكير فى ذات الله تعالى ، وصفاته ، وفى أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم فى أصل الدين .

ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين ، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه احتقره وأطلق فيه لسانه ، ورأى نفسه خيراً منه ، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان لأن المؤمن يتطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه .

---

(١) غول - بضم الغين وهو المنية ، ويراد به هنا أن الحدة تهلكه وتذهب به - والمراد العقل .

(٢) داهنه : نافقه .

(٣) أخرجه الترمذى فى البر والصلة ٤/ ٣٢٢ (٢٠١٢) وقال : حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى عبد المهيمن بن عباس ، وضعفه من قبل حفظه .

وينبغى للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم لئلا ، يساء به الظن ، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان ، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وسيأتى الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً.

إذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات ، بقى للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى .

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع لم يندفع عنك بمجرد الكلام ، فكذاك القلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر .

فأما القلب الذى غلب عليه الهوى ، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه ، فلا يتمكن الذكر من سويدائه (١) ، فيستقر الشيطان فى السويداء .

وإذا أردت مصداق ذلك ، فتأمل هذا فى صلاتك ، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك فى مثل ذلك الموطن ، بذكر السوق ، وحساب المعاملين ، وتدبير أمر الدنيا .

واعلم : أنَّه قد عفى عن حديث النفس ، ويدخل فى ذلك ما هممت به ، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة ، وإن تركه لعائق ، رجونا له المسامحة، إلاَّ أن يكون عزماً ، فإن العزم على الخطيئة خطيئة ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : ما بال المقتولِ ؟ قال : إنه كان حَرِيصاً على قتلِ صاحبه » (٢) .

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم ، والأعمال بالنية ، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة ؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها ، وكل هذا متعلق بعقد القلب .

---

(١) سويداء القلب : عمقه .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١/١٠٦ (٣١) .

ومسلم في الفتن ٤/٢٢١٣ (١٤ ، ١٥ ، ١٦) . كلاهما عن أبي بكرة .

فصل
فى ثبات القلوب على الخير

وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، يا مصرف القلوب اصرف قلبنا إلى طاعتك » (١) .

وفى حديث آخر : « مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بأرض فلاةٍ تُقَلِّبُها الرياحُ » (٢) .

واعلم : أن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

القلب الأول : قلب عمر بالتقوى ، وزكى بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق، فتتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ، فيمده الملك بالهدى .

القلب الثانى : قلب مخذول ، مشحون بالهوى ، مندس بالخبائث ، ملوث بالأخلاق الذميمة ، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه ، ويضعف سلطان الإيمان ، ويمتلئ القلب بدخان الهوى ، فيعدم النور ، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر ، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ .

والقلب الثالث : قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى ، فيدعوه إلى الشر ، فيلحقه خاطر الإيمان ، فيدعوه إلى الخير .

مثاله : أن يحمل الشيطان حمله على العقل ، ويقوى داعى الهوى ويقول : أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم فى هواها ، حتى يعد جماعة من العلماء فتميل النفس إلى الشيطان ، فيحمل الملك حملة على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من نسى العاقبة ، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ، أرأيت لو وقفوا فى الصيف فى الشمس ولك بيت بارد ، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة ؟ أفتخالفهم فى حر

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ١/ ٧٢ (١٩٩) من حديث النواس بن سمعان مطولاً ، وفى الزوائد إسناده صحيح .

وأخرجه عن أم سلمة الترمذى فى الدعوات ٥/ ٥٠٣ (٣٥٢٢) وقال : حديث حسن .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ١/ ٣٤ (٨٨) .

وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٤٩٧ (٨١٣٥) وعزاه لابن ماجه عن أبى موسى .

الشمس ، ولا تخالفهم فيما يئول إلى النار ؟ فتميل النفس إلى قول الملك ، ويقع التردد بين الجندين ، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به ، فمن خلق للخير يسر له ، ومن خلق للشر يسر له : ﴿ **فَمَن يُرِدُ اللهُ أن يهديَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلام وَمَن يُرِدْ أن يُضلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرجاً كَأَنمَا يَصَّعَّدُ فى السَّمَاء** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه .

* * *

٢ - كتاب
رياضة النفس وتهذيب الخلق
ومعالجة أمراض القلب

وذلك فى فصول :

اعلم : أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين ، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصحابها فى سلك الشيطان ، وأمراض تفوت جاه الأبد ، فينبغى أن تعرف العلل ثم التشمير فى معالجتها ، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض ، وكيفية معالجتها فى الجملة من غير تفصيل ، فإن ذلك يأتى مبيناً إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول
فى فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذكر شيء من ذلك فى آداب الصحبة .

واعلم أن الناس قد تكلموا فى حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته ، ولم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل منهم ما حضر فى ذهنه ، وكشف الحقيقة فى ذلك أن يقال : كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق ، فيقال : فلان حسن الخَلق والخُلق . أى حسن الظاهر والباطن ، فالمراد بالخَلق : الصورة الظاهرة ، والمراد بالخُلق : الصورة الباطنة ، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس .

فالجسد مدرك بالبصر ، والنفس مدركة بالبصيرة ، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أو قبيحة ، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فقال : ﴿ **إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا من طين * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُوحى** ﴾ (ص : ٧١ - ٧٢) ، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاج إلى فكر وروى فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً ، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً .

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة ، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر .

والجواب : أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشى يستأنس ، والكلب يعلم ترك الأكل ، والفرس حسن المشى وجودة الانقياد ، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح ، وبعضها مستعصية .

وأما خيال من اعتقد أن ما فى الجبلة لا يتغير ، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية ، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط ، وأما قمعها بالكلية فلا ، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية فى الجبلة ، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية ، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه . وقد قال الله تعالى : ﴿ **أشدَّاء على الكُفَّار** ﴾ [الفتح : ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب ، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار ، وقال تعالى : ﴿ **والكَاظمينَ الغَيظَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، ولم يقل : الفاقدين الغيظ .

وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشرة والتقلل ، قال الله تعالى : ﴿ **وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا** ﴾ [الأعراف : ٣١] إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة ، حسن أن يبالغ فى ذمها على الإطلاق ليرده إلى التوسط ، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طرفى التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله : ﴿ **وَالَّذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَم يَقتروا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوَاماً** ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

واعلم : أن هذا الاعتدال ، تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق ، فكم من صبى يخلق صادقاً سخياً حليماً ، وتارة يحصل بالاكتساب ، وذلك بالرياضة ، وهى حمل النفس على الأعمال الجالبة [1] للخلق المطلوب ، فمن أراد تحصيل خلق الجود فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له .

---

(١) الجالبة : بمعنى الآتية به المتسببه فى مجيئه .

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين ، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً فى ذلك ، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار ، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه إلا أنه لا ينبغى أن يطلب تأثير ذلك فى يومين أو ثلاثة و وإنما يؤثر مع الدوام ، كما لا يطلب فى النمو علو القامة فى يومين أو ثلاثة ، وللدوام تأثير عظيم .

وكما لا ينبغى أن يستهان بقليل الطاعات ، فإن دوامها يؤثر ، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب .

وكما أن تعاطى أسباب الفضائل يؤثر فى النفس ويغير طبعها ، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة ، فيحرم بسببه كل خير .

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير ، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر .

قلت : ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « المرء عَلَى دِينِ خَلِيلِه فلينظرْ أحدُكم مَنْ يُخَالل »[1] .

الفصل الثانى
فى بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال فى الأخلاق هو الصحة فى النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض ، فاعلم أن مثال النفس فى علاجها كالبدن فى علاجه ، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء ، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً ، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة وإن كان مريضاً ، فشأنه جلب الصحة إليه ، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق ، فينبغى أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها ، وإن كانت عديمة الكمال ، فينبغى أن يسعى بجلب ذلك إليه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/ ٢٦١ (٤٨٣٣) .
والترمذى فى الزهد ٤/ ٥٠٩ (٢٣٧٨) كلاهما عن أبى هريرة وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت من حرارة فالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة ، فكذلك الأخلاق الرذيلة التى هى من مرض القلب ، علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالعلم ، ومرض البخل بالسخاء ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى .

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء ، وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة ، والصبر على مداواة مرض القلب ، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً .

وينبغى للذى يطبُّ نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة فى فن مخصوص حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، إذ ليس علاج كل مريض واحداً، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه ، وإذا رأى متكبراً حمله على ما يوجب التواضع ، أو شديد الغضب ألزمه الحلم .

وأشد حاجة الرائض لنفسه ، قوة العزم ، فمتى كان متردداً بَعُدَ فلاحُه ، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبَّر ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود ، كما قال رجل لنفسه : تتكلمين فيما لا يعنيك ؟ لأعاقبنك بصوم سنة .

الفصل الثالث

فى علامات مرض القلب وعودة إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

اعلم : أن كل عضو خلق لفعل خاص ، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب ، فمرض اليد تعذر البطش ، ومرض العين تعذر الإبصار ، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته ، وإيثار ذلك على كل شهوة .

فلو أن الإنسان عرف كل شىء ولم يعرف الله سبحانه ، كان كأنه لم يعرف شيئاً .

وعلامة المعرفة : الحب ، فمن عرف الله أحبه ، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه

شيئاً من المحبوبات ، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض ، كما أن المعدة التى تؤثر أكل الطين على أكل الخبز – وقد سقطت عنها شهوة الخبز – مريضة .

ومرض القلب خفى قد لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفُل عنه ، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه ، لأن دواءه مخالفة الهوى ، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء ، والمرض قد استولى عليهم ، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، واندرس هذا العلم وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية ، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض .

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر إلى العلة ، فإن كان يعالج داء البخل ، فعلاجه بذل المال ، ولكنه لا يسرف ، ويصير إلى حد التبذير فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة فيكون داءً أيضاً ، بل المطلوب الاعتدال .

وإذا أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى نفسك ، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك ، وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فعالج نفسك على البذل ، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك ، وأخف عليك من الإمساك ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك ، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تتقطع علاقة قلبك عن المال ، فلا تميل إلى بذلة ولا إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج فكل قلب كذلك فقد جاء الله سليماً فى هذا المقام .

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق ، حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق [1] منها ، غير ملتفتة إليها ولا متشوفة إلى أسبابها ، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة .

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز

(١) العلائق : أى غير ملتفته إليها ولا إلى زينتها .

على مثل هذا الصراط في الآخرة ، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات : ﴿ **اهْدنا الصِّراطَ المُسْتقيم** ﴾ [الفاتحة : ٦] ، ومن لم يقدر على الاستقامة ، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح .

ولا تصدر الأعمال الصالح إلا عن الأخلاق الحسنة ، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد ، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر ، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له ، فلو رد إلى الثدى لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر الأيام لتنعم الأبد ، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى (١) .

واعلم : أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت له بصيرة ، لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه .

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه ، فله في ذلك أربع طرق :

الطريقة الأولى : أن يجلس بين يدى شيخ بصير يعيوب النفس ، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها ، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده ، فمن وقع به ، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغى أن يفارقه .

الطريقة الثانية : أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا .

وسأل سلمان رضى الله عنه لما قدم عليه عن عيوبه ، فقال : سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين : حلة بالليل ، وحلة بالنهار ، فقال : هل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، قال : أما هذا فقد كفيتهما (٢) .

وكان عمر رضى الله عنه يسأل حذيفة : هل أنا من المنافقين ؟ وهذا لأن كل من

(١) السرى : السير ليلاً .

(٢) أى لا أجمع لك بعد ذلك بينهما .

علت مرتبته فى اليقظة زاد اتهامه لنفسه ، إلا أنه عز فى هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة ، لأنه قل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب .

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم ، ونحن الآن فى الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا .

وهذا دليل على ضعف الإيمان ، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب ، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة [1] ، واشتغلنا بقتلها ، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى .

الطريقة الثالثة : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدى المساوئ ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة : أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم ، يجتنبه .

فصل [فى شهوات النفوس]

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة ، إذا لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل ، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها ، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس ، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها ، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ : « إنَّ لِنَفْسِكَ عليكَ حَقّاً » [2] حتى إن قائلاً منهم يقول : لى كذا وكذا سنة أشتهى كذا ، فلا أتناوله ، وهذا انحراف عن الحلّ وخلاف سنة رسول الله ﷺ ، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما ، فلا يلتفت إلى زاهد قلّ علمه ، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الإطلاق ، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل ، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه ، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه ، أو يخاف من تناوله إنحلال عزمه ، فتطمع النفس فى استدامته ، أو يحذر من ذلك زيادة شبع

---

(١) المنة : الإنعام والإحسان .

(٢) أخرجه مطولاً البخاري فى الصوم ٤/٢٤٦ (١٩٦٨) . والدارمى ٢/١٧٩ (٢١٦٩) .

فيثقله عن عبادته ، فأما تناوله فى بعض الأوقات لتقوى النفس ، فذلك كالطب للمريض ، يمدح ولا يذم ، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصى ، ثم ظن أنه قد هذب خلقه واستغنى عن المجاهدة ، وليس كذلك ، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين وقد وصفهم الله تعالى فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَت عَلَيْهِم آيَاتُهُ زَادَتْهُم إيمَاناً وَعَلى ربِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون * أولَئِكَ هُم الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً** ﴾ [الأنفال : ٢-٣-٤] ، وقال: ﴿**التائبونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوف والناهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لحُدُود الله وَبَشِّرِ الْمُؤْمنينَ**﴾ [التوبة : ١١٢] وقال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولَئِكَ هُمُ الوارِثُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١ - ١٠]، وقال : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً** ﴾ [الفرقان : ٦٣] إلى آخر السورة.فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده .

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففى « الصحيحين » من حديث أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يُؤْمنُ عبدٌ حتى يُحب لأخيه مَا يُحبُّ لنفسه » (١) .

وفيهما أيضاً من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ﷺ أنه قال : « مَنْ كَان يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِم ضيفَه ، ومَنْ كَان يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جارَه ، ومَنْ كَان يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر فليقل خَيراً أو ليصمُتْ » (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (١/ ٧٣) (١٣) . ومسلم فى الإيمان ١/ ٦٧ (٦٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٠/ ٤٦٠ (٦٠١٨) . ومسلم فى الإيمان ١/ ٦٨ (٧٤) .

وفى حديث آخر : « أكْمَلُ المؤمنين إيمَاناً أحْسَنُهُم أخْلاقاً » [1] .

ومن حسن الخلق : احتمال الأذى ، ففى « الصحيحين » أن أعرابياً جذب رداء النبى ﷺ حتى أثرت حاشيته فى عاتقه ﷺ ، ثم قال : يا محمد ، مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضَحِك ، ثم أمَرَ له بعطاء »[2].

وكان إذا آذاه قومه قال : اللهم اغْفِرْ لِقَومى ، فإنَّهم لا يَعْلَمُون » [3] .

وكان أويس القرنى إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : يا إخوتاه ، إن كان ولا بد فارمونى بالصغار لئلا تدموا ساقى فتمنعونى من الصلاة .

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى ، فاستقبله جندى فقال : أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه فشجه ، فلما أخبر أنه إبراهيم ، جعل يقبل يده ورجله ، فقال : إنه لما ضرب رأسى ، سألت الله له الجنة ، لأنى علمت أنى أوجر بضربه إياى فلم أحب أن يكون نصيبى منه الخير ، ونصيبه منى الشر .

واجتاز بعضهم فى سكة ، فطرح عليه رماد من السطح ، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال : من استحق النار فصولح على الرماد ، ينبغى له أن لا يغضب.

فهذه نفوس ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقهم ، ونقيت عن الغش بواطنها فأثمرت الرضى بالقضاء ، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التى وجدها هؤلاء ، فينبغى أن يداوم الرياضة ليصل ، فإنه بعدُ ما وصل .

فصل فى رياضة الصبيان فى أول النشوء

اعلم : أن الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة ، وهى قابلة لكل نقش فإن عُوِّدَ الخير نشأ عليه ، وشاركه أبواه ومؤدبه فى ثوابه ، وإن عوّد الشر نشأ عليه وكان الوزر فى عنق وليه ، فينبغى أن يصونه ويؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر .

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنة ٤/ ٢١٩ (٤٦٨٢) . والترمذى ٣/ ٤٦٦ (١١٦٢) وقال حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخارى فى اللباس ١٠/ ٢٨٧ (٥٨٠٩) . ومسلم ٢/ ٧٣٠ (١٢٨) عن أنس .

(٣) أخرجه البيهقى فى الدلائل ٣/ ٢١٥ من حديث سهل بن سعد .

بل ينبغى أن يراقبه من أول عمره ، فلا يستعمل فى رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء ، وذلك علامة النجابة وهى مبشرة بكمال العقل عند البلوغ ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه .

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغى أن يعلم آداب الأكل ، ويعوده أكل الخبز وحده فى بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم (١) ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم ، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونة والإبريسم (٢) ، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين (٣) ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم ، ثم يشغله فى المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار ، وليغرس فى قلبه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق .

ومتى ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف ، فإن عاد عوتب سراً وخُوِّفَ من اطلاع الناس عليه ، ولا يكثر عليه العتاب ، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه .

وينبغى للأم أن تخوفه بالأب ، وينبغى أن يمنع النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع النوم ليلاً ، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه .

ويتعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم .

ويعود المشى والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل .

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه ، أو بمطعمه أو ملبسه .

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره .

---

(١) الحتم : الواجب .

(٢) الإبريسم : نوع من الثياب ناعم ، وليس عربياً ولكنه معرب .

(٣) المخنثين : هم من تظهر عليهم علامات الأنوثة .

ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبى مثله ، ويعلم أن الأخذ دناءة ، وأن الرفعة فى الإعطاء .

ويقبح عنده حب الذهب والفضة .

ويعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ويمنع من كثرة الكلام .

ويعوّد أن لا يتكلم إلا جواباً ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه ، وأن يقوم لمن فوقه ويجلس بين يديه .

ويمنع من فحش الكلام ، ومن مخالطة من يفعل ذلك ، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء .

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب فى لعب جميل ، ليستريح به من تعب التأديب ، كما قيل : روح القلوب تعِ الذكر .

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم .

وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة [١] ، ولم يسامح فى ترك الطهارة ليتعود ويخوف من الكذب والخيانة ، وإذا قارب البلوغ ، ألقيت إليه الأمور .

واعلم : أن الأطعمة أدوية ، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى وأن الدنيا لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وهو منتظر فى كل ساعة ، وأن العاقل من تزود لآخرته ، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا فى قلبه ، كما يثبت النقش فى الحجر .

قال سهل بن عبد الله : كنت ابن ثلاث سنين ، وأنا أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار ، فقال لى خالى يوماً : ألا تذكر الله الذى خلقك؟ قلت : كيف آذكره ؟ قال : قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك : الله معى الله ناظر إلىَّ ، الله شاهدى ، فقلت ذلك ليالى ، ثم أعلمته ، فقال : قلها فى كل ليلة إحدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة

---

(١) لقوله صلى الله عليه وسلم : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين » . أخرجه أبو داود ١/ ١٣٠ (٤٩٤) .

قال لى خالى : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل قبرك، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت له حلاوة فى سرى ، ثم قال لى خالى : يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه ، وشاهد عليه ، هل يعصيه؟ إياك والمعصية ومضيت إلى المكتب وحفظت القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع ، ثم كنت أصوم الدهر ، وقوتى من خبز الشعير ، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله .

فصل (فى شروط الرياضة)

واعلم : أن من شاهد الآخر بقلبه مشاهد يقين ، أصبح بالضرورة مريداً لها ، زاهداً فى الدنيا ، فإن من كان معه خرزة ، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة فى الخرزة ، فإذا قيل له : بعها بالجوهرة ، أسرع فى ذلك .

واعلم : أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك ، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه ، ومعتصماً لا بد من التمسك به ، وحصناً لا بد من التحصن به .

فأما الشرط ، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب .

وأما المعتصم ، فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين فى السبل .

وأما الحصن ، فالخلوة ، وعليه من الوضائف مخالفة الهوى ، وكثر الذكر والاقتصاد فى الأوراد .

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً ، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو إلا بطول المجاهدة ، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج ، فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة ، فسيأتى إن شاء الله تعالى .

❊ ❊ ❊

٣ - كتاب كسر الشهوتين
شهوة البطن ، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات ، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة ، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة فى المال ، ويتبع ذلك آفات كثيرة ، كلها من بطر الشبع .

وفى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « المؤمنُ يَأكلُ فى مِعىً واحدٍ ، والكافرُ يأكُلُ فى سبعةِ أمعاءٍ » (١) .

وفى حديث آخر : « ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنه ، حسبُ ابنُ آدمْ أكلات يُقمْنَ صُلْبَه ، فإنْ كَان لا محالةَ فثلثٌ لطعامِه ، وثُلُثٌ لشرابه ، وثُلُثٌ لِنَفَسه »(٢) .

وقال عقبة الراسبى ، دخلت على الحسن وهو يتغدى ، فقال : هلم ، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع ، فقال : سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد فى التقليل من الأكل والصبر على الجوع ، وقد بينا عيب ما سلكوه فى غير هذا الكتاب ، ومقام العدل فى الأكل رفع اليدين من بقاء شيء من الشهوة ، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ : ثُلُثٌ لطعامِه ، وثُلُثٌ لشرابِه وثُلُثٌ لنَفَسه » .

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض ، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه ، ثم يرفع يده وهو يشتهيه ، والدوام على التقليل من الطعام يضعف القوى وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض ، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة وليس كذلك ، ومن مدح الجوع ، فإنما أشار إلى الحاله المتوسطة التى ذكرناها .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة ٩/٤٤٦ (٥٣٩٣ - ٥٣٩٧) . ومسلم ٣/١٦٣١ (١٨٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/٥٠٩ (٢٣٨٠) وقال حديث حسن صحيح . وأحمد :٤/١٣٢ .

وطريق الرياض فى كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع ، فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان ، إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه وخير الأمور أوساطها ، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات ، ويكون سبباً لبقاء القوة ، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع ، فحينئذ يصح البدن ، وتجتمع الهمة ويصفو الفكر ، ومتى زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم ، وبلادة الذهن ، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ حتى يغطى مكان الفكر ، وموضع الذكر ، ويجلب أمراضاً أخر .

وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء ، وقد كان بعضهم يشترى الشهوة ويعلقها فى بيته وهو زاهد فيها ، يستر بها زهده ، وهذا هو الزهد فى الزهد بإظهار ضده ، وهو عمل الصديقين ، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين والثانية أمر .

وأما شهوة الفرج ، فاعلم أن شهو الوقاع سلطت على الآدمى لفائدتين :

إحداهما : بقاء النسل ، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة ، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق ، لا يعظم إليه الشوق ، إلا أنه لم تُرَدّ هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة ، ومحناً ، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان .

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « ما تَرَكْتُ فى الناس بعدى فتنةً أضَرّ على الرجال من النساء » (١) .

وقال بعض الصالحين : لو ائتمننى رجل على بيت مال ، لظننت أن أؤدى إليه الأمانة ، ولو ائتمننى على زنجية أخلو بها ساعة واحدة ، ما ائتمنت نفسى عليها.

وعن النبى ﷺ قال : « لا يخلو رَجُلٌ بامرأةٍ فإنَّ ثالثهما الشيطان » (٢) .

وقد ينتهى الإفراط فى هذه الشهوة ، حتى تصرف همة الرجل إلى كثر التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة ، وربما آل إلى الفواحش ، وقد تنتهى بصاحبها إلى العشق ، وهو أقبح الشهوات ، وأجدرها أن تستحيى منه ، وقد يقع عند كثير من

---

(١) أخرجه البخارى فى النكاح ٩/ ٤١ (٥٠٩٦) . ومسلم ٤/ ٢٠٩٧ (٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الفتن رقم (٢١٦٦) . وأحمد : ١/ ٢٦ وهو حديث صحيح .

الناس عشق المنال ، والجاه ، واللعب بالنرد ، والشطرنج ، والطنبور ، ونحو ذلك فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها .

ويسهل الاحتراز عن ذلك فى بدايات الأمور ، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد وقد لا ينجح ، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله ، فما أهون منعها بصرف عنانها ، ومثال من يعالجه بعد استحكامه ، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه ، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء ، وما أعظم التفاوت بين الأمرين !!



٤ – كتاب

آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة ، ولها فى القلب حلاوة ، ولها بواعث من الطبع ، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت ، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت ، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى .

اعلم أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر .

وفى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « مَنْ يَضْمَنْ لى ما بين لَحْيَيْه ، وما بين رجليه أضمنْ له الجنة » (١) .

وفى حديث آخر : « لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه ، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه » (٢) .

وفى حديث معاذ فى آخره : « كُفَّ عليك هذا » فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤخذون بما نتكلمُ به ؟ قال : « ثَكِلَتْك أمُّك يا مُعاذ ، وهل يكبّ الناس فى النار على وجوههم ، أو قال : على مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم ؟ » (٣) .

وفى حديث آخر : « مَنْ كَفَّ لسانَه سَتَرَ اللهُ عَورَتَه » (٤) .

وقال ابن مسعود : ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسانى .

وقال أبو الدرداء : أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به .

وقال مخلد بن الحسين : ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها .

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/ ٣١٤ (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف من حديث أنس . انظر المغنى على الإحياء ٣/ ١١٩

(٣) أخرجه الترمذى فى الإيمان ٥/ ١٣ (٢٦١٦) وقال : حسن صحيح .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن من حديث ابن عمر . انظر المغنى ٣/ ١١٩

ذكر آفات الكلام

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنى .

واعلم : أن من عرف قدر زمانه ، وأنه رأس ماله ، لم ينفقه إلا فى فائدة ، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنى ، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعنى ، كان كمن قدر على أخذ جوهرة ، فأخذ عوضها مدرة ، وهذا خسران العمر .

وفى الحديث الصحيح ، أن النبى ﷺ قال : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه » [1] .

وقيل للقمان الحكيم : ما بلغ من حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيته ، ولا أتكلم بما لا يعنينى .

وقد روى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته فأمسك ، فلما فرغ داود عليه السلام قام ولبس الدرع ثم قال : نِعْمَ الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله .

الآفة الثانية : الخوض فى الباطل ، وهو الكلام فى المعاصى ، كذكر مجالس الخمر ومقامات الفساق .

وأنواع الباطل كثير ، وعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة يزلُّ بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » [2] وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة [3] للشخص لبيان غلطه وإفحامه ، والباعث على ذلك الترفع .

فينبغى للإنسان أن ينكر المنكر من القول ، ويبين الصواب ، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة ، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين ، فأما إذا كان فى أمور الدنيا ، فلا وجه

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٨٣ (٢٣١٧) وقال هذا حديث غريب عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/ ٣١٤ (٦٤٧٧) . ومسلم ٤/ ٢٢٩٠ (٤٩) .

(٣) الملاحاة : الخصومة الطويلة والمنازعة .

للمجادلة فيه ، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة ، فإنها أمر زائد على المراء .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » (١) . وهذه الخصومة نعنى بها الخصومة بالباطل أو بغير علم ، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها توغر الصدر ، وتهيج الغضب ، وتورث الحقد وتخرج إلى تناول العرض .

الآفة الثالثة : التقعر فى الكلام ، وذلك يكون بالتشديق ، وتكلف السجع .

وعن أبى ثعلبة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أبغضكُم إليَّ وأبعدَكُم منى يوم القيامة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

ولا يدخل فى كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب ، والتذكير من غير إفراط ولا إغراب ، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب ، وتشويقها ، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك .

الآفة الرابعة : الفحش والسب والبذاء ، ونحو ذلك ، فإنه مذموم منهى عنه ومصدره الخبث واللؤم .

وفى الحديث : « إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » (٣) .

« الجنة حرام على كل فاحش » (٤) .

وفى حديث آخر: « ليس المؤمنُ بالطعانِ ولا اللعانَ ولا الفاحشِ ولا البذيء»(٥).

واعلم : أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ما يكون ذلك فى ألفاظ الجماع وما يتعلق به ، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام ١٣/ ١٩٢ (٧١٨٨) . ومسلم ٤/ ٢٠٥٤ (٥) .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر ٤/ ٣٢٥ (٢٠١٨) عن جابر وقال : حسن غريب .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٢/ ١٦٢ ، ٥/ ٢٠٢

(٤) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ٢٢١ (٣٦٤٨) وعزاه لابن أبى الدنيا فى الصمت ، وأبى نعيم فى الحلية عن عبد الله بن عمر . ورمز له بالضعف .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر والصلة ٤/ ٣٠٨ (١٩٧٧) عن عبد الله بن مسعود وقال : حسن غريب .

ومن الآفات : الغناء وقد سبق فيه كلام فى غير هذا الموضع .

الآفة الخامسة : المزاح ، أما اليسير منه ، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً .

فإن النبى ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فإنه قال لرجل : « يا ذا الأذنين » ، وقال لآخر : « إنا حاملوك على ولد الناقة » ، وقال للعجوز : « إنه لا يدخلُ الجنة عجوز » ثم قرأ : ﴿ **إنا أنشأناهن إنْشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً** ﴾ [1] [الواقعة: ٣٦-٣٧] وقال لأخرى : « زوجك الذى فى عينيه بياض ؟ » .

فقد اتفق فى مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء :

أحدها : كونه حقاً .

والثانى : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال .

والثالث : كونه نادراً ، فلا ينبغى أن يحتج به من يريد الدوام عليه ، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم ، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبى ﷺ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غالطاً لندور ذلك ، فالإفراط فى المزاح والمداوم عليه منهى عنه ، لأنه يسقط الوقار ويوجب الضغائن والأحقاد ، وأما اليسير كما تقدم ، من نحو نوع مزاح النبى ﷺ فإن فيه انبساطاً وطيب نفس .

الآفة السادسة : السخرية والاستهزاء ، ومعنى السخرية : الاحتقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وكله ممنوع منه فى الشرع ، ورد النهى عنه فى الكتاب والسنة .

الآفة السابعة : إفشاء السر ، وإخلاف الوعد ، والكذب فى القول واليمين ، وكل ذلك منهى عنه ، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته ، وفى الحرب [2] ، فإن ذلك يباح .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الشمائل ص ٢٤٠ مرسلاً ، وروى موصولاً من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) للحديث الذى روته لنا السيدة أم كلثوم بنت عقبة ترفعه وفيه : « ليس الكذب الذى يصلح بين الناس . . ولم أسمعه يرخص فى شئ مما يقول الناس إلا فى ثلاث : الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » والحديث أخرجه أحمد فى المسند : ٦/ ٤٠٤

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب ، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً ، وإن كان المقصود واجباً ، فهو واجب ، فينبغى أن يحترز عن الكذب مهما أمكن .

وتباح المعاريض، لقوله ﷺ : « إنَّ فى المعاريض مندوحةً عن الكذب » [1]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعاريض ما روينا عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنه أصاب جارية له فعلمت امرأته ، فأخذت شفرة ، ثم أتت فوافقته قد قام عنها ، فقالت : أفعلتها ؟ فقال : ما فعلت شيئاً ، قالت : لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها ، فقال رضى الله عنه :

وفينـــا رســـــول الله يتلــو كـتـابه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ

يبيت يُجـــافى جــنبه عـــن فراشه ... إذا اسـتثقلــت بالكافرين المضـاجعُ

أرانـا الهــــدى بعـد العمى فقلوبُنا ... بـه موقــناتٌ أنَّ مـــا قــال واقــعُ

قالت آمنت بالله وكذبت بصرى .

كان النخعى إذا طُلِبَ قال للجارية : قولى لهم : اطلبوه فى المسجد .

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها ، وشبه صاحبها بآكل الميتة .

وفى الحديث : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » [2] .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر مَنْ آمنَ بلسَانه ولم يدخلْ الإيمانُ قلبَه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنَّه مَنْ تَتَبَّعَ عورةَ أخيه تتبَّعَ اللهُ عورته ، ومَنْ تتتبَّعَ اللهُ عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » [3] .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ١٤١ (٢٣٣٢) وعزاه لابن عدى والبيهقى عن عمران بن حصين ، ورمز له بالضعف . والحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٨٨٥) موقوفاً عن عمران بن حصين .

والمعاريض : من التعريض بالقول ، وهو خلاف التصريح ، وهو التورية بالشئ عن الشئ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم ١/ ١٩٠ (٦٧) . ومسلم ٣/ ١٣٠٥ (٢٩) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/ ٢٧١ ـ(٤٨٨٠) .

فى حديث آخر : « إياكم الغيبة ، فإن الغيبةَ أشدُّ من الزنا ، إنَّ الرجلَ قد يزنى ويشربُ ، ثم يتوبُ ويتوبُ اللهُ عليه ، وإن صاحبَ الغيبة لا يغفرُ اللهُ له حتى يغفرَ له صاحبهُ » (١) .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس. والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ، ونحو ذلك .

أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ، ونحو ذلك .

أو فى خُلُقِه كقولك : هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك .

أو فى ثوبه ، كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

والدليل على ذلك ، أن النبى ﷺ سئل عن الغيبة قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قال : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان فى أخاك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (٢) .

واعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل فى الغيبة ، سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة و،الكتابة بالقلم ، فإن القلم أحد اللسانين .

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذى لم يبتلينا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ١٧٤ (٢٩١٩) وعزاه لابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة ، وأبو الشيخ فى التوبيخ عن جابر وأبى سعيد ورمز له بالضعف .

(٢) أخرجه مسلم فى البر ٤/ ٢٠٠١ (٧٠) . وأحمد : ٢/ ٢٣٠ ، ٣٨٤ .

واعلم : أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذلّه الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق » (١) .

وقال ﷺ : « من حمى مؤمناً من منافق يعيبه ، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم » (٢) .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر ، فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا (٣) ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

وقد وردت أحاديث فى حق المسلم على المسلم ، تقدمت فى كتاب الصحبة .

فصل (فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها)

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل ، وفهمه ركيك ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٤٨٧/٣ . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٥١٠ (٨٣٧٥) وعزاه لأحمد عن سهل بن حنيف وحسنه .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/ ٢٧٢ (٤٨٨٣) عن معاذ بن أنس الجهنى .

(٣) الخنا : الفحش من القول .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته وأن حسناته تنتقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه ، ويشتغل بإصلاحها ويستحى أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

فإن عِبْتَ قوماً بالذى فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه .

فلينتظر فى السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها . وقد ذكرنا بعض أسبابها ، فيعالج الغضب بما سيأتى فى كتاب الغضب ، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه ، بل ينبغى أن يغضب على رفقائه ، وعلى نحو هذا معالجة البواقى .

فصل
فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .

والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذوراً ، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغى أن تبحث ، هل بينهما عدواة وحسد؟

فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه فى السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك منهى عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص فى ذكر مساوئ الغير ، وهو غرض صحيح فى الشرع ، لا يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :

أحدها : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان ، أو أخذ حقى فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح ، والأولى التعريض ، وهو أن يقول: ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوة ونحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند [1] حين قالت : إن أبا سفيان رَجُلٌ شحيحٌ ولم ينكر عليها النبى ﷺ .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشترى .

وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة ، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع ٤/ ٤٧٣ (٢٢١١) . ومسلم فى الأقضية ٣/ ١٣٣٨ (٧) كلاهما عن عائشة .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحياء فلا غيبةَ له » [1] .

وقيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة ، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين :

إحداهما : على حق الله تعالى ، إذ فعل ما نهاه عنه ، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه واستحله ، وأظهر له الندم على فعله .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه » [2] .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوغر صدره .

وقد ورد فى الحديث : « كفارة من اغتيب أن يستغفر له » [3] .

وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .

الآفة التاسعة : من آفات اللسان : النميمة ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « لا يَدْخُلِ الجنة قَتَّات » وهو النمام [4] .

واعلم : أن النميمة تطلق فى الغالب على نقل قول إنسان فى إنسان ، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا ، وليست مخصوصة بهذا ، بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال ، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره ، فهو

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٥١٩ (٨٥٢٥) وعزاه للبيهقى عن أنس ، ورمز له بالضعف .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم ٥/ ١٢١ (٢٤٤٩) . وأحمد فى المسند ٢/ ٤٣٥ .

(٣) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٣٩٠ (٦٢٥٩) . ورمز له بالصحة .

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/ ٤٨٧ (٦٠٥٦) . ومسلم ١/ ١٠١ (١٦٩) .

نميمة . وكل من نقلت إليه النميمة ، مثل أن يقال له : قال فيك فلان كذا وكذا ، أو فعل فى حقك كذا ، ونحو ذلك ، فعليه ستة أشياء :

الأول : أن لا يصدق الناقل ، لأن النمام فاسق مردود الشهادة .

الثانى : أن ينهاه عن ذلك وينصحه .

الثالث : أن يبغضه فى الله ، فإنه بغيض عند الله .

الرابع : أن لا يظن بأخيه الغائب السوء .

الخامس : أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، فلا يحكى نميمته .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل : بلغنى أنك وقعت فيَّ ، وقلت كذا وكذا . فقال الرجل : ما فعلت ، فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق ، فقال الرجل : لا يكون النمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت، اذهب بسلام .

وقال يحيى بن أبى كثير : يفسد النمام فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى شهر.

وقد حكى أن رجلاً ساوم بعبد ، فقال مولاه : إنى أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال : نعم ، أنت بريء منهما ، فاشتراه . فجعل يقول لمولاه : إن امرأتك تبغى وتفعل ، وإنها تريد أن تقتلك ، ويقول للمرأة : إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى ، فإن أردت أن أعطفه عليك ، فلا يتزوج ولا يتسرى ، فخذى الموسى واحلقى شعره من حلقه إذا نام ، وقال للزوج : إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال : فذهب فتناوم لها ، فجاءت بموسى لتحلق شعره من حلقه ، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه .

الآفة العاشرة : كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر ، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ، أو يعده أنه ينصره ، أو يثنى على لواحد فى وجهه ويذمه عند الآخر .

وفى الحديث : « إنَّ شَرَّ الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » [1] .

واعلم : أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر [2] فى وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم، ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له .

الآفة الحادية عشرة : المدح ، وله آفات .

منها : ما يتعلق بالمادح ، ومنها : مايتعلق بالممدوح ، فأما آفات المادح ، فقد يقول ما لا يحققه ، ولا سبيل للإطلاع عليه ، مثل أن يقول : إنه ورع وزاهد ،وقد يفرط فى المدح فينتهى إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغى أن يذم .

وقد روى فى حديث : « إن الله تعالى يغضبُ إذا مُدحَ الفاسِقُ » [3] .

وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء ، فقد أحب أن يعصى الله .

وأما الممدوح ، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً ، وهما مهلكان ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً : « ويلك ، قطعت عُنُقَ صَاحِبك » . . . الحديث [4] وهو مشهور .

وقد روينا عن الحسن قال : كان عمر رضى الله عنه قاعداً ومعه الدِّرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر رضى الله عنه ومن حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدِّرة ، فقال : ما لى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لى ولك ، أما سمعتها ؟ قال : سمعتها ، فمه؟ قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك ، ولأن الإنسان إذا أثنى

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (١٠/٤٨٩ (٦٠٥٨) . وسلم ٤/٢٠١١ (٩٨) عن أبى هريرة .

(٢) الكشر : التبسم ، وهذا الأثر رواه البخارى تعليقاً فى كتاب الأدب ١٠/٥٤٤ عن أبى الدرداء .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت ، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف (انظر المغنى على هامش الإحياء).

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/٥٦٧ (٦١٦٢) .

عليه بالخير رضى عن نفسه ، وظن أنه قد بلغ المقصود ، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: « قطعت عنق صاحبك . . . » .

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، فقد أثنى ﷺ على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه ، ويتفكر فى أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه .

وقد روى أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه ، فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى .

الآفة الثانية عشرة : الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط فى أمور الدين ، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى ، ولايقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر فى علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن يعفو الله عنه لجهله .

مثال ذلك ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقل أحدكم : ما شاء الله وشئتَ، ولكن لِيقل ، ما شاءَ الله ثم شئتَ » [١] ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله : « ومن يعصهما فقد غوى » وقال : قل : ومن يعص الله ورسوله » [٢] .

وقال ﷺ : « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، كُلكُم عَبِيدُ الله ، وكُلُّ نِسائكم إماء الله ، ولكن ليقل ، غُلامى وجَاريتى » [٣] .

وقال النخعى : إذا قال الرجل للرجل : يا حمار ، يا خنزير ، قيل له يوم القيامة: أرأيتنى خلقته حماراً ، أو أرأيتنى خلقته خنزيراً ؟

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ، ولا يمكن حصره ، ومن تأمل ما أوردناه فى

---

(١) رواه البخارى تعليقاً فى الأيمان ١١/ ٥٤٨ (باب ٨). ووصله ابن ماجه برقم ٢١١٧ ، وأحمد ١/ ٢١٤

(٢) أخرجه مسلم فى الجمعة ٢/ ٥٩٤ (٤٨) عن عدى بن حاتم . وأحمد : ٤/ ٢٥٦ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم ، وأحمد فى المسند بألفاظ قريبة .

آفات اللسان ، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ : «مَنْ صَمَتَ نَجَا » [1] ، لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم .

فصل
لا تسأل عن صفات الله عزّ وجلّ

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه .

اعلم : أن الشيطان يخيل إلى العامى أنك بخوضك فى العلم تكون من العلماء وأهل الفضل ، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى . قال النبى ﷺ: « يُوشكُ الناسُ أن يسألوا ، حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ » [2] فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات ، وبحثهم عن معانى الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم ، إذا الواجب عليهم التسليم ، فالأولى بالعامى الإيمان بما ورد به القرآن ، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث ، واشتغالهم بالعبادات ، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم ، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة ٤/ ٥٦٩ (٢٥٠١) وقال حديث غريب .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق ٦/ ٣٨٧ (٣٢٧٦) . ومسلم ١/ ١١٩ (٢١٢) كلاهما عن أبى هريرة .

٥ - كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم : أن الغضب شعلة من النار ، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين ، حيث قال : ﴿ خَلَقْتَنِى من نار وَخَلَقْتَهُ من طين ﴾ [الأعراف : ١٢] فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاشتعال ، والحركة والاضطراب .

ومن نتائج الغضب : الحقد والحسد ، ومما يدل على ذم الغضب قول النبى ﷺ للرجل الذى قال له : أوصنى ، قال : « لا تغضبْ » فردد عليه مراراً ، قال : « لا تغضبْ » (١) .

وفى حديث آخر عن ابن عمر رضى الله عنه سأل النبى ﷺ ، ماذا يُبْعِدُنِى مِنْ غَضبِ الله عزّ وجلّ ؟ قال : « لا تغضبْ » (٢) .

وفى المتفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرعَةِ ، إنَّما الشديدُ الذى يملكُ نفسَه عند الغَضَبِ » (٣) .

وعن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [آل عمران :٣٩] قال : السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه .

وروينا أن ذا القرنين لقى ملكاً من الملائكة فقال : علمنى علماً أزداد به إيماناً ويقيناً قال : لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام ، فقال يا موسى : إياك والحِدَّة

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/ ٥٣٥ (٦١١٦) .

(٢) أخرجه أبو يعلى فى المسند ١٠/ ٥١ (٥٦٨٥) وذكره الهيثمى فى المجمع ٨/ ٦٩ وعزاه لأبى يعلى قال : وفيه ابن أبى الزناد وقد ضعفه غير واحد ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/ ٥٣٥ (٦١١٤) . ومسلم كلاهما عن أبى هريرة .

فإنى ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة ، وإياك والنساء ، فإنى لم أنصب فخاً قط أثبت فى نفسى من فخ أنصبه بامرأة ، وإياك والشح ، فإنى أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة .

وكان يقال : اتقوا الغضب ، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل ، والغضب عدو العقل .

وحقيقة الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب ، وينتشر فى العروق ، ويرتفع إلى أعالى البدن كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر ، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة ، وكل ذلك يحكى لون ما وراءه من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون ما فيها ، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه .

فإن كان الغضب صدر ممن فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، وتولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، فصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه ، وتردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب .

والناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث : إفراط ، وتفريط ، واعتدال .

فلا يحمد الإفراط فيها ، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما ، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار .

والتفريط فى هذه القوة أيضاً مذموم ، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ، ومن فقد الغضب بالكلية ، عجز عن رياضة نفسه ، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة ،فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ، ففقد الغضب مذموم فينبغى أن يطلب الوسط بين الطريقين .

واعلم : أنه متى قويت نار الغضب والتهبت ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ ، فيغطى على معادن الفكر ، وربما تعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود الدنيا فى وجهه ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ

بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ ، فلا يثبت فيه قدم ، ولا تسمع فيه كلمة ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفاء النار ، فكذلك يفعل بالقلب والدماغ وربما زاد الغضب فقتل صاحبه .

ومن آثار الغضب فى الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب ، واستحالة الخلقة ، وتعاطى فعل المجانين ، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وقبحها لأنِف لنفسه من تلك الحال ، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم .

فصل
فى بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاجها

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها .

فمن أسبابه : العجب ، والمزاح ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، وينبغى أن يقابل كل واحد من هذه بما يضادّه ، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه .

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور :

أحدها : أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم والاحتمال ، كما جاء فى البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رجلاً استأذن على عمر رضى الله عنه ، فأذن له ، فقال له : يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل [1] ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر رضى الله عنه ، حتى هم أن يُوقِعَ به [2] . فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين إن الله عزّ وجلْ قال لنبيه ﷺ : ﴿ **خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عزّ وجلّ .

---

(١) الجزل : كثير العطاء .

(٢) أى : ينزل به ما يسوءه من المكروه .

الثانى : أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى ، وهو أن يقول : قدرة الله عليّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت فيه غضبى ، لم آمن أن يمضى الله عزّ وجلّ غضبه عليَّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو . وقد قال الله تعالى فى بعض الكتب : يا ابن آدم ! اذكرنى عند الغضب ، أذكرك حين أغضب ، ولا أمحقك فيمن أمحق [١] .

والثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو فى هدم أعراضه ، والشماتة بمصائبه ، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه ذلك فى الدنيا إن لم يخف من الآخرة ، وهذا هو تسليط شهوة على غضب ، ولا ثواب عليه ، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة ،فيثاب على ذلك .

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب على ما تقدم ، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضارى ، والسبع العادى [٢] ، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم .

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز ، والذلة والمهانة وصغر النفس ، وتصير حقيراً فى أعين الناس ، فليقل لنفسه : تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين .

وينبغى أن يكظم غيظه [٣] ، فذلك يعظمه عند الله تعالى ، فما له وللناس ؟ أفلا يحب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودى : ليقم من وقع أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ، فهذا وأمثاله ينبغى أن يقرره على قلبه .

---

(١) المحق : ذهاب البركة والنقصان .

(٢) السبع العادى : هو المتعدى الذى يهاجم الفريسة .

(٣) يكظم غيظه : أى يكتم غيظه .

السادس : أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده ، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى ، هذا ما يتعلق بالقلب .

وأما العمل ، فينبغي له السكون ، والتعوذ ، وتغيير الحال ، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع ، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب ، فهذه الأمور وردت في الأحاديث .

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب ، فقد بينها في الحديث . كما روى أبو وائل قال : كنا عند عروة بن محمد ، فكلمه رجل بكلام ، فغضب غضباً شديداً فقام وتوضأ ، ثم جاء فقال : حدثني أبي عن جدي عطية - وكانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الغَضَبَ من الشَّيطان ، وإنَّ الشَّيطان خُلِقَ من النار وإنما تُطْفَأ النارُ بالماء ، فإذا غَضِبَ أحدُكم فليتوضأ » [1] .

وأما الجلوس والاضطجاع ، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق ، فيذكر أصله فيذل ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله ، لأن الغضب ينشأ من الكبر ، بدليل ما روى أبو سعيد ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الغضب وقال : « مَنْ وَجَدَ شيئاً من ذلك ، فليلصقْ خَدَّه بالأرض » [2] .

وقيل : غضب المهدي على رجل ، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه وإطراق الناس ، فلم يتكلموا بشيء ، قال : يا أمير المؤمنين ، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فصل (في كظم الغيظ]

قال الله تعالى : ﴿ وَالكَاظِمينَ الغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح .

وعن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَظَم غَيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء » [3] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند : ٢٢٦/٤ من حديث عطية السعدي .

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١٢٧/١ وسنده حسن وشاهده أخرجه الطبراني في المعجم الكبير كما قال الهيثمي في المجمع ١٢٨/١ . وانظر مسند أحمد : ١٩/٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٢٤٨/٤ (٤٧٧٧) . والترمذي وحسنه برقم ٢٠٢١ .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

فصل
فى الحلم

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إنَّما العِلم بالتعلُّم والحِلم بالتَحلُّم » (١) .

« اطلبوا العلمَ ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تَعلَّمونَ منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فيغلبَ جهلُكم عليكم » (٢) .

وقال رسول الله ﷺ لأشج بن قيس : « إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » (٣) .

وشتم رجل ابن عباس رضى الله عنه ، فلما قضى مقالته ، فقال : يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى .

وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقبته ؟ فقال : إنى لأستحى أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى .

وقسم معاوية نطعاً (٤) ، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه ، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية ، فأتى معاوية فأخبره ، فقال له معاوية : أوف بنذرك وارفق بالشيخ .

وجاء غلام لأبى ذر قد كسر رجل شاة له ، فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك ، فتضربنى ، فتأثم . فقال : لأغيظن من حرضك على غيظي فأعتقه .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ١٥٤ (٢٥٧٧) وعزاه للدارقطنى فى الأفراد ، والخطيب عن أبى هريرة وأبى الدرداء ، ورمز له بالضعف .

(٢) أخرجه ابن السنى فى كتابه رياض المتعلمين بسند ضعيف (انظر المغنى على الإحياء) .

(٣) أخرجه البخارى فى التوحيد باب قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ . ومسلم ١/ ٤٨ (٢٥) .

(٤) النطع : بساط من الجلد .

وشتم رجل عدى بن حاتم وهو ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقى عندك شيء فقل قبل أن يأتى شباب الحى ، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا .

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة فى الظلمة ، فمر برجل نائم فعثر به فرفع رأسه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهمَّ به الحرس ، فقال عمر: مه ، إنما سألنى أمجنون ؟ فقلت : لا .

ولقى رجل على بن الحسين رضى الله عنهما ، فسبه ، فثارت إليه العبيد ، فقال : مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل ، فألقى عليه خميصة [1] كانت عليه ، وأمر له بألف درهم فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول .

وقال رجل لوهب بن منبه : إن فلاناً شتمك ، فقال : ما وجد الشيطان بريداً غيرك .

فصل
فى العفو والرفق

اعلم : أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه ، وتؤدى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم والكظم . وقال الله تعالى : ﴿ **والعافين عن النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال : ﴿ **فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله** ﴾ [الشورى : ٤٠] وفى الحديث أن النبى ﷺ ، قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » [2] .

وعن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا عقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » [3] .

---

(١) الخميصة : هو كساء أسود له أعلام .

(٢) أخرجه مسلم فى البر ٤/ ٢٠٠١ (٦٩) . والترمذى برقم ٢٠٢٩ ، وأحمد ٢/ ٢٣٥ .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف (أنظر المغنى على هامش الإحياء ٣/ ١٩٤) .

وروى أن منادياً ينادى يوم القيامة : ليقم من وقع أجره على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «وإن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله عزّ وجلّ يحب الرفق فى الأمر كله » (١) .

وفى حديث آخر : « من يحرم الرفق يحرم الخير » (٢) .

باب
فى الحقد والحسد

اعلم : أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن ، فاحتقن فيه فصار حقداً .

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه ، فالحقد ثمرة الغضب والحسد من نتائج الحقد .

وعن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء » (٣) .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، كونوا عباد الله إخواناً » (٤) .

وفى حديث آخر عنه ﷺ أنه قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (٥) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الاستئذان ١١/ ٤٤ (٦٢٥٦) . ومسلم ٤/ ١٧٠٦ (١٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى البر والصلة ٤/ ٢٠٠٣ (٧٤ - ٧٦) . وأحمد : ٤/ ٣٦٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة ٤/ ٥٧٣ (٢٥١٠) وقال : هذا حديث اختلفوا فى روايته ... الخ .

(٤) متفق عليه .

(٥) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/ ٢٧٨ (٤٩٠٣) . وابن ماجه برقم ٤٢١٠ .

وفى حديث آخر أنه قال : « يطلع عليكم من هذا الفج [1] رجل من أهل الجنة فطلع رجل ، فسئل عن عمله ، فقال : إنى لا أجد لأحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه » [2] .

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول :

« الحاسد عدو نعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راض بقسمتى بين عبادى » .

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى النار .

وقال إبليس لنوح عليه السلام : إياك والحسد ، فإنه صيرنى إلى هذه الحال .

واعلم : أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعهمة ، فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، فهذا هو الحسد .

والحالة الثانية : أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها ، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها ، فهذا يمسى غبطة .

قال المصنف رحمه الله :

قلت : واعلم أنى ما رأيت أحدا حقق الكلام فى هذا كما ينبغى ، ولا بد لى من كشفه فأقول :

اعلم : أن النفس قد جبلت على حب الرفعة ، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها فإذا علا عليها ، شق عليها وكرهته ، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى ، وهذا أمر مركوز فى الطباع . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطِّيرة ، والحسد ، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ » [3] .

---

(١) الفج : الطريق الواسع بين جبلين .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند : ٤/ ٣٦٠ ، ٣٦٤ عن جرير مرفوعاً .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهرى ومحمد بن يعقوب الزمعى : ضعفهما الجمهور . انظر المغنى على هامش الإحياء ٣/ ١٩٩

وعلاج الحسد ، تارة بالرضى بالقضاء ، وتارة بالزهد فى الدنيا ، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما فى النفس أصلاً ، ولا ينطبق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع فى جبلته .

فأما من يحسد نبياً على نبوته ، فيجب أن لا يكون نبياً ، أو عالماً على علمه فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه ، ويطلع على ما لم يدركوه ، فإنه لا يأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم ، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما ، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عزّ وجلّ القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه فى الحق آناء الليل وآناء النهار »[١] .

والحسد له أسباب :

أحدها : العداوة ، والتكبر ، والعجب ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها، وأشدها : العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه فى غرضه ، أبغضه قلبه ، ورسخ فى نفسه الحقد .

والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك وظنه مكافأة من الله تعالى له ، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك ، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه فأما أن يبغض إنساناً فيستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن .

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم ١/ ١٩٩ (٧٣) عن ابن مسعود وانظر رقم ٧١٤١ ، ٧٣١٦. ومسلم ١/ ٥٥٩

ومعنى قوله : « لا حسد إلا فى اثنتين » قال العلماء : الحسد قسمان : حقيقى ومجازى ، فالحقيقى : تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام وأما المجازى : فهو الغبطة وهو أن يتمنى مثل النعمة التى على غيره من غير زوالها عن صاحبها .

ويكون المعنى على ذلك : لا غبطة محبوبة إلا فى هاتين الخصلتين . وما فى معناهما .

وأما الكبر ، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية ، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره ، وأن يكون من أصاب ذلك دونه ، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته . وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريباً من ذلك. قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآن عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ [الزخرف : ٣١] وقال فى حق المؤمنين : ﴿ **أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مَن بَيْنِنَا** ﴾ [الأنعام : ٥٣] وقال فى آية أخرى : ﴿ **مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا** ﴾ [يس : ١٥] وقال : ﴿ **وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُم إِنَّكُم إِذاً لَخَاسِرُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٣٤] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم .

وأما حب الرياسة والجاه ، فمثاله أن الرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به ، من أنه أوحد العصر ، وفريد الدهر فى فنه ، إذا سمع بنظير له فى أقصى العالم ، ساءه ذلك وأحب موته ، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فى علم ، أو شجاعة ، أو عبادة، أو صناعة ، أو ثروة ، أو غير ذلك ، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد .

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبى ﷺ ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم .

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله ، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر ، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به ، شق عليه ذلك ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم ، وتنغيص عيشهم ، فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته .

وقد قال بعض العلماء : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح الذى يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ، ورداءة الطبع ، وهذا معالجته شديدة ، لأنه ليس له سبب عارض ، فيعمل على إزالته ، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته فهذه أسباب الحسد .

فصل (فى سبب كثرة الحسد)

واعلم : إنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، ويقع ذلك غالباً بين الأقران ، والأمثال ، والإخوة ، وبنى العم ، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها ، فيثور التنافر والتباغض .

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر ، والإسكاف [١] يحسد الإسكاف ، ولا يحسد البزاز [٢] إلا أن يكون سبب آخر ، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر .

فأصل العدارة والتزاحم على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدين ، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه ، فإنه يحسد كل من فى العالم ممن يساهمه فى الخصلة التى يفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين ، وأما الآخرة ، فلا ضيق فيها ، فإن من أحب معرفة الله تعالى ، وملائكته ، وأنبياءه وملكوت أرضه وسماءه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين ، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته غيره ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه ، وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ، ولا ضيق فيما عند الله ، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه ، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم ، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا .

والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل فى يدٍ ما لم يرتحل عن يد أخرى والعلم مستقر فى قلب العالم ، ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه ، ولا نهاية له ، فمن عوَّد نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكه ، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم ، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون فى قلبه

---

(١) الإسكافى : هو صانع الأحذية .

(٢) البزاز : بائع الأقمشة .

حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، فقد عرفت أنه لا حسد إلا فى المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل .

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء ، لأنها واسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار ، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ، ولذة لا تتكدر ، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته ، ولا ينال ذلك فى المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها ، وضعفت فيها رغبتك ، فلست برجل ، إنما هذا شأن الرجال ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى من المحرومين .

واعلم : أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا ، وأنه لا يضر المحسود فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع به ، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد ، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع ، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب فى الآخرة .

وبيان قولنا : أن المحسود لا ضرر عليه فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع بحسدك فى الدين والدنيا ، لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذى قدره ولا ضرر عليه فى الآخرة ، لأنه لا يأثم هو بذلك ، بل ينتفع به ، لأنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل .

وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد .

فإذا تأملت ما ذكرنا ، علمت أنك عدو لنفسك ، وهو صديق لعدوك ، فما مثلك إلا كمثل من يرمى حجراً على عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه ، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول ، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيرميه الثالثة ، فيعود الحجر على

رأسه فيشدخه ، وعدوه سالم يضحك منه ، فهذه الأدوية العلمية ، فإذا تفكر الإنسان فيها أخمدت نار الحسد من قلبه .

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد ، فإذا بعثه على الحقد والقدح فى المحسود ، كلف نفسه المدح له ، والثناء عليه ، وإن حمله الكبر ألزم نفسه التواضع له ، وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة فى الأنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم ، أهدوا إليه هدية . فهذه أدوية نافعة للحسد جداً ، إلا أنها مرة ، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد ، فأرد ما يكون ، وهذا هو الدواء الكلى ، والله أعلم .

باب فى ذم الدنيا

الآيات الوارد فى القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ منَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ منَ الذَّهَبِ والفضة والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأنعَامِ والحَرْثِ ذَلكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا واللهُ عندَهُ حُسْنُ المَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بخَيْرٍ من ذَلكُم ﴾ الآية [آل عمران : ١٤ - ١٥] ، وقوله : ﴿ ومَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ [آل عمكران : ١٨٥]، وقوله : ﴿إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أنزَلْنَاهُ منَ السَّمَاءِ ﴾ الآية [يونس : ٢٤] ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينة ﴾ [الحديد : ٢٠] ، وقوله : ﴿ وإن كُلُّ ذَلكَ لما مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخرَةُ عندَ ربِّكَ للمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، وقوله : ﴿فَأَعْرِضْ عَن من تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلكَ مَبْلَغُهُم منَ العِلْمِ ﴾ [النجم : ٢٩ - ٣٠] .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من رواية المسور بن شداد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع ؟ » (١) .

وفى حديث آخر : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (٢) رواه مسلم .

---

(١) متفق عليه من حديث المسور بن شداد .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٧٢ (١) . عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه وأحمد ٢/ ١٩٧ .

وفى حديث آخر : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » [(١)] . رواه الترمذى وصححه .

وفى حديث آخر : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » [(٢)] .

وروى أبو موسى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من أحب دنياه ، أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » [(٣)] .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة ، وكن أسرَّ ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن ، ما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؟ ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر والله ما أحد من الناس بسط له فى الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه .

وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعنى الدنيا .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٨٥ (٢٣٢٠) عن سهل بن سعد وقال : صحيح غريب .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٨٥ (٢٣٢٢) وقال : حسن غريب .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٤/ ٤١٢ ، والحديث صححه الحاكم فى المستدرك . ٤/ ٣٠٨ .

ومن أمثلة الدنيا : قال يونس بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى فى منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه .

ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس فى أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به .

قيل : إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء [1] زرقاء أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تقذف فى جهنم ، فتنادى : يا رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وعن أبى العلاء ، قال : رأيت فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة ، والناس عكوف عليها متعبون ، ينظرون إليها ،فقلت : من أنت ويلك ؟ قالت : أما تعرفنى؟ قلت : لا ، قالت : أنا الدنيا . فقلت : أعوذ بالله من شرك . قالت : إن أحببت أن تعاذ من شرى فأبغض الدرهم .

وقال بعضهم : رأيت الدنيا فى النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء .

مثال آخر : واعلم أن أحوالك ثلاث :

حال لم تكن فيها شيئاً ، وهى قبل أن توجد .

(١) شمطاء : الشمط فى الشعر : إختلافه بلونين من سواد وبياض أو بياض شعر الرأس يخالط سواده .

وحال أخرى ، وهى من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى ، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك ، إما فى الجنة أو النار ، وهو الخلود الدائم وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة ، وهى أيام حياتك فى الدنيا ، فانظر إلى مقدار ذلك ، وانسبه إلى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا .

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها فى ضرر وضيق ، أو سعة ورفاهية ، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، وقال : « ما لى وللدنيا ؟ إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ، قال [1] تحت شجرة ، ثم راح وتركها » [2] .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة واللحد هو الركن الثانى على آخر القنطرة .

ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو فى غاية الجهل والحمق .

وقيل : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر : روى عن الحسن قال : بلغنى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة [3] غبراء ، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى ، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر ، وبقوا بين ظهرانى المفازة

---

(١) قال : من القيلولة : وهى النوم فى الظهيرة .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/٥٠٨ (٢٣٧٧) عن ابن مسعود وقال : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه فى الزهد ٢/١٣٧٦ (٤١٠٩) .

(٣) مفازة : صحراء ليس بها ماء .

لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاء هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ، علام أنتم ؟ قالوا : على ما ترى . قال : أرأيتكم إن هديتكم إلى ماءٍ رواءٍ ، ورياضٍ خضرٍ ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً . قال : عهودكم ومواثيقكم بالله . قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً . قال : فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً ، فمكث فيهم ما شاء الله ، ثم قال : يا هؤلاء الرحيل ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كماءكم ، وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثر القوم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت : طائفة قليلة : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه ؟ وقد صدقكم فى أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم فى آخره. قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل عدو ، فأصبحوا بين أسير وقتيل »(١) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذير العريان ،فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم . فصبَّحهم الجيش فى مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من حق »(٢) .

فصل
فى بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التى خلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

---

(١) مرسل ، رفعه الحسن إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقال العراقى فى المغنى على هامش الإحياء : رواه ابن أبى الدنيا هكذا مطولاً .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/٣٢٢ (٦٤٨٢) . ومسلم فى الفضائل ٤/١٧٨٨ (١٦) كلاهما عن أبى موسى .

وقد وضع الله فى الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما تاقت منعوها ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلاً بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

اعلم : أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهى الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الأدمى ، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عزّ وجل ، فإنه لا يبقى إلا بهده المصالح كما لا تبقى الناقة فى طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع فى الذم ، فإنه ليس للشره فى تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ، ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الثياب ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى فى البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير فى تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هى الوسطى ، وهى أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهىً ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثورى يأكل فى أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه فى السفر الفالوذج .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات فى بعض الأوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال .

ولينظر فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط فى تناول الدنيا ، ولا تفريط فى حقوق النفس .

وينبغى أن يتلمح حظ النفس فى المشتهى ، وإن كان فى حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم والزهد فيه يكون .

باب فى ذم البخل والحرص والطمع
وذم المال ومدح القناعة والسخاء

اعلم : أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمى ، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلِّه ، أو حبسه عن حقه ، أو إخراجه فى غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وفى « سنن الترمذى » عن النبى ﷺ أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » (١) .

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال . وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى الفتوح يبكى ويقول : ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبى بكر لشرٍّ أراده الله بهما وأعطاه عمر إرادة الخير له .

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل : ما رقبته ؟ قال : أخذه مِنْ حلِّه ووضعه فى حقه . وقال مصيبتان للعبد فى ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلها ، قيل : ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله .

بيان فى مدح المال

قد بينَّا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغى أن يمدح ، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا ، وقد سماه الله تعالى خيراً ، وهو قوام الآدمى . قال الله تعالى فى أول سورة النساء: ﴿ **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم الَّتى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً** ﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطى منه حقه .

وقال أبو إسحاق السبيعى : كانوا يرون السعة عوناً على الدين .

وقال سفيان : المال فى زماننا هذا سلاح المؤمنين .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٥٠٨ (٢٣٧٦) وقال حسن صحيح . والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣٩٤ (٢٧٣٠) وأحمد فى المسند : ٣/ ٤٥٦ ، ٤٦٠

وحاصل الأمر ؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، فترياقه فوائده ، وغوائله سمه ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره .

أما فوائده ، فتنقسم إلى دنيوية ودينية :

أما الدنيوية ، فالخلق يعرفونها ، ولذلك تهالكوا فى طلبها .

وأما الدينية ، فتنحصر فى ثلاثة أنواع :

أحدها : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، كالحج والجهاد ، وإما فى الاستعانة على العبادة ، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به ، فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا .

النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام :

أحدها : الصدقة ، وفضائلها كثيرة مشهورة .

القسم الثانى : المروءة ، ونعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك ، وهذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء .

القسم الثالث : وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب [١] السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، وكف شرهم ، فهو من الفوائد الدينية ، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة » [٢] . وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة ، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التى تحمل فى الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

القسم الرابع : ما يعطيه أجراً على الاستخدام ، فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك

---

(١) الثلب : يقال : ثلبه : يثلبه ثلباً : إذا لامه وعابه وصرح بالعيب .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلى فى المسند ٤/٣٦ (٢٠٤٠) وإسناده ضعيف .

وذكر ابن حجر فى الفتح ١٠/٤٤٧ هذه الرواية وعزاها إلى الحاكم والدارقطنى .

الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك ، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه ، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل بذلك غرضك ، فإن تشاغلك به غبن ، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد .

النوع الثالث : ما لا يصرفه الإنسان إلى معين ، لكن يحصل به خيراً عاماً ، كبناء المساجد ، والقناطر ، والوقوف المؤبدة ، فهذه جملة فوائد المال فى الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة ، من الإخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر والعز بين الخلق ، والكرامة فى القلوب ، والوقار .

وأما غوائل المال وآفاته فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية :

أما الدينية فثلاث فئات :

الأولى : أنه يجر إلى المعاصى غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت داعيته إليها .

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصى ، ومتى يئس الإنسان من المعصية لم تتحرك داعيته إليها .

ومن العصمة أن لا تجد ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهى هلك ، وإن صبر لقى شدة فى معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يتحرك إلى التنعم فى المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق ، لأن من كثر ماله خالط الناس ، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة ، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال .

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى وهذا هو الداء العضال ، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى ، والتفكير فى جلاله وعظمته ، وذلك يستدعى قلباً فارغاً .

وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكراً فى خصومة الفلاحين ومحاسبتهم

وخيانتهم، ويتفكر فى منازعة شركائه فى الحدود والماء ، وأعوان السلطان فى الخراج والأجراء على التقصير فى العمارة ونحو ذلك .

وصاحب التجارة يمسى ويصبح متفكراً فى خيانة شريكه ، وتقصيره فى العمل وتضيعه المال .

وكذا سائر أصناف المال ، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر فى كيفية حفظه وفى الخوف عليه .

ومن له قوت يوم بيوم فهو فى سلامة من جميع ذلك ، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا ، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب .

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات .

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم : أن الفقر محمود ، ولكن ينبغى أن يكون قانعاً ، ومنقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما فى أيديهم ، ولا حريص على إكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس .

وقد روى فى « صحيح مسلم » عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » (١) .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : قد جربنا العيش كله ، لينه من شديدة فوجدناه يكفى منه أدناه .

وفى حديث جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « القناعة مال لا ينفد » (٢) .

وقال حازم : ثلاث من كان فيه كمل عقله : من عرف نفسه ، وحفظ لسانه ، وقنع بما رزقه الله عز وجل .

وقرأ بعض الحكماء : أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة .

---

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة ٢/ ٧٣٠ (١٢٥) وابن ماجه فى الزهد ٢/ ١٣٨٦ (٤١٣٨) وأحمد فى المسند : ٢/ ١٦٨ ، ١٧٣ .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٣٨٥ (٦١٩٣) وعزاه للقضاعى عن أنس ورمز له بالضعف .

أما الحرص ، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس : أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له » (١) .

ونهى عن الطمع فقال : « اجمع اليأسَ مما فى أيدى الناس » (٢) .

وقال بعضهم : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل له : ما غايتك ؟ قال : الحرمان .

وقيل : الطمع يذل الأمير ، واليأس يعز الفقير .

بيان
علاج الحرص والطمع
والدواء الذى تكتسب به صفة القناعة

اعلم : أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان :

الصبر ، والعلم ، والعمل ، ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأول : الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق ، فمن أراد القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بد منه ، فيقنع بأى طعام كان ، وقليل من الإدام ، وثوب واحد ، ويوطن نفسه على ذلك ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر .

قال النبى ﷺ : « ما عال من اقتصد » (٣) وفى حديث آخر : « التدبير نصف العيش » (٤) . وفى حديث آخر : « ثلاث منجيات : خشية الله تعالى فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضى والغضب (٥) .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه من حديث جابر ٤/٣٢٥

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/١٣٩٦ (٤١٧١) عن أبى أيوب . وفى الزوائد : إسناده ضعيف .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ١/٤٤٧ عن ابن مسعود .

(٤) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ١/٢٠٤ (٣٣٩٩) وعزاه للقضتعي عن علىٍّ ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس وحسنه .

(٥) ذكره السيوطى فى الجامع ١/٢٠٩ (٣٤٧١) وعزاه لأبى الشيخ فى التوبيخ ، وللطبرانى فى الأوسط عن أنس وضعفه .

الثانى : إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل ، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه ، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث فى روعى ، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله عز وجل ، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته » (١) .

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه ، فإن فى الحديث : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » .

الثالث : أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء ، وما فى الطمع والحرص من الذل .

وليس فى القناعة إلا الصبر عن المشبهات والفضول ، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ، ومن لم يؤثر عزّ نفسه عن شهوته ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان .

الرابع : أن يكثر تفكره فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين ، ويسمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين ، أو صفوة الخلق عند الله تعالى ، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير ، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً منه (٢) .

الخامس : أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال ، وينظر إلى ثواب الفقر ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه فى الدنيا ، وإلى من فوقه فى الدين ، كما جاء فى الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « انظروا

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا والحاكم فى المستدرك وصححه عن ابن مسعود إلى قوله : فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب .

(انظر كشف الخفا ١/٢٦٨) .

(٢) السفاد : النزو ، وهو نزو الذكر على الأنثى .

إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » [1] .

عماد الأمر : الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء .

فصل
فى لزوم القناعة لمن فقد المال

ينبغى لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا ، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف ، فإن السخاء أخلاق الأنبياء ، وهو أصل من أصول النجاة .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « قال جبريل عليه السلام : قال الله عزّ وجلّ : الإسلام دين ارتضيته لنفسى ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه » [2] .

وفى حديث آخر : عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « تجافوا عن ذنوب السخى ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر » .

وفى حديث آخر : « الجنة دار الأسخياء ، وما جبل ولى الله إلا على السخاء»[3] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام ، ولكن دخلوها بسخاء النفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للمسلمين » [4] .

وفى حديث آخر : « عليكم باصطناع المعروف ، فإنه يمنع مصارع السوء » [5] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/ ٣٢٩ (٦٤٩٠) ومسلم فى الزهد ٢/ ٢٢٧٥(٩) كلاهما عن أبى هريرة .

(٢) قال الحافظ العراقي فى المغنى ٣/ ٢٥٨ رواه الدارقطنى فى المستجاد بسند ضعيف .

(٣) ذكره السيوطى فى الجامع ١/ ٢٢١ (٣٦٤٤) وعزاه لابن عدى والقضاعي عن عائشة وضعفه .

(٤) أخرجه الدارقطنى فى المستجاد ، وابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك منكر الحديث . . .
(انظر المغنى ٣/ ٢٦٠) .

(٥) ذكره السيوطى فى الجامع ٢/ ٣٤٣ (٥٥٥٤) وعزاه لابن أبى الدنيا عن ابن عباس وصححه .

وقال ابن السماك : عجبت ممن يشترى المماليك بماله ، كيف لا يشترى الأحرار بمعروفه ؟!

ومن حكايات الأسخياء :

قد صح عن النبى ﷺ أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا . وأن رجلاً سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه فقال: يا قوم : أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

وقيل : كان لعثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك .

وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله ، وتعرف إليه برحم ، فقال : إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة : رأيت عائشة رضى الله عنها تقسم سبعين ألفاً ، وهى ترقع درعها .

وروى أنها قسمت فى يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية عليَّ فطورى ، فجاءتها بخبز وزيت ، فقالت لها أم درة : أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟! فقالت : لو ذكرتنى لفعلت .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دراهم ، قال : يا غلام : ائتهم ، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لى لبن البقر ، فابعث لى بقرة أشرب من لبنها ، فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التى كانت ترعى فيها لك .

ودخل على بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه ، فجعل يبكى فقال: ما شأنك ؟ قال : عليَّ دين ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار أو بضعة عشرة ألف دينار . قال : فهى عليَّ .

وجاء رجل إلى معن ، فسأله ، فقال : يا غلام : ناقتى الفلانية وألف دينار فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه ، فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرَّفنى ، قال دخل عرّفه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، فلما بصر معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناجِ معناً بحاجتى   فما لى إلى معنٍ سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر [1] ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أخذها الرجل ، خاف أن يعود فيستعيدها منه ، فخرج ، فلما كان اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد ، فقال معن : حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ، ينادى : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه فى حل ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائه ألف أخرى .

❊ ❊ ❊

---

(١) البدرة : - بفتح الباء ، وسكون الدال ، كيس فيه ألف ، أو عشرة آلف درهم (لسان العرب) .

فصل
فى البخل وذمه

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » (١) .

وقال ﷺ : « لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٢) .

وفى أفراد مسلم ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل » (٣) .

وروى جابر رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ لبنى سلمة : « من سيدكم ؟ قالوا : جد بن قيس على أننا نبخله ، قال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور » هى أصح من ذكر عمروٍ بن الجموح ، وغلط بعض الرواة، فقال : البراء بن معرور ، البراء مات قبل الهجرة (٤) .

وعن النبى ﷺ أنه قال : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٥) .

قال الخطابى : الشح فى المنع أبلغ من البخل .

وقال سلمان الفارسى : إذا مات السخى ، قالت الأرض والحفظة : رب تجاوز عن عبدك فى الدنيا بسخائه ، وإذا مات البخيل قالت : اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت فى يديه من الدنيا .

وقال بعض الحكماء : من كان بخيلاً ورث ماله عدوه .

ووصف أعرابى رجلاً فقال : لقد صغر فى عينى لعظم الدنيا فى عينه .

وذم أعرابى قوماً فقال : يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش .

---

(١) أخرجه الترمذى فى البر والصلة ٣٠٢/٤ (١٩٦٢) عن أبى سعيد وقال : هذا حديث غريب .

(٢) أخرجه النسائى فى الجهاد ١٣/٦ وأحمد : ٢٥٦/٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى الذكر ٢٠٧٩/٤ (٥٠) عن أنس .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه على شرط مسلم ٢١٩/٣ .

(٥) ذكره السيوطى فى الجامع ٢٠٩/١ (٣٤٧٢) مطولاً وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وضعفه .

من حكايات البخلاء

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان الحاجب رجلاً من أجل العرب وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راءٍ فينتفع بضوئها ، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضيء بها أطفأها .

وقيل : كان مروان بن أبى حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدى ، فقالت له امرأته : ما لى عليك إن رجعت بالجائزة ؟

قال : إن أعطيت مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق .

وقيل : كان بعض البخلاء موسراً كثير الأموال ، وكان ينظر فى دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حمالاً وقال : بكم تحمل هذه الحوائج ؟ قال : بحبة. قال : أبخس ، قال ما أقل من حبة ؟ لا أدرى ما أقول . قال : نشترى بالحبة جزراً ، فنجلس جميعاً فنأكله .

فصل [فى فضل الإيثار [1] وبيانه]

اعلم أن السخاء والبخل درجات

فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه .

وأشد درجات البخل ، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ، ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهى الشهوة فيمنعه منها البخل .

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة ، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة فالأخلاق عطايا يضعها الله عزّ وجلّ حيث يشاء .

وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء . وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بالإيثار ، فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ [2] ﴾

---

(١) الإيثار : هو التفضيل : ومنه قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أى فضلك علينا .

(٢) خصاصة : يعنى حاجة أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم فى حال إحتياجهم إلى ذلك .

انظر تفسير ابن كثير ٤/٣٣٨

[الحشر: ٩] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبى طلحة ، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه ، وحكايته مشهورة .

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام، وجماعة من بنى المغيرة ، فأتوا بماءٍ وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه .

أُتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه ، فقال : أبدأ بهذا ، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه ، فقال : ابدأ بهذا ، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة ، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسى أنتم.

وأُهدى إلى رجل من الصحابة رضى الله عنه رأس شاة ، فقال : إن أخى أحوج إليه منى ، فبعث به إلى رجل ، فبعث به ذلك إلى آخر ، حتى تداولته سبع أبيات فرجع إلى الأول .

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله ، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله ، ثم رمى إليه ثالث فأكله ، وعبد الله ينظر فقال : يا غلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هى بأرض كلاب ، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : أُلام على السخاء وهذا أسخى منى ، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات ، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له .

واجتمع جماعة من الفقراء فى موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان ، وأطفأوا السراج ، وجلسوا للأكل ، فلما رفع الطعام ، إذا هو بحاله ، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه .

فصل [فى حد البخل والسخاء]

وقد تكلم الناس فى حد البخل والسخاء ، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب ، وأن من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل ، وهذا غير كافٍ ، فإن من لم

يسلم إلى عياله إلا القدر الذى يفرضه الحاكم ، ثم يضايقهم فى زيادة لقمة أو تمرة فإنه معدود من البخلاء ، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب فى الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل .

فأما الواجب بالشرع ، فهو الزكاة ، ونفقة العيال .

وأما اللازم بطريق المروءة ، فهو ترك المضايقة ، والاستقصاء [1] عن المحقرات فإن ذلك يستقبح ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب ، فالبخيل الذى يمنع ما لا ينبغى أن يمنع ، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة . ومن قام بواجب الشرع ، ولازم المروءة ، فقد تبرأ من البخل لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك .

قال بعضهم : الجواد : هو الذى يعطى بلا منٍّ . وقيل : هو الذى يفرح بالإعطاء . فأما علاج البخل ، فاعلم أن سبب البخل حب المال .

ولحب المال سببان :

أحدهما : حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، وإن كان قصير الأمل وله ولد ، فإنه يقوم مقام طول الأمل .

الثانى : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ، ويفضل معه آلاف ، ويكون شيخاً لا ولد له ، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه ، ولا بصدقة تنفعه ، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه أو ضاع إن كان مدفوناً ، وهذا مرض لا يرجى علاجه .

ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً ، فلما جاء رسوله ، أحب الرسول ونسى محبوبه واشتغل بالرسول ، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات ، فيحب الدنانير لذاتها ، وينسى الحاجات ، وهذا غاية الضلال .

---

(١) الاستقصاء : القصو : البعد ، والأقصى : الأبعد ، يقال أقصاهم : أى أبعدهم ، إذن الاستقصاء هنا بمعنى البعد عن المحقرات .
انظر النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٧٤

واعلم : أن علاج كل علة بمضادة سببها .

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر ، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت .

ويعالج التفات القلب إلى الولد ، بأن من خلقه خلق معه رزقه ، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث .

فليحذر أن يترك لولده الخير ، ويقدم على الله بشر ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه ، وإن كان فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصى ، وليردد على سمعه ما ذكرناه فى ذم البخل ومدح السخاء .

واعلم : أنه إذا كثرت المحبوبات فى الدنيا ، كثرت المصائب بفقدها ، فمن عرف آفة المال لم يأنس به ، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته ، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل ، والله أعلم .

* * *

٦ - كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهرة الخفية » (١) . وهذه الشهرة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء فضلاً عن عامة العباد ، وإنما يبتلى بها العلماء والعُباد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات ، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات ، لم تطمع فى المعاصى الظاهرة ، الواقعة على الجوارح ، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل ، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة فى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم ، فأصابت النفس فى ذلك لذة عظيمة ، فاحتقرت فيها ترك المعاصى ، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عزَّ وجلَّ ، وقد أثبت فى ديوان المنافقين ، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون .

ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة ، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ، وأقسامه .

اعلم : أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار ، وذلك خطر عظيم والسلام فى الخمول . وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة ، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها ، فإن وقعت من قبل الله تعالى ، فَرُّوا عنها ، وكانوا يؤثرون الخمول ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه خرج من منزله ، فتبعه جماعة ، فالتفت إليهم وقال : علام تتبعونى ؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/١٤٠٦ (٤٢٠٤) ، (٤٢٠٥) عن أبى سعيد الخدرى : فى الزوائد : إسناده حسن ، وكثير بن زيد ، وربيع بن عبد الرحمن مختلف فيهما .

وعن شداد بن أوس ، وفى الزوائد : فى إسناده عامر بن عبد الله لم أر من تكلم فيه ، وباقى رجال الإسناد ثقات .

وفى لفظ آخر أنه قال : ارجعوا ، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

وكان أبو العالية رحمه الله إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام .

وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقته ، قام وانصرف كراهة الشهرة .

وقال الزهرى رحمه الله : ما رأينا الزهد فى شيء أقل منه فى الرياسة ، نرى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال ، فإذا نوزع الرياسة ، حامى عليها وعادى .

قال رجل لبشر الحافى رحمه الله : أوصنى ، فقال : أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك . وقال : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب فى الدنيا أن يعرفه الناس .

وقد روى فى « صحيح مسلم » أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو فى غنم له خارجاً عن المدينة ، فلما رآه قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال: يا أبت أنزلت فى إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم ؟ فضرب سعد فى صدره وقال : اسكت ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » [١] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ [٢] ، ذو حظ من الصلاة ، أحسنَ عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك » ثم نفر بيده ، فقال : « عُجِّلَتْ منيَّتُه ، قلَّت بواكيه ، قلَّ تراثه » [٣] حديث حسن .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يوصى أصحابه ، فيقول : كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت [٤] ، سرج الليل ، جدد القلوب [٥] ، خلقان الثياب ، تُعرفون فى السماء ، وتَخْفَوْنَ على أهل الأرض .

---

(١) أخرجه مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٧٧ (١١) .

(٢) خفيف الحاذ : أى قليل الظهر والغلبة والمال .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٩٦ (٢٣٤٧) وقال : هذا حديث حسن .

(٤) أحلاس : الفرش : والمعنى لا يبرحون الفرش أو البيوت .

(٥) جدد القلوب : أى لا يحملون فى قلوبهم غلاً ولا أى شئ يعكر صفو الإيمان .

فإن قيل : هذا فيه فضيلة الخمول ، وذم الشهرة ، وأى شهرة أكثر من شهرة الأنبياء ، وأئمة العلماء .

قلنا : المذموم طلب الإنسان الشهرة ، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم ، غير أن فى وجودها فتنة على الضعفاء ، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة فى السباحة ، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه ، فأما السابح النحرير ، فإن تعلق الغرقى به كان سبب لنجاتهم وخلاصهم .

فصل

فى أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا

واعلم : أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها ، وطاعتها والتصرف فيها .

فالجاه هو قيام المنزلة فى قلوب الناس ، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال فى هذا الشخص ، إما من علم أو عبادة ، أو نسب أو قوة ، أو حسن صوْرة ، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً ، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته ، وتوقيره .

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع ، وأنه أبلغ من حب المال ، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه ، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات ، فاشتراك الجاه والمال فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، والجاه فى ذلك أرجح من المال .

واعلم : أن من الجاه ما يحمد وما يذم ، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما ، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه ، ورفيق يعينه ، وخادم يخدمه ، فحبه ذلك ليس بمذموم ، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض ، كالمال .

والتحقيق فى هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما ، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح ، كقول يوسف عليه السلام : ﴿ **اجْعَلْنى عَلَى خَزائِنِ الأرْضِ إنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٥] أو قصد إخفاء

عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته ، كان ذلك مباحاً ، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه ، كالعلم ، والورع ، والنسب ، فذلك محظور .

وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع ، فإنه يكون مرائياً بذلك ، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ، ولا تملك المال بتلبيس .

بيان علاج حب الجاه

اعلم : أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهمِّ على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتردد إليهم ، والمرآة لهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق ، وأصل الفساد ، لأن كل من طلب المنزلة فى قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه ، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات ، والتوصل إلى اقتناص القلوب .

ولذلك شبَّه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا فى غنم [1] .

فحب الجاه إذاً من المهلكات ، يجب علاجه ، وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما الأول ، فهو أن يعلم أن السبب الذى لأجله أحب الجاه ، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم ، وذلك إذا صفا وسلم يكون فى آخره الموت ، فينغى أن يتفكر فى نفسه فى الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه فى الدنيا ، من تطرق الحسد إليهم ، وقصدهم بالإيذاء ، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم محترزين من تغيير منزلتهم فى القلوب .

والقلوب أشد تغيراً من القدر فى غليانها ، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة مكدرة ، لحفظ الجاه ، فلا يفى مرجو الدنيا بمخفوفها ، فضلاً عما يفوت فى الآخرة فهذا من حيث العلم .

---

(١) هذا معنى حديث أخرجه الترمذى فى الزهد ٥٠٨/٤ (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

والحديث سبق تخريجه .

وأما العلاج من حيث العمل ، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك ، كما روى أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد ، فلما قرب منه، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً ، وجعل يأكل بشره ، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه .

ولما أريد إبراهيم النخعى على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد فى السوق .

واعلم : أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم ، فإذا خاف من تلك الفتنة ، فليخالطهم على وجه السلامة ، وليمش فى الأسواق ، وليشتر حاجته ويحملها ، وليقطع طمعه من دنياهم ، وقد تم مراده .

وكان بشر الحافى يجلس إلى عطار ، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم .

فصل [فى عدم الاكتراث بذم الناس]

واعلم : أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات ، فوجبت معالجته .

وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التى مدحت بها ، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو : إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع ، أو مما لا يصلح أن يفرح به كالجاه والمال .

أما الأول ، فينبغى أن يحذر من الخاتمة ، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس .

وأما القسم الثانى ، وهو المدح بسبب الجاه والمال ، فالفرح بذلك ، كالفرح بنبات الأرض الذى يصير عن قريب هشيماً ، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله ، وإن كنت خالياً عن الصفة التى مدحت بها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون .

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم فى كتاب آفات اللسان ، فلا ينبغى أن تفرح به بل تكرهه ، كما كان السلف يكرهونه ، ويغضبون على فاعله .

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح ، فإنه ضده ، والقول الوجيز فيه أن

من ذِمك ، إما أن يكون صادقاً فيما قال ، قاصداً للنصح لك ، فينبغى أن تتقلد منته، ولا تغضب ، فإنه قد أهدى إليك عيوبك ، وإن لم يقصد بذلك النصح ، فإنه يكون قد جنى هو على دينه ، وانتفعت بقوله ، لأنه عرَّفك ما لم تكن تعرف وذكَّرك من خطاياك ما نسيت ، وإن افترى عليك بما أنت منه برىء ، فينبغى أن تتفكر فى ثلاثة أشياء :

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله ، فما ستر الله عزَّ وجلَّ عليك من عيوبك أكثر ، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه برىء .

الثانى : أن ذلك كفارات لذنوبك .

الثالث : أنه جنى على دينه ، وتعرض لغضب الله عليه ، فينبغى أن يسأل الله العفو عنه .

كما روى أن رجلاً شج [1] إبراهيم بن أدهم ، فدعا له بالمغفرة ، وقال: صرت مأجوراً بسببه ، فلا أجعله معاقباً بسببى .

وقد تقدمت هذه الحكاية فى فضل الحلم .

* * *

(١) شج : أى ضربه فشج رأسه ، والشج يكون فى الرأس والوجه ، وهو الذى يقشر الجلد ولا يدميه .

القسم الثانى من الكتاب

١ - فى بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه

وقد ورد ذم الرياء فى الكتاب والسنة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴾ [الماعون : ٤-٦] وقوله : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ [الكهف : ١١٠] وأما الأحاديث ، فقد روى عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ أنه قال: « من عمل عملاً أشرك فيه غيرى ، فهو للذى أشرك ، وأنا منه بريء » [١] .

وفى حديث آخر : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : يا رسول الله : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ، يقول الله عزَّ وجلَّ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا ، هل تجدون عندهم خيراً » [٢] .

وقال بشر الحافى : لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إليَّ من أطلبها بالدين .

واعلم : أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، فالمرائى يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام :

الأول : الرياء فى الدين ، وهو أنواع :

أحدها : أن يكون من جهة البدن ، بإظهار النحول والصفار ، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد ، وغلبة خوف الآخرة ، وكذلك يرائى بتشعث الشعر ، ليظهر أنه مستغرق فى هم الدين ، لا يتفرغ لتسريح شعره .

ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إذا صام

---

(١) أخرجه مسلم فى الزهد ٤/٢٢٨٩ (٤٦) . وابن ماجه برقم ٤٢٠٢ ، وأحمد ٢/٣٠١ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند : ٥/٤٢٨ ، ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد .

أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره . وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين .

وأما أهل الدنيا ، فيراؤون بإظهار السمن [١] ، وصفاء اللون ، واعتدال القامة وحسن الوجه ، ونظافة البدن .

النوع الثانى : الرياء من جهة الزى ، كالإطراق [٢] حالة المشى ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشمير الثياب كثيراً وتقصير الأكمام ، وترك الثوب مخرقاً غير نظيف .

ومن ذلك لبس المرقعة ، والثياب الزرق ، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم فى الباطن .

ومنه التقنع فوق العمامة ، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة .

وهؤلاء طبقات ، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح ، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة ، ليرائى بذلك ، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه ، لكان عنده بمنزلة الذبح ، لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له من الزهد ، وقد رجع عن تلك الطريقة .

وطبقة أخرى : يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار ، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح ، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فيطلبون الأثواب الرقيقة ، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنى ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين .

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفاً من السقوط فى أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك

---

(١) السمن : بكسر السين ، وفتح الميم ، وهو ضخامة الجسم .

(٢) الإطراق : تنكيس الرأس ، والمراد به هنا إظهار الخشوع .

لعظم ذلك عليهم ، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح ، وكل مراءٍ بزى مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الحسنة ، وأنواع التجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت ، وهم فى بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة .

النوع الثالث : الرياء بالقول ، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل المحاورة ، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف ، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس ، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى الكلام ونحو ذلك .

النوع الرابع : الرياء بالعمل ، كمراءاة المصلى بطول القيام ، وتطويل الركوع والسجود ، وإظهار الخشوع ، ونحو ذلك .

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم ، بالتبختر ، والإختيال ، وتحريك اليدين ، وتقريب الخطى ، والأخذ بأطراف الذيل ، وإمالة العطفين ، ليدلوا بذلك على الحشمة .

النوع الخامس : المراءاة بالأصحاب والزائرين ، كالذى يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً ، ليقال : إن فلاناً قد زار فلاناً ، وإن أهل الدين يترددون إليه ، ويتبركون به وكذلك من يرائى بكثرة الشيوخ ، ليقال : لقى شيوخاً كثيرة ، واستفاد منهم فيباهى بذلك ، فهذه مجامع ما يرائى به المراؤون ، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد .

ومنهم من يطلب مجرد الجاه ، وكم من عابد اعتزل فى جبل ، وراهب انزوى إلى دير ، مع قطع طمعهم من مال الناس ، لكنه يحب مجرد الجاه .

ومنهم من يكون قصده المال ، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت .

فإن قيل : هل الرياء حرام ، أم مكروه ، أم مباح ؟

فالجواب : أنه فيه تفصيلاً ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، أو بغيرها ، فإن كان الرياء بالعبادات ، فهو حرام ، فإن المرائى بصلاته وصدقته وحجته ، ونحو ذلك عاص آثم ، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده ، فالمرائى بذلك فى سخط الله .

وأما إن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال على ما تقدم ، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكذلك الجاه ، هو الذى طلبه يوسف عليه السلام فى قوله : ﴿ **إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر ، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا فى المال .

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال ، فلا ضرر فيه ، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وعلماء الدين بعده ، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم .

وتحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس ، إنما هو ليراه الناس وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال : إنه منهى عنه .

وقد تختلف المقاصد بذلك ، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص فى حال .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنة ، ونعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر [١] الحق وغمط [٢] الناس » [٣] .

---

(١) بطر الحق : دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً .

(٢) غمط الناس : احتقارهم يقال فى الفعل منه غمطه ، يغمطه .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان ١/ ٩٣ (١٤٧) .

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه ، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك .

فصل [فى أن أبواب الرياء بعضها أشد من بعض]

واعلم : أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض ، لأنه درجات .

أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً ، كالذى يصلى بين الناس، ولو انفرد لم يصل .

الدرجة الثانية : أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله ، فهو قريب من القسم الأول فى كونهما ممقوتين [1] عند الله تعالى .

الثالثة : أن يكون قصد الرياء ، وقصد الثواب متساويين ، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ، ولا يسلم من الإثم .

الرابعة : أن يكون إطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة ، فهذا يثاب على قصده الصحيح ، ويعاقب على قصده الفاسد ، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها ، كالذى يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود ، ولا يطيل القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأنه يتضمن تعظيم الخلق ، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات .

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلى [2] وخفى [3]

فالجلى : هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه .

وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرده ، لكن يخفف العمل الذى أريد به وجه الله تعالى ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه . وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا فى التسهيل ، لكنه

---

(١) ممقوتين : المقت : البغض الشديد .

(٢) الرياء الجلى : أى الظاهر الواضح .

(٣) الرياء الخفى : المستتر ويكون من أعمال القلوب كالحقد والشح والحسد ، والأنانية ، والبغض . . . الخ .

مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومتى لم يؤثر الدعاء فى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته ، فرب عبد مخلص يخلص العمل ، ولا يقصد الرياء بل يكرهه ، ويتم العمل على ذلك ، لكن إذا اطلع عليه سره ذلك وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، فهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فيعلم أن الرياء كان مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر فأظهر منه إطلاع الناس أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالإطلاع لم يقابل ذلك بكراهة ، بل قد يتحرك حركة خفيفة ، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح .

وقد يخفى ، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً ، ولكن بالشمائل كإظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد .

وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الإطلاع عليه ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا فى قضاء حوائجه ، ويسامحوه فى المعاملة ، ويوسعوا له المكان ، فإن قصر فى ذلك مقصر ثقل ذلك على قلبه ، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التى أخفاها .

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق ، لم يكن خالياً عن شوب خفى من الرياء ، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصدّيقون .

وقد روينا عن وهب بن منبه ، أن رجلاً من العبَّاد قال لأصحابه : إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن كان له حاجة أحبَّ أن تقضى لمكان دينه ، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكبه ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ، فقال العابد : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك ، فقال

لصاحبه: ائتنى بطعام . فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ فقالوا : هذا ، فقال : كيف أنت؟ قال : كالناس ، فقال الملك : ما عند هذا خير ، وانصرف عنه ، فقال : الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى فى القيامة بإخلاصهم .

وشوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع ، ففيه شعبة من الرياء ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل ، بل فيه تفصيل .

فإن قيل : فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فهل جميع ذلك مذموم ؟

فالجواب : أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم .

فالمحمود : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به ، حيث كان يستر الطاعة والمعصية ، فأظهر الله وسبحانه عليه الطاعة ، وستر عليه المعصية ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح ، وإظهار الجميل فيكون فرحه بذلك ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم ، أو يستدل بإظهار الله الجميل ، وستر القبيح عليه فى الدنيا ، أنه كذلك يفعل به فى الآخرة ، فإنه قد جاء معنى ذلك فى الحديث .

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم ، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه ، فهذا مكروه مذموم .

فإن قيل : فما وجه حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول

الله ، الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه ، أعجبه ، فقال : « له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » [1] .

فالجواب : أن هذا الحديث ضعيف ، وقد رواه الترمذى ، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه : أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ، لقوله عليه السلام : « أنتم شهداء الله فى الأرض » [2] .

وقد روى فى أفراد مسلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » [3] .

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه ، فهذا رياء .

فصل [فى بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط]

إذا ورد على العبد وارد الرياء ، فلا يخلو :

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله ، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه ، فهذا لا يحبط العمل ، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده ، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره ، فهذا مخوف ، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء ، فإن سلم من الرياء نقص أجره ، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة .

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة ، كالصلاة التى عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور ، لم يؤثر فى العمل ، وإن كان رياء باعثاً على العمل ، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه ، فهذا يحبط الأجر .

وأما ما يقارن العبادة ، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذى ينبغى له أن يبتدئها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٥١٢ - ٥١٣ (٢٣٨٤) وقال هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز ١/ ٤٧٨ (١٤٩١ ، ١٤٩٢) عن أنس وأبى هريرة بلفظ : والمؤمنين شهود الله فى الأرض ، إنكم شهداء الله فى الأرض . وهو حديث صحيح أصله فى الصحيحين .

(٣) أخرجه مسلم فى البر والصلة ٤/ ٢٠٣٤ (١٦٦) عن أبى ذر .

باب في دواء الرياء
وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات ومن هذا حاله ، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته .

وفي معالجته مقامان :

أحدهما : في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه .

والثاني : في دفع ما يخطر منه في الحال .

المقام الأول : اعلم أن أصل الرياء الجاه والمنزلة ، وإذا فصل ، رجع إلى ثلاثة أصول .

وهي حب لذة الحمد ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما في أيدي الناس .

ويشهد لذلك ما في « الصحيحين » من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » [1] .

فمعنى قوله : « يقاتل شجاعة » أى : ليذكر ويحمد ، ومعنى قوله : « يقاتل حمية » أي : يأنف أن يقهر أو يذم ، ومعنى : « يقاتل رياء » أي : ليرى مكانه وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب .

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد ، ولكنه يحذر من الذم ، كالجبان بين الشجعان فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم ، وقد يفتي الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء .

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع ، إما في الحال أو المآل ، فإن علم أنه لذيذ في الحال ضارٌ في المآل ، سهل عليه اجتنابه

---

(١) أخرجه البخارى في العلم ١/٢٦٨ (١٢٣) ومسلم فى الإمارة ٣/١٥١٣ (١٥٠) .
والحمية : هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن عشيرته .

وقطع عنه الرغبة ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان أن فيه سماً أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرَّة ، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه ، ومن المنزلة في الآخرة ، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنَّ رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ومن طلب رضاهم في سخط الله ، سخط الله عليه وأسخطهم عليه، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم ؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته ، وكذلك ذمهم لِمَ يحذر منه ؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، فإن العباد كلهم عجزة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فإذا قرر هذا في نفسه فترت رغبته في الرياء ، وأقبل على الله تعالى بقلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه .

وأما الطمع فيما في أيدي الناس ، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأنه لا رازق سواه ، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد ، لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد .

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف ، سقط عنه ثقله ، وأمده الله بالعون ، فعلى العبد المجاهدة ، ومن الله التوفيق .

المقام الثاني : في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة ، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس ، واحتقار مدحهم وذمهم ، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته وإطلاعهم عليها ، دفع ذلك بأن يقول : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ، فأي فائدة في علم غيره ؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد ، ذكَّرها آفات الرياء والتعرض للمقت ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت ، فإن معرفة إطلاع الناس تثير شهوة ، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة .

فصل
في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول ، فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي إظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس في الخير .

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد .

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه ، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي ، بل ينوي الاقتداء به ، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك ، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم وأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك معهم .

فأما من قوي وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، فلا بأس بالإظهار له ، لأن الترغيب في الخير خير .

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم ، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر : لا تبكوا عليَّ ، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت .

وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله لابنه : إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة .

ونحو ذلك كثير من كلامهم ، والله أعلم .

وأما الرخصة في كتمان الذنوب ، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء ، وليس كذلك فإن الصادق] الذي لا يرائي إذا وقعت منه معصية ، كان له سترها ، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله عزّ وجلّ » [1] .

فهذا وإن عصى بالذنب ، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عزّ وجلّ ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان .

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، فهذا أثر الصدق فيه .

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له ، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم ، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر ، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان .

فصل [في ترك الطاعات خوفاً من الرياء]

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين فهذا ينبغي أن يترك ، لأنه معصية لا طاعة فيه .

وإن كان الباعث على ذلك الدين ، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً ، فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأن الباعث الدين .

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مراءٍ فلا ينبغي ذلك ، لأنه من مكائد الشيطان .

قال إبراهيم النخعي : إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال : إنك مراءٍ فزدها طولاً .

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء . كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال : لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة ، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا .

---

(١) جزء من حديث ابن عمر مرفوعاً ، أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٣ وصححه ووافقه الحافظ الذهبي في التلخيص .

فصل [في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح]

قد يبيت الرجل مع المتهجدين ، فيصلون أكثر الليل ، وعادته قيام ساعة فيوافقهم أو يصومون فيصوم ، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط .

فربما ظن ظان أن هذا رياء ، وليس كذلك على الإطلاق ، بل فيه تفصيل ، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ، ولكن تعوقه العوائق ، وتستهويه الغفلة فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق ، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته ، فإذا بات في مكان غريب اندفعت هذه الشواغل ، وحصلت له أسباب تبعث على الخير ، منها مشاهدة العابدين .

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم ، بخلاف غيره ، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول : إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً ، فلا ينبغي أن يلتفت إليه ، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن ، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان .

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه ، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله ، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء ، وقس على هذا .

فهذه جملة آفات الرياء ، فكن بحاثاً عنها ، وتفقد نيتك ، فإن الرياء أخفى من دبيب النمل .

وينبغي للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته .

وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ، ولا ينبغي أن يؤيس [١] نفسه من الإخلاص بأن يقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، وأنا من المخلطين [٢] فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج .

---

(١) يؤيس : من اليأس ، وهو انقطاع الأمل والرجاء .

(٢) أي : لم أخلط بين الإخلاص والرياء ، أو العمل الصالح والعمل السيئ .

قال إبراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان ، دخلت على صومعته فقلت له : منذ كم أنت في صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت: ما طعامك ؟ قال : كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الذين بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك ، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ، ذكرتها عزَّ تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد ، فوقَّر في قلبي المعرفة ، فقال : أزيدك ؟ قلت : نعم قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى إليَّ ركوة فيها عشرين حمصة ، ثم قال لي: ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى فقالوا : يا حنيفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : شيئاً من قوته . قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به . ساوم به . قلت : عشرون ديناراً ، فأعطوني عشرين ديناراً ، فرجعت إلى الراهب ، فقال : أخطأت ، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده ، يا حنيفي أقبل على عبادة ربك .

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عزَّ العظمة في القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره ، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله، والله تعالى أعلم .

❋ ❋ ❋

٢ - كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان :

الفصل الأول في الكبر :

قال الله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] وقال : ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** ﴾ [النحل : ٢٣] .

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » (١) .

وفي « الصحيحين » عنه ﷺ قال : « قالت النار : أوثرت بالمتكبرين » (٢) .

وعنه ﷺ أنه قال : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله عزّ وجلّ » (٣) .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : من كانت معصيته في شهوة ، فَارْجُ له التوبة فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له ، فإذا كانت معصيته من كبر ، فأخشى عليه اللعنة ، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعِنَ .

وفي « الصحيحين » : أن رسول الله ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إنَّ أحدَ شِقَّي أزاري ليسترخي ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لست ممن يصنعه خيلاء » (٤) .

واعلم : أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته ، فيظهر على الجوارح وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه ، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١/ ٩٣ (١٤٧) عن ابن مسعود .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٦٥ (٢٤٩٢) . وقال : حسن صحيح .

(٤) متفق عليه .

وبهذا ينفصل عن العجب ، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب ، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه ، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام حقر من دونه وازدراه ، وصفة هذا المتكبر ، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً .

وآفة الكبر عظيمة ، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته ، وقد أخبر النبي ﷺ : أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر (١) .

وإنما صار حجاباً دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين ، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، فلا يقدر على التواضع ، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ، واغتيابهم ، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه .

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له .

وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً** ﴾ [النمل : ١٤] ﴿ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا** ﴾ [المؤمنون : ٤٧] ﴿ **إِنْ أَنْتُم إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا** ﴾ [إبراهيم : ١٠] وآيات نحو هذا ، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله .

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم ، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى ، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود .

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال : « الكبر : بطر الحق وغمط الناس » (٢) .

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة من حديث مسلم .

(٢) سبق تخريجه من حديث ابن مسعود عند مسلم في الصحيح .

ومعنى غمط الناس : الازدراء بهم ، واستحقارهم . ويروى : غمص الناس بمعنى غمط الناس .

فصل
في تقسيم آفات الكبر

واعلم : أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ،. فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة ، إلا أنه قد قطع أغصانها .

الثانية : أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر في حقه ، فترى العالم يصعر [1] خده للناس ، كأنه معرض عنهم ، والعابد ، يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم ، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ حين قال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

الدرجة الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه ، كالدعاوي والمفاخر ، وتزكية النفس وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التكبر بالنسب ، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً .

قال ابن عباس : يقول الرجل للرجل : أنا أكرم منك ، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وكذلك التكبر بالمال ، والجمال ، والقوة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك ، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم .

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء ، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب .

---

(١) صعر خده تصعيراً وصاعره : أى أماله من الكبر ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ سورة لقمان الآية ١٨ .

وأما التكبر بالاتباع والأنصار ، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين .

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً ، فإن لم يكن في نفسه كمالاً ، أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور ، لظنه أن ذلك كمال .

واعلم : أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان ، كصَعَرِ وجهه ، ونَظَرِه شزراً [1] وإطراق رأسه ، وجلوسه متربعاً ومتكئاً ، وفي أقواله ، حتى في صوته ونغمته وصيغة إيراده الكلام ، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره ، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته .

ومن خصال المتكبر : أن يحب قيام الناس له .

والقيام على ضربين :

قيام على رأسه وهو قاعد ، فهذا منهي عنه ، قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » [2] . وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين .

الثاني : قيام عند مجيء الإنسان ، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك .

قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك .

وقد قال العلماء : يستحب القيام للوالدين والإمام العادل ، وفضلاء الناس ، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل ، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه ، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته ، والتقصير في حقه ، فيوجب ذلك حقداً .

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك ، ويرى أنه ليس بأهل لذلك .

ومن خصال المتكبر : أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه .

---

(١) شزراً : بمعنى النظر بشئ من الاعراض .

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب ٥/ ٨٤ (٢٧٥٥) وقال : هذا حديث حسن وأبو داود برقم ٥٢٢٩ .

ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس .

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه .

وقد روى أنس رضي الله عنه قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فتنطلق به في حاجتها .

وقال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي روَّاد ، وإن فخذي لتمس فخذه فنحيت نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال : لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني ؟!

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته ، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ .

ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته ، وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئاً وحمله . وكان أبو بكر رضي الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها . واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته . واشترى علي رضي الله عنه تمراً فحمله في ملحفة ، فقال له قائل : أحمل عنك؟ قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب ، وهو يومئذ خليفة مروان ، فقال لرجل : أوسع الطريق للأمير .

ومن أراد أن ينفي الكبر ، ويستعمل التواضع ، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ ، وقد سبقت الإشار إليها في كتاب « آداب المعيشة » .

* * *

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم : أن الكبر من المهلكات ، ومداواته فرض عين ، ولك في معالجته مقامان :

الأول : في استئصال [1] أصله وقطع شجرته ، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه ، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل كل ذليل ، ويكفيه أن

---

(١) الاستئصال : هو قطع الشئ من أصله ، أو قلعه من أصله .

ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب ، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فقد صار شيئاً مذكوراً ، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس ولا يتحرك ، فقد ابتدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته وبفقره قبل غناه .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله : ﴿ من أيِّ شَيء خَلَقَهُ * من نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : ١٨- ١٩] ثم امتن عليه بقوله : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس : ٢٠] ، وبقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الدهر : ٢] فأحياه بعد الموت ، وأحسن تصويره ، وأخرجه إلى الدنيا ، فأشبعه وأرواه ، وكساه وهداه وقوّاه .

فمن هذا بدايته ، فأي وجه لكبره وفخره ؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق ، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة ، والأمراض الهائلة ، بينما بنيانه قد تم ، إذ هو قد وهى وتهدم لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بينما هو يذكر الشيء فينساه ، ويستلذ الشيء فيرديه [1] ، ويروم الشئ [2] فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة [3] .

هذا أوسط حاله ، وذاك أول أمره ، وأما آخر أمره ، فالموت الذي يعده جماداً كما كان ، ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنة ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ويأكل الدود أجزاؤه ويعود تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة ، ويحضر عرضه القيامة ، فيرى أرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة وسماءً منشقة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً مكورة ، وأحوالاً مظلمة ، وجحيماً تزفر وصحائف تنشر ، ويقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : ١٤]. فيقول : وما كتابي ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل ، من قليل وكثير ، وقيام وقعود وأكل وشرب ، وقد نسيت ذلك ، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه وأعد جواباً له ، وإلا فانت تساق إلى النار ، فما لمن هذه

(١) يرديه : بمعنى أهلكه .

(٢) يروم الشئ : إذا أراده وطلبه .

(٣) بغتة : أى فجأة .

حاله التكبر ؟ فإن صار إلى النار ، فالبهائم أحسن حالاً منه ، لأنها تعود إلى التراب ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه ، كيف يتكبر ؟! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة ، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط ، فحبس في السجن ليخرج فيعاقب ، وهو منتظر أن يدعى به لذلك ، أفتراه يتكبر على أهل السجن ؟ وهل الدنيا إلا سجن ، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب ؟

وأما معرفة ربه ، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته ، فتلوح له العظمة ، وتظهر له المعرفة ، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر .

ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده ، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ ، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة .

المقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ، ثم يعلم أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة وأباه البعيد تراب ، ومن اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم ، ومن اعتراه من جهة القوة ، فليعلم أنه لو آلمه عرق عاد أعجز من كل عاجز ، وإن حُمَّى يوم تحلل من قوَّته ما لا يعود في مدة ، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، وبقة لو دخلت في أذنه لأقلقته .

ومن تكبر بسبب الغنى ، فإذا تأمل خلقاً من اليهود ، وجدهم أغنى منه ، فأفٍّ لشرف تسبق به اليهود ، ويستلبه السارق في لحظة ، فيعود صاحبه ذليلاً .

ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره .

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله سبحانه ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده . وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع .

واعلم : أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط :

فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبراً .

وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة .

والوسط يسمى تواضعاً ، وهو المحمود ، وهو أن يتواضع من غير مذلة ، فخير الأمور أوساطها ، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر ، ومن تأخر عنهم ، فهو متواضع لأنه قد وضع شيئاً من قدره ، فأما إذا أدخل على العالم إسكافي أو نحوه ، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب ، فقد تخاسس وتذلل فذلك غير محمود ، بل المحمود العدل ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام ، وإجابة الدعوة ، والسعي في الحاجة ، ولا يحقره ، ولا يستصغره ، والله أعلم .

الفصل الثاني في العجب :

روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[1] .

وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[2] .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الهلاك في شيئين : العجب والقنوط . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير ، والقانط لا يطلب ، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى .

فال مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

واعلم : أن العجب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وهذا مع الخلق .

---

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء ٦/ ٥٩٥ (٣٤٨٥) . ومسلم فى اللباس ٣/ ١٦٥٣ (٤٩) .

ويتجلجل : أى يغوص فى الأرض حين يخسف به .

(٢) سبق تخريجه من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف .

فأما مع الخالق ، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها ، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها .

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها .

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً ، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به ، والإدلال يوجب توقع الجزاء ، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

فصل [في علاج العجب]

اعلم : أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك ، فلا معنى لعجب عامل بعمله ، ولا عالم بعلمه ، ولا جميل بجماله ، ولا غني بغناه ، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى ، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه ، وكونه محلاً له نعمة أخرى .

فإن قلت : إن العمل حصل بقدرتك ، ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك ، وكل ذلك من الله تعالى لا منك ، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه ، وهذا المفتاح بيد الله تعالى ، وما لم تُعْطَ المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطى مفتاحها .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » [1] .

واعلم : أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر ، وقد سبق ذكرها وعلاجها .

ومن ذلك العجب بالنسب ، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه ، وعلاجه

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أن يعلم أنه متى خالف آباءه ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل ، وإن اقتدى بهم فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم ، بل الخوف والإزراء على النفس .

وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة ، لا بنفس النسب . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال النبي ﷺ : « يا فاطمة ، لا أغني عنك من الله شيئاً » (١) .

فإن قلت : إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته .

فالجواب : أن كل المسلمين يرجون الشفاعة ، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار ، وقد يقوى الذنب فلا تنجي الشفاعة .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك » (٢) .

ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة ، كمثل المريض المنهمك في الشهوات ، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق ، وذلك جهل ، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها .

ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة ، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم ؟!

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** ﴾ [فاطر : ٨] . وعلاج هذا أشد من علاج غيره ، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يُصغ إلى نصح ناصح ، وكيف يترك ما يعتقده نجاة ؟! وإنما في الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً ، لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب

---

(١) سبق تخريجه عند البخاري في الوصايا ، والنسائي في الوصايا والدارمي في الرقاق ، وأحمد في المسند: ٢٠٦/١

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقوله : لا ألفين : أى لا أجد ولا ألقى .
والرغاء : هو صوت الإبل .

أو سنة أو دليل علي جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة .

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب ، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل ، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له ، ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ ، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير ، ويصرف زمنه في التقوى ، وأداء الطاعات ، فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته ، هلك .

* * *

٣ - كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا ، فقال : النقد خير من النسيئة [١] ، والدنيا نقد والآخرة نسيئة ، وهذا محل التلبيس ، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة ، إلا إذا كان مثل النسيئة ، ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس ، وإنما أراد من قال : النقد خير من النسيئة ، إذا كانت النسيئة مثل النقد ، وهذا غرور الكفار .

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم ، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار ، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد .

ومن العصاة من يغتر ، فيقول : إن الله كريم ، وإنما نتكل على عفوه ، وربما اغتروا بصلاح آبائهم .

وقد قال العلماء : من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا الغفران مع الإصرار ، فهو مغرور .

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب ، وقد قضى بتخليد الكفار في النار ، مع أنه لا يضره كفرهم ، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا ، وهو سبحانه قادر على إزالتها ، ثم خوفنا من عقابه ، فكيف لا نخاف ؟!

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل ، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة ، وإيثار المعاصي .

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا ، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا ، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون .

ولو كان هذا : الأمر يدرك بالمنى [٢] ، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم ؟! وهل ذم

---

(١) النسيئة : بمعنى التأخير ، والمعنى هنا أن الدفع النقدى خير من الآجل .

(٢) المنى : بمعنى الأمانى أو التمنى .

أهل الكتاب بقوله : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف : ١٦٩] ، إلا لمثل هذا الحال ؟!

وأما من اغتر بصلاح آبائه ، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام ، مع ابنه ، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ومحمد مع أمه ﷺ وعلى سائر النبيين .

ويقرب من هذا الغرور ، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصٍ ، إلا أن معاصيهم أكثر وهم يظنون أن حسناتهم ترجح ، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك ، ولعل الذي تصدق به من المغضوب ، ويتكل على تلك الصدقة ، وما هو إلا كمن وضع درهماً في كفة وألفاً في أخرى ، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف .

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته ، ولا يتفقد ذنوبه ، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين ، ويتكلم بما لا يُرضي فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار ، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه .

فصل [الاغترار واقع بالعلماء والعبَّاد]

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف :

العلماء ، والعبَّاد ، والمتصوفة ، والأغنياء .

الصنف الأول : العلماء :

فأما أهل العلم ، فالمغترون منهم فرق :

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم من الله بمكان ، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة ، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل ، ولولا العمل لم يكن له قدر . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاها ﴾ [الشمس : ٩] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها ، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم فليذكر ما ورد في العالم الفاجر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف : ١٧٦]، و ﴿ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : ٥] .

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب العلو ، وطلب الشهرة فهؤلاء زينوا ظاهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [١] .

فتعاهدوا الأعمال ، ولم يتعاهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً ، فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بقلعه فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله ، فلم تزل أصوله تقوى .

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة ، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم ، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة قال : أحدهم : ما هذا بكبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم وإرغام المبتدعين ، فإني لو لبست الدون من الثياب ، وجلست في الدون من المجالس، شمتت بي أعداء الدين ، وفرحوا بذلِّي ، وفي ذلي ذل الإسلام ، وينسى الغرور ، وأن إبليس هو الذي سول له هذا بدليل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه وأمسكهما ، وخاض الماء ، ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصك في صدره وقال : أوَّهْ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة . إنكم كنتم أذل وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله [٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٤/ ١٩٨٧ (٣٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٨٢ وإسناده صحيح .

وفي رواية عنه : لما قدم الشام ، استقبله الناس وهو على بعيره ، فقيل له : لو ركبت برذوناً [1] تلقى به عظماء الناس وجوههم ؟ فقال عمر رضي الله عنه : لا أراكم ها هنا ، إنما الأمر من ها هنا – وأشار بيده إلى السماء – خلوا سبيل جملي .

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة ، والخيول الفارهة ونحو ذلك . وإذا خطر له خاطر الرياء قال : إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلى الدين ، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان وكذلك من يدخل منهم على سلطان ، ويتودد إليه ، ويثني عليه ، ويتواضع له ويقول : إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر ، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك .

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول : هذا مال لا مالك له ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام من أئمتهم ، فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه ، وربما كان دجَّالاً من الدَّجالين من جهة قوله : هذا مال لا مالك له. وغاية الأمر وقف الاختلاط في الأموال ، وذلك لا يمنع كونها حراماً ، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال .

وفرقة أخرى أحكموا العلم ، وطهروا جوارحهم وزيَّنوها بالطاعات ، وتفقدوا قلوبهم ، بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك ، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها ، فترى أحدهم يُسْهِرُ ليله ويُنْصِب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها ، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى ، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت ، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه ، إما صريحاً بالدعاوي الطويلة العريضة ، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير ، وأعظم منه علماً . فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا

(١) البرذون : الدابة أو البغل المزين للركوب .

يفطن لها الأكياس الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويحرص على صلاحها .

ومن سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مرجو أمره ، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه خيار الخلق ، فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم .

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات . وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش ، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل ، والمشي إلى ما لا يجوز ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات ، فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم .

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام [(١)] وهو مشرف على الهلاك ، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك ، وذلك غاية الغرور .

وسبب غرورة ما سمع في النقل من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ** ﴾ الآية [التوبة : ١٢٢] . والذي يحصل له الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال ، ودفع القتل والجراحات .

والمال في طريق الله تعالى آلة ، والبدن مركب .

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة ، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى .

---

(١) البرسام : مرض يصيب الصدر .

ومثال من اقتصر على ذلك ، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز [1] الرواية والخف ، ولا شك أنه لا بد من ذلك : ولكن ليس من الحج في شيء .

ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف ، ولم يهمه إلا طريق المجادلة ، والإلزام والإفحام ، ودفع الحق لأجل الغلبة ، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم ، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف .

وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وأما حيل الجدل ، من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب ، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام .

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء ، والرد على المخالفين.

ثم هؤلاء طائفتان : ضالة ، ومحقة ، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة ،والمحقة التي تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم .

أما الضالة ، فاغترارها ظاهر ، وأما المحقة فاغترارها من حيث أنها ظنت أن الجدال أهم الأمور ، وأفضل القربات في دين الله تعالى ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل ، فليس بكامل الإيمان فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات ، وعميت بصائرهم ، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول ، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى ، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات ، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال ، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة جدل .

وقد روي في الحديث : « ما ضل قوم بعد هُدى إلا أوتوا الجدل » [2] .

---

(١) الخرز : بمعنى النظم يقال : خرز الشئ إذا نظمه .

الرواية : أى الدواب ، الجمل أو البغل أو الحمار .

والمعنى : أن الحاج يشتغل بهذه الأشياء وينصرف عن مناسك الحج .

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٣٥٣ (٣٢٥٣) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في المقدمة ١/ ١٩ (٤٨) وأحمد في المسند : ٥/ ٢٥٢ ، ٢٥٦

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها ، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه ، فهم أعظم الناس غرة .

ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب .

ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن يكثر الصياح فى مجالسهم والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس .

ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث ، وجمع رواياته ، وأسانيده الغريبة والعالية ، فهمُّ أحدهم أن يدور البلاد ، ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروي عن فلان ، ولقيت فلاناً ، ولي من الإسناد ما ليس لغيري .

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر ، وزعموا أنهم علماء الأمة وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة ، ولو عقلوا لعلموا أن مضيِّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيِّع عمره في معرفة لغة الترك ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم الغريبين : غريب القرآن ، والحديث ، ومن النحو ما يقوّم به اللسان .

فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى ، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم .

ومثال التعمق في ذلك ، مثال من ضيَّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن ، مقتصراً على ذلك ، وذلك غرور ، لأن المقصود من الحروف المعاني ، وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين [1] لإزالة الصفراء فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه ، فهو مغرور ، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير ، وتجاوز إلى العمل ، واجتهد فيه وفي تصفيته من الشوائب ، فهذا هو المقصود .

وفرقة أخرى عظم غرورهم ، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق ، وظنوا أن ذلك

---

(١) السكنجبين : نوع من الأعشاب الطبية ، يعالج به مرض الصفراء الذي يصيب الكبد .

ينفعهم ، بل ذلك غرور ، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى .

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول لزوجته ، واتهابه [(١)] مالها لإسقاط الزكاة ، ونحو ذلك من أنواع الحيل .

الصنف الثاني : أرباب التعبد والعمل ، وهم فرق :

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل ، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء ، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً ، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس ، ولا يقدر ذلك في مطعمه ، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم ، لكان أشبه بسير السلف ، فإن عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام .

وقد صح أن النبي ﷺ توضأ من مزادة مشركة [(٢)] .

ثم منهم من يخرج إلى الإسراف في الماء ، ويطول به الأمر ، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها .

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة ، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام .

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ، ونحو ذلك بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه ، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة في الكلام .

---

(١) اتهابه مالها : أى طلب منها هبة مالها له .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في التيمم ١/٥٥٣ - ٥٣٤ (٣٤٤) من حديث عمران بن حصين وأحمد في المسند : ٤/٤٣٥

والمزادة : الوعاء .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان ، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكراره ، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بالطرد والتأديب .

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن ، فهم يهذُّونه [1] هذّاً ، وربما ختموا في اليوم مرتين ، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني ، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه ، ولا يقف عند أوامره ونواهيه ، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط .

ومثال ذلك ، مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ، بل اقتصر على حفظه وتكراره ، ظاناً أن ذلك هو المراد منه مع مخالفته أمر مولاه ونهيه .

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن ، معرضاً عن معانيه ، فينبغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم ، أو بالصوت ، أو بالمعاني .

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه ، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول ، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار ، ولا خواطرهم عن الرياء .

ومنهم من اغتر بالحج ، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم ، وقضاء الديون واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ولا يحترزون من الرفث والخصام ، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون .

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونسوا أنفسهم .

ومنهم من يؤم في مسجد ، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم ، ثقل عليه .

ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله ، ولو أذن غيره في غيبته ، اشتد عليه ذلك وقال : قد زاحمني في مرتبتي .

---

(١) الهذ : سرعة القراءة .

ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده ، وقول الناس : فلان مجاور بمكة أو بالمدينة ، ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس [(١)] ، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات . وما من عمل إلا وفيه آفات ، فمن لم يعرفها وقع فيها ، ومن أراد أن يعرفها ، فلينظر في كتابنا هذا ، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقة أخرى زهدت في المال ، وقنعت بالدون من اللباس والطعام ، وقنعت من المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهم مع هذا شديدو الرغبة في الرياسة والجاه ، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين .

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ، ولم تعتن بالفرائض ، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ، ولا يجد للفريضة لذة ، ولا يحرص على المبادرة إليها في أول الوقت ، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ : « ما تقرب المتقربون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم » [(٢)] .

الصنف الثالث : المتصوفة :

والمغرووون منهم فرق :

فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة ، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض ، وهؤلاء غرورهم ظاهر .

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض ، فاشتاقت نفسها إلى ذلك

---

(١) أوساخ الناس : هنا بمعنى صداقات الناس ، وسميت بذلك لأنها تطهر الأموال والأنفس ، وقد ورد هذا التعبير في حديث صحيح أخرجه مسلم في الزكاة ٢/ ٧٥٢ - ٧٥٣ (١٦٧) وأبو داود والنسائي ومالك وأحمد في المسند ٣/ ٤٠٢ ، ٤/ ١٦٦

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٣٤٨ (٦٥٠٢) .

فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رَجَزِ الأبطال أبياتاً ، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم ، ثم توجهت إلى العسكر ، فكتب إسمها في ديوان الشجعان فلما حضرت في ديوان العرض ، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة ، فلما جردت [١] إذا هي عجوز ضعيفة زمنة [٢] ، فقيل لها : جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته ، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل فألقيت إليه .

فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزي .

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال والوصول إلى القرب ، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء ، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء ، فضلاً عن العوام ، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحي ، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد ، ويقول : إنهم محجوبون عن الله وإنه هو الواصل إلى الحق ، وإنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يُحْكِمْ علماً ولم يُهَذِّبْ خلقاً ، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان .

وفرقة منهم طووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام وبعضهم يقول : إن الله مستغن عن عملي فلمَ أتعب نفسي ؟

وبعضهم يقول : لا قدر للأعمال بالجوارح ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى ، وواصلة إلى معرفته ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها ، ويرفعون

---

(١) جردت : أي خلع عنها المغفر والدرع .

(٢) زمنة : مريضة مرضاً يدوم زمناً طويلاً ، والمراد هنا أنها ضعيفة كبيرة السن مريضة مرضاً مزمناً .

أنفسهم عن درجة الأنبياء ، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين .

وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى ، وكل ذلك أغاليط ووساوس ، خدعهم الشيطان بها ، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به .

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق ، واشتغلوا بالمجاهدة ، وابتدأوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة ، فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة ، تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غريبها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية . ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه وجره الوصل إلى القصد ، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً ، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها ، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

الصنف الرابع : أرباب الأموال :

وهم فرق :

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب إسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله ، لما شق عليه ذلك ، فإن الله يطلع عليه ، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه .

وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد ، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة للمصلين ، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين .

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً ، كان أشد في الغرور .

قال مالك بن دينار رحمه الله : أتى رجل مسجداً ، فوقف على الباب وقال : مثلي لا يدخل بيت الله ، فكتب في مكانه صديقاً .

فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد ، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد ، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام ، أو بزخرف الدنيا منه على الله تعالى ، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفاً .

وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال ، كالصيام والصلاة وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل مهلك ، وقد استولى على قلوبهم ، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم .

ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حيَّة ، فاشتغل عنها بطبخ السكنجين لتسكن به الصفراء .

ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط ، فيخرج الرديء من المال ، أو يعطي من الفقراء من يخدمه ، ويتردد في حاجاته ، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض .

ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه ، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه ، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور ، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره .

وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم ، اغتروا بحضور مجالس الذكر ، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والإتعاظ ، وليس كذلك ، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً في الخير ، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له ، وربما سمع أحدهم التخويف ، فلا يزيد على قوله : يا سلام سلم ، أو أعوذ بالله ، ويظن أنه قد أتى المقصود .

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري ، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه . فكذلك سماع

وصف الطاعات دون العمل بها ، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك فهو حجة عليك .

فإن قيل : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه .

فالجواب : أن مدار أمر الآخرة على معنىً واحد ، وهو تقويم القلب ، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته ، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها ، وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء :

العقل : وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء .

والمعرفة : التي يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته .

وفي كتاب المحبة ، وشرح عجائب القلب ، والتفكر ، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس ، ووصف جلال الله سبحانه .

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب « ذم الدنيا » وكتاب « ذكر الموت» ، فإذا حصلت هذه المعارف ، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها ، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب صحت نيته في الأمور كلها ، واندفع عنه كل غرور .

فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه ، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم ، ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها ، والعلم بما يقربه منه ويهديه ، وجميع ذلك في كتابنا هذا .

فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج إليه ، وما هو مستغن عنه ويتأدب بأدب الشرع .

ويعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى ، وهي الصفات المذمومة في الخلق .

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لا بد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك ، أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور ، والله أعلم .

وإذا فعل جميع ذلك ينبغى أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى .

ولذلك قيل : والمخلصون على خطر عظيم [1] .

وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت : فُتَنى . فقال : لا بعد .

فلا ينبغى أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً . نسأل الله تعالى السلامة من الغرور ، وحسن الخاتمة أنه قريب مجيب . آخر الغرور .

وبه تمَّ ربع المهلكات ، ونشرع الآن فى ربع المنجيات .

* * *

---

(١) جزء من حديث طويل موضوع يتردد كثيراً على الألسنة أورده العجلونى فى كشف الخفا (٢/ ٤٣٣) رقم ٤٧٩٦ بلفظ : الناس كلهم موتى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم غرقى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . ونقل عن الصاغانى قوله : « وهذا حديث مفترى ملحون » .

الربع الرابع

ربع المنجيات

١ - كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانه

وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والإنصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُم تَفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] وقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيها الَذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلى الله تَوْبَة نَصُوحاً** ﴾ الآية [التحريم : ٨] . وقال: ﴿ **إِنَّ اللهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقال النبي ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة » (١) .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دَوِّية(٢) مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش ثم

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات ١١/ ١٠٤ (٦٣٠٧) عن أبى هريرة بلفظ سبعين ومسلم فى الذكر والدعاء ٤/ ٢٠٧٥ (٤٢) عن ابن عمر .

(٢) أرض دوية : الأرض الواسعة البعيدة الأطراف التى لانبات فيها .

قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (١) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، والإجماع منعقد على وجود التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، ولو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك ، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير ، وأما أصل ذلك فلا بد منه .

ولهذا قال النبى ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » (٢) ، ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله : ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح : ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَاده** ﴾ [الشورى : ٢٥] .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٣) والأحاديث فى ذلك كثيرة .

فصل [فى بيان أقسام الذنوب]

اعلم : أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة ، لكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات :

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود . والبخارى فى الدعوات (٣) ، ومسلم فى التوبة (٣) .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى الدعوات ١١/ ١٠٤ (٦٣٠٧) ومسلم فى الذكر ٤/ ٢٠٧٥ (٤١) عن الأغر المزنى لكن بلفظ مائة مرة .

وقوله : يغان : أى يغطى .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٥/ ٥١١ (٣٥٣٧) وقال حسن غريب .

أحدها : صفات ربوبية ، ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء والعز وطلب الاستعلاء ، ونحو ذلك ، وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها فلا يعدها ذنوباً .

الثانية : صفات شيطانية ، ومنها يتشعب الحسد ، والبغى والحيل والخداع والمكر والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك .

الثالثة : الصفات البهيمية ، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات .

الرابعة : الصفات السبعية (١) ، ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ، وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة .

فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، فإذا اجتمعت هاتان ، استعملتا العقل فى الصفات الشيطانية ، من المكر والخداع والحيل ثم تغلب الصفات الربوبية .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح فبعضها فى القلب كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء ، وبعضها فى العين، وبعضها فى السمع ، وبعضها فى اللسان ، وبعضها فى البطن والفرج وبعضها فى اليدين والرجلين ، وبعضها فى جميع البدن ، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك ، فإنه واضح ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين ، وإلى ما بين العبد وبين ربه .

فما يتعلق بحقوق العباد ، فالأمر فيه أغلظ ، والذى بين العبد وبين ربه ، فالعفو فيه أرجى وأقرب ، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله ، فذلك الذى لا يغفر.

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله عزّ وجلّ ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله تعالى ، فالشرك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة : ٧٢] . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ ، يغفر ذلك

---

(١) السبعية : مأخوذة من السباع هى الحيوانات المفترسة .

ويتجاوز إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعضاً فالقصاص لا محالة » [١] .

قسمة أخرى :

اعلم : أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر الاختلاف فيها ، واختلفت الأحاديث فى عدد الكبائر .

والأحاديث الصحاح فى ذكرها خمسة :

الأول : حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[٢] .

الثانى : حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، سئل أى الذنب أكبر؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » [٣] .

الثالث : حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ قال: « الكبائر: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » [٤] .

الرابع : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور - أو قال : شهادة الزور » [٥] .

الخامس : حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ ذكرت عنده الكبائر قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [٦] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند : ٦/ ٢٤٠ من حديث عائشة . وصححه الحاكم فى المستدرك ٤/ ٥٧٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة . والموبقات : أى المهلكات .

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود . والند : أى الشريك والمثل والنظير . وحليلة الجار : أى زوجته .

(٤) أخرجه البخارى فى الأيمان ١١/ ٥٦٤ (٦٦٧٥) .

(٥) متفق عليه من حديث أنس بن مالك .

(٦) متفق عليه من حديث أبى بكرة .

وقد اختلفت العلماء فيها على أقوال كثيرة ، والأحاديث فى الكبائر لا تدل على حصرها فيها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب ، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر ، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر.

فأما أصغر الكبائر ، فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تكلم العلماء فى عدد الكبائر فروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : هى أربع .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : هى سبع .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر : إنها سبع ، قال : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : هى ما أوجب الحد فى الدنيا .

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ [النساء : ٣١] .

وقال سعيد بن جبير وغيره : هى كل ذنب أوعد الله عليه النار .

وقال أبو طالب المكى : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار ، أربعة فى القلب : الشرك ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات (١) ، واليمين الغموس (٢) والسحر .

وثلاثة فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا .

واثنتان فى الفرج : الزنا واللواطة .

واثنتان فى اليدين : القتل والسرقة .

وواحدة فى الرجلين : الفرار من الزحف .

---

(١) أى رميهن بالزنا .

(٢) اليمين الغموس : أى اليمين التى بها يحل حراماً أو يحرم حلالاً وسميت غموساً : لأنها تكون سبباً فى أن يغمس صاحبها فى النار .

وواحدة فى جميع البدن ، وهى عقوق الوالدين .

وهذا يمكن أن يزاد عليه ، وينقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

فصل
فى كيفية توزع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم : أن الناس يتفاوتون فى الآخرة ، كما يتفاوتون فى الدنيا ، وينقسمون إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين .

ومثال ذلك أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلى بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون .

وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له فى أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصَّر فى خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك ولم يقصر ، ولا يخلع إلاَّ على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون فى النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد فى الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ومنهم من يبقى فى النار سبعة آلاف سنة ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب .

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك فى النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة .

فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع

الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفّر للصغائر .

وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو بأصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه ويقينه فإن قلّ أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوى ، علت منزلته .

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسل تفاوت معرفتهم بالله تعالى ، ودرجات العارفين فى المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض .

فأما من ارتكب كبيرة ، أو أهمل أركان الإسلام ، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتسخ أصلاً .

فأما إن مات قبل التوبة ، فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة . ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار . ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ، وما ذكرناه من مراتب العباد فى المعاد حكم ظاهر الأسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ، ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هيِّن ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية ، وفى أرواح الأحياء غموض للأسباب التى رتبها المسبب وليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، وكذلك الفوز والهلاك فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الإطلاع عليها ، وكذلك يجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب ، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه ، فكيف على غيره ؟

وأما الناجون ، ونعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين وأولاد الكفار ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ويصلح أن يكونوا على الأعراف .

وأما الفائزون ، فهم العارفون ، وهم المقربون والسابقون ، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرَّة أعين ، وليس حرصهم على الجنة ، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى ، والنظر إليه .

ومثالهم مثال المحب ، فإنه فى تلك الحال غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ولا همٌّ له سوى محبوبه ، فهؤلاء الواصلون إلى قرَّة أعين ، ولا تخطر على قلب بشر ، فهذا القدر كاف فى بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

فصل

فى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة .

وفى الحديث : من رواية ابن عباس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صغيرة مع إصرارٍ ولا كبيرة مع الاستغفار » [٢] .

واعلم : أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد .

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حَجَرٍ متواليات ، فإنها تؤثر فيه ، ولو

---

(١) الأعراف : قال مجاهد : الأعراف : حجاب بين الجنة والنار ، سور له باب . وقال ابن جرير : الأعراف : جمع عرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً ، وإنما قيل الديك عرفاً لارتفاعه .

وروى عن ابن عباس : أنه سور كعرف الديك . هذا وغيره انظره فى تفسير ابن كثير ٢/ ٢١٦

(٣) أخرجه أبو الشيخ ، ومن طريقه الديلمى فى مسنده ، وفيه أبو شيبة الخراسانى ، حديثه منكر ، وضعف حديثه البخارى .

انظر كشف الخفا ٢/ ٥٠٨ (٣٠٧١) .

جمعت تلك القطرات فى مرة وصبت عليه لم تؤثر ، ولهذا قال ﷺ : « أحَبُّ العملِ إلى الله أدومُه وإنْ قَلَّ » (١) .

ومن الأسباب التى تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب ، فإن الذنب كلما استعظمه العبد ، صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره العبد ، كبر عند الله تعالى فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا . أخرجاه فى « الصحيحين » (٢) .

وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى ، فإذا نظر إلى عظمة من عصى ، رأى الصغيرة كبيرة .

وفى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه : « إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات » (٣) .

وقال بلال بن سعد رحمه الله : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها ، كما يقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرض فلان ، وذكرت مساوئه حتى خجلته ، أو يقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته وغبنته ، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتى بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره ، وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « كل أمتى معافى إلا المجاهرون ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ، ثم يصبح وقد ستره

---

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها .

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/ ٣٣٧ (٦٤٩٢) .

الله عليه ، فيقول : يا فلان : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله عليه ويصبح يكشف ستر الله عنه » [١] .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به ، فإذا علم منه الذنب ، كبر ذنبه ، كلبسه الحرير ، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً فى العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه .

وفى الحديث : « ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [٢] .

فعلى العالم وظيفتان :

إحداها : ترك الذنب ، والثانية : إخفاؤه إذا أتاه .

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتُّبعوا على الذنوب ، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتُّبعوا على الخير .

وينبغى للعالم أن يتوسط فى ملبسه ونفقته ، وليكن إلى التقلل أميل ، فإن الناس ينظرون إليه .

وينبغى له الاحتراز مما يقتدى به فيه ، فإنه متى ترخص فى الدخول على السلاطين وجمع الحطام ، فاقتدى به غيره ، كان الإثم عليه ، وربما سلم هو فى دخوله ، ولم يفهموا كيفية سلامته .

وقد روينا أن ملكاً كان يُكْرِهُ الناس على أكل لحم الخنزير ، فجيء برجل عالم فقال له حاجب الملك : قد ذبحت لك جدياً فكل منه ، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل ، فأمر بقتله ، فقال له الحاجب : ألم أقل لك إنه جدى ، فقال : ومن أين يعلم حالى من يقتدى بى .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى العلم ٤/ ٢٠٥٦ (١٥) .

فصل [فى شروط التوبة]

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوبة .

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته وأيُّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأىّ سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله ﷺ ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

وينبغى للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها ؟ مثل أن يكون صلاها فى ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك ، فيقضيها كلها .

وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة ، أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصى ، فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن كل معصية صدرت منه وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] ، وقال النبى ﷺ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » [١] .

مثال ما ذكرنا : أن يكفّر سماع الملاهى بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل ، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال . وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذى فى البر والصلة ٤/ ٣١٣ (١٩٨٧) وقال حديث حسن صحيح .

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهى عن ظلم العباد فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك فى المستقبل ، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم فى القسم الأول فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفِّر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ويكفِّر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفِّر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذ فعل ذلك ، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد .

ومظالمهم إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل نفساً خطأ أو أوصل الدية إلى مستحقها ، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لو زنا أو سرق ، أو شرب الخمر ، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى ، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الوالى حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى ، بدليل قصة ماعز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه .

الثانى : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس فى المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه .

وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ،فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته .

هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق به عنه ، وإن اختلط الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنىً بجاريته ، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولا بد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

فصل [فى شروط التوبة]

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً .

مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه ، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام فى مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوتٍ حلالٍ ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

قال بعضهم : من صدق فى ترك الشهوة ، وجاهد نفسه فيها سبع مرات ، لم يبتل بها ، وقال : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات :

الطبقة الأولى : تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرَّط من أمره ، ولا يحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح وتسمى هذه النفس : المطمئنة ! وهؤلاء يختلفون

منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها .

الطبقة الثانية : تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوَّامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه و وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه فترجح حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه ، إذ قال : ﴿ **الَّذينَ يَجْتَنبونَ كَبَائرَ الإثم وَالفوَاحش إلا اللَّمَمَ إنَّ ربَّكَ واسعُ المَغْفرَة** ﴾ [النجم : ٣٢] وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ : « إن الله يحب المؤمن المُفتَّن التواب » [(١)] .

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسؤولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَآخَرُونَ اعتَرَفُوا بذُنوبهم خَلَطُوا عَمَلاً صَالحاً وآخَرَ سَيِّئاً** ﴾ فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ **عَسَى الله أن يَتُوبَ عَلَيهم** ﴾ [التوبة : ١٠٢] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن تصل به الموت ، فتكون الخاتمة فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان وإسناده صحيح كما قال السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٢٤٤ (٣٩٩٦) بلفظ : خياركم كل مفتتن تواب وعزاه لعلى بن أبى طالب .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى هذه منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرّين وهذه النفس هى الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح ، فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار . فلو قيل له : فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

فصل
فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، لتمحوها وتكفّرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان بالقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار ، مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فاغفر لى .

وروى فى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله عزّ وجلّ ، إلا غفر له » (١) .

وأما الجوارح فالبطاعات ، والصدقات وأنواع العبادات .

فصل [فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار]

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء ، ولا يبطل الشيء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة ٢/٨٧ (١٥٢١) ، والترمذى فى الصلاة ٢/٢٥٧ (٤٠٦) عن أبى بكر وقال: حديث حسن .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، كما يجمع فى السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل ، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء .

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور :

أحدها : أن المريض لا يدرى أنه مريض .

الثانى : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان ، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلَّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر ما فى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء عليهم السلام ، والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب ، كحال آدم عليه السلام ، وما لقى فى عصاينه من الإخراج من الجنة ، وما جرى لداود وسلميان ويوسف عليهم السلام ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب

الآخرة أشد ، فينبغى أن يكثر من هذا على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله ، والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[1] .

وقال الفضيل بن عياض : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

وقال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة ، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل قلبه فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه وذلك الران الذى ذكر الله عزّ وجلّ فى كتابه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] . قال الترمذى : حديث حسن صحيح[2] .

وقال الحسن رحمه الله : الحسنة نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب ، كشرب الخمر والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وينبغى أن يكون طبيباً يعلم الداء ، ويدرى كيف يصنع الدواء ، فإن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال : أوصنى ، قال : « لا تغضب »[3] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن ٢/ ٣٣٤ (٤٠٢٢) وفى الزوائد : إسناده حسن .

وأحمد فى المسند : ٥/٢٧٧ ، ٢٨٠ ، والحاكم فى المستدرك ١/٤٩٣ . من حديث ثوبان .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/١٤١٨ (٤٢٤٤) . وأحمد فى المسند : ٢/٢٩٧ كلاهما عن أبى هريرة.

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/ ٥٣٥ (٦١١٦) والترمذى فى البر (باب ٧٣) ومالك فى الموطأ فى كتاب حسن الخلق رقم ١١

وقال آخر : أوصنى ، فقال : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس » [1] .

فكأنه تخايل فى الأول مخايل الغضب ، وفى الثانى مخايل الطمع .

وهذا الذى ذكرنا هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا فى كتاب « رياضة النفس » ولا بد من الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر إليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بالصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله .

فإن قيل : ما بال الإنسان يقع فى الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟

فعن ذلك أجوبة . منها : أن العقاب الموعود ليس بحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة ، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب .

ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه ، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر فى نفسه أن كل ما هو آت قريب ، وأنه لا يأمن هجوم الموت ، ويعالج التسويف بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، والمسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه ، وهو البقاء فلعله لا يبقى ، وإن بقى فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم ، وهل

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/١٣٩٦ (٤١٧١) مطولاً وفى آخره : « وأَجْمِع اليأس عما فى أيدى الناس» وفى الزوائد : إسناده ضعيف .

عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهى غير مفارقة له غداً ؟ بل يتأكد بالاعتياد ، ومن هذا هلك المسوفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها فى حال ضعفها كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت .

وأما انتظار عفو الله تعالى ، فعفو الله سبحانه ممكن ، إلا أن الإنسان ينبغى له الأخذ بالحزم ، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها ، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى خربة ، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

٢ - كتاب
الصبر والشكر

وهو شطران :

الأول : فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك . وقد ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نحو من تسعين موضعاً ، وأضاف إليه أكثر الخيرات ، والدرجات وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** ﴾ [السجدة : ٢٤] . وقال : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [الأعراف: ١٣٧] . وقال : ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل : ٩٦] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر : ١٠] .

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به » (١) . وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أعْطِى أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر » (٢) وفى حديث آخر : « الصبرُ من الإيمانِ بمنزلة الرأس من الجسد » (٣) .

وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله عزَّ وجلّ إلا لعبد كريم

---

(١) جزء من حديث قدسى طويل أخرجه البخارى فى الصوم ٤/١٢٥ (١٨٩٤) ومسلم فى الصوم ٢/٨٠٦ (١٦١) كلاهما عن أبى هريرة .

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/٣١٧ (٥١٣٦) وعزاه الديلمى فى مسنده عن أنس ، والبيهقى فى الشعب عن على موقوفاً ، ورمز له بالضعف .

عنده ، وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها ، وفيها : ﴿ واصْبِرْ لحُكْمِ رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

واعلم : أن الصبر من خاصية الإنسان ، ولا يتصور فى البهائم لنقصانها ، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها ، ولا يتصور الصبر أيضاً فى الملائكة لكمالها فإن الملائكة جرَّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال .

وأما الإنسان فإنه يخلق فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، وليس له قوة الصبر ، فإذا تحرك العقل وقوى ، ظهرت مبادى إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلامه ، إلا أن الطبع يقتضى ما يحب ، وباعث الشرع والعقل يمنع ، والحرب بينهما قائمة ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوات ، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين ، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها ، التحق باتباع الشياطين ، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة الهوى ، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين .

فصل [فى أقسام الصبر]

اعلم أن الصبر على ضربين :

أحدهما : بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطى الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها .

الضرب الآخر : هو الصبر النفسانى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى عفة ، وإن كان الصبر فى قتال : سمى شجاعة ، وإن كان فى كظم غيظ ، سمى حلماً ، وإن كان فى نائبة مضجرة ، سمى سعة صدر ، وإن كان إخفاء أمر ، سمى كتمان سر، وإن كان

فى فضول عيش ، سمى زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ ، سمى قناعة .

وأما المصيبة ، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر ، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات .

ثم اعلم أن العبد لا يستغنى عن الصبر فى كل حال من الأحوال ، وذلك أن جميع ما يلقى العبد فى الدنيا لا يخلو من نوعين :

النوع الأول :

ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة ومال ، والجاه ، وكثرة العشيرة ، والأتباع وجيمع ملاذ الدنيا ، فالعبد محتاج إلى الصبر فى جميع هذه الأمور ، فلا يركن إليها، ولا ينهمك فى التلذذ بها ، ويراعى حق الله تعالى فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه بالمعونة للحق .

ومتى لم يضبط نفسه عن الإنهماك فى الملاذ والركون إليها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، حتى قال : بعض العارفين : المؤمن يصبر على البلاء ، ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلا أَوْلادُكُم عَنْ ذِكْرِ الله** ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُم وَأَوْلادُكُم فِتْنَةٌ** ﴾ [الأنفال : ٢٨] ﴿ **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُم عَدُوّاً لَكُم فَاحْذَرُوهُم** ﴾ [التغابن : ١٤] .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء شديداً ، لأنه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ .

النوع الثانى المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام

أحدها : الطاعات ، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية .

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببها جميعاً ، كالحج والجهاد .

ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال :

حال قبل العبادة ، وهى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء .

وحال فى نفس العبادة ، وهى أن لا يغفل عن الله تعالى فى أثناء العبادة ، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن ، فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ من العمل .

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل : وهى الصبر عن إفشائه ، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة ، وعن كل ما يبطل عمله ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها .

القسم الثانى : الصبر عن المعاصى ، وما أحوج العبد إلى ذلك .

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله ، كمعاصى اللسان من الغيبة ، والكذب والمراء ونحوه ، كان الصبر عليه أثقل . فترى الإنسان إذا لبس حريراً ، استكبر ذلك ويغتاب أكثر نهاره ، فلا يستنكر ذلك ، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ، ولم يقدر على الصبر ، لم ينجه إلا العزلة .

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت الاختبار ، كالمصائب ، مثل موت الأحبة وهلاك الأموال ، وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين .

وقد قال ﷺ : « من يرد الله به خيراً يصب به » (1) .

وقريب من هذا القسم ، الصبر على أذى الناس ، كالذى يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله ، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت .

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٦] . وقال : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ**

---

(1) أخرجه البخارى فى المرضى ١٠٨/١ (٤٦٤٥) من حديث أبى هريرة .

صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] وقال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين » (١) .

والأحاديث فى فضائل الصبر كثيرة ، منها : ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عزّ وجلّ بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها » (٢) .

وفى حديث آخر : « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » . أخرجاه فى «الصحيحين » (٣) .

وفى حديث آخر : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة ، فى جسده وفى ماله وفى ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » (٤) .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله و أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٣١٧ (٥١٣٧) وعزاه لابن أبى الدنيا فى الصبر ، وأبى الشيخ فى الثواب عن عليّ ورمز له بالضعف ، وانظر الدر المنثور : ١/ ٦٦ ، واللآلئ المصنوعة : ٢/ ٢١٠ ، وكنز العمال رقم ٦٥١٥

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٥٢٠ (٢٣٩٩) عن أبى هريرة وقال : هذا حديث حسن صحيح .

دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة» قال الترمذى : حديث حسن صحيح [(١)] .

وروينا عن النبى ﷺ أنه قال : قال الله تعالى : « إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديواناً » .

فصل

فى آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله فى أول صدمة ، لقوله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » [(٢)] حديث صحيح .

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة ، لحديث أم سلمة رضى الله عنها وهو من رواية مسلم [(٣)] .

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان ، فأما البكاء فجائز .

قال بعض الحكماء : الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت .

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب ، كما فعلت أم سُلَيْم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها ، وحديثها مشهور فى « صحيح مسلم » .

وقال ثابت البنانى : مات عبد الله بن مطرف ، فخرج مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، وقالوا : يموت عبد الله ، ثم تخرج فى ثياب من هذه مدهناً ؟! قال : أفأستكين لها ، وقد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٥٢٠ (٢٣٩٨) وقال : حسن صحيح .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ١٧٧ (١٢٨٣) ومسلم فى الجنائز ٢/ ٦٣٧ (١٤-١٥) . كلاهما عن أنس .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/ ٦٣١ (٣) عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون . . . الحديث .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ - ١٥٧] .

وقال مطرف : ما شيء أعطى به فى الآخرة قدر كوز من ماء ، إلا وددت أنه أخذ منى فى الدنيا .

وكان صلة بن أشيم فى معزى له ومعه ابنه ، فقال : أى بنى ! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية ، فقالت : مرحباً إن كنتن جئتن تهنئننى ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن .

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها ، فكتمانها من نعم الله عزّ وجلّ الخفية .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فيقول : انظروا ما يقوله لعواده ، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه، رفعا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم ، فيقول : لعبدى إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه خطاياه » [(١)] .

وقال على رضى الله عنه : من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك .

وقال الأحنف : لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف تجدك يا أبا عبد الله ؟ قال : بخير فى عافية . فقال له : حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا فى عافية فحسبك ، لا تخرجنى إلى ما أكره .

وقال شقيق البلخى : من شكا مصيبة به إلى غير الله ، لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى العين ٢/ ٩٤٠ (٥) عن عطاء بن يسار مرفوعاً فهو مرسل لكن رواته ثقات . ووصله ابن عبد البر من طريق عباد بن كثير المكى . وعباد هذا ليس بالقوى .

وقال بعض الحكماء : من كنوز البر كتمان المصائب ، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها ، وحكاياتهم مشهورة فى ذلك .

منها : ما روى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر ، وسوّى عليه ثم استوى قائماً ، فأحاط به الناس ، فقال : رحمك الله يا بنى ! قد كنت براً بأبيك ، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً ، ولا أرجى بحظى من الله تعالى فيك منذ وضعتك فى هذا المنزل الذى صيَّرك الله إليه .

فإن قيل : إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب ، فلا قدرة للآدمى على ذلك ، وإن كان الفرح يوجودها كما حكيتم ، فهو أبعد .

والجواب : أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه ، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب ، هو انزعاج الباطن ، وإنما ينهى عن المكتسب ، كشق الجيوب ولطم الخدود ، والقول باللسان ، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم ، فذلك فرح شرعى لا طبعى ، إذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب .

ومثال هذا مثال رجل مريض وصف له شربة لمرضه ، فسعى فى طلب حوائجها ، وأنفق عليها مالاً ، فلما تمت ، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية ، فأما طبعه ، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً . ولو أن ملكاً قال لرجل فقير : كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار ، لأحب كثرة الضرب ، لا لأنه لا يؤلم ، ولكن لما يرجو من عاقبته ، وإن أنكاه الضرب ، فكذلك السلف تلمحوا الثواب ، فهان عليهم البلاء .

فصل فى بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به ، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج إذ معنى العلاج : مضادة العلة .

ونضرب لك مثالاً ، فنقول : إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع ، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه ، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء :

أحدها : مواظبة الصوم ، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه إنما يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب ، والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذا العزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، ولا يمنع عنه الاغمض الجفن أو الهرب .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى ، وذلك بالنكاح ، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ، ففى المباحات غنية عنه ، وهذا هو العلاج الأرفع فى حق أكثر الناس ، لأن قطع الغذاء يضعف ، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا .

وينبغى للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة ، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى غلبها متى أراد .

واعلم : أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة ، كف الباطن من حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى ، وجميع أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه ، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة ، من القراءة ، والأذكار ، والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، فإن الفكر الباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، فهذا الذى يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ، ويكثر الصيد وقد يطول الجهد ويقل الصيد ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن عزّ وجلّ ، فإنها توازى أعمال الثقلين ، وليس ذلك إلى اختيار العبد ، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب

إلى أسفل سافلين ، لا يجذب إلى أعلى عليين ، وكل منهوم [1] بالدنيا هو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة ، هو المراد بقوله ﷺ : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » [2] .

فالذى علينا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة ، كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويضع فيها البذر ، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر ، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلى سنة عن مطر ، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحت من النفحات .

فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب ريح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع عند ظهور الغيم ، وكذلك انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب ، كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفى رمضان . والهمم والأنفاس أسباب لاستدارار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

❊ ❊ ❊

الشرط الثانى من الكتاب

١ - فى الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿ **وَسَنَجْزِى الشَّاكرينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] وقال الله تعالى : ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بعَذَابكُم إن شكَرتُم وآمَنْتُم** ﴾ [النساء : ١٤٧] وقال : ﴿ **وَقَليلٌ من عبَاديَ الشَّكُورَ** ﴾ [سبإ : ١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال : ﴿ **لَئن شَكرتم لأَزيدنَّكُم** ﴾ [إبراهيم : ٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله : ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنيكُم اللهُ من فَضْله إن شَاءَ** ﴾ [التوبة : ٢٨] وقوله : ﴿ **فَيَكْشفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْه إنْ شَاءَ** ﴾ [الأنعام : ٤١] وقوله : ﴿ **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [البقرة : ٢١٢] ﴿ **ويَغْفرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨] ، ﴿ **ويَتُوبُ الله عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [التوبة : ١٥] .

---

(١) النَّهَم : الإفراط فى الأكل والإكثار منه .

(٢) أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال فى الطعن على بنى آدم : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

وروى أن النبى ﷺ قام حتى تفطرت قدماه ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أفلا أكون كبداً شاكراً » (١) .

وعن معاذ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنى أحبك فقل : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢) .

فصل [فى كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح]

والشكر يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح .

أما بالقلب ، فهو أن يقصد الخير ، ويضمره للخلق كافة .

وأما باللسان ، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد .

وأما بالجوارح ، فهو استعمال نعم الله فى طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، فَمِن شكرِ العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، فهذا يدخل فى جملة شكر هذه الأعضاء .

والشكر باللسان : إظهار الرضى عن الله تعالى ، وهو مأمور به . قال رسول الله ﷺ « التحدث بالنعم شكر ، وتركها كفر » (٣) .

وروى أن رجلين من الأنصار التقيا ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أصبحت ؟ فقال : الحمد لله . فقال النبى ﷺ : « قولوا هكذا » .

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فرد عليه ، ثم قال له عمر : كيف أصبحت ؟ قال : أحمد الله ، فقال عمر : ذاك الذى أردت (٤) .

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة ٢/ ٨٧ (١٥٢٢) وأحمد فى المسند : ٥/ ٢٢٩ ، ٢٣٣

(٣) بهذا اللفظ أخرجه أحمد فى المسند : ٤/ ٢٧٨ ، ٣٧٥ عن النعمان بن بشير .
وضعفه العجلونى فى كشف الخفا .

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ وصحح إسناده الحافظ العراقى فى المغنى على هامش الإحياء ٤/ ٨٩

وقد كان السلف يتساءلون ، ومرادهم استخراج الشكر لله ، فيكون الشاكر مطيعاً والمستنطق مطيعاً .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : إن الرجل رذا سلم على الرجل ، وسأله كيف أصبحت ؟ فقال له الآخر : أحمد الله إليك ، قال : يقول الملك الذى عن يساره للذى عن يمينه : كيف تكتبها ؟ قال : أكتبه من الحامدين . فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل : كيف أصبحت ؟ يقول : أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه .

فصل [فى فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله]

اعلم : أن فعل الشكر وترك الكفران ، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه ، ومعنى الكفران نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال ، أو استعماله فيما يكرهه .

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان :

أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات .

والثانى : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير عزيز ولذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطرق على الخلق ، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد ، فمن لا يطلع على حكم الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق أشكر أصلاً .

وأما الثانى : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه : إذ ما خلق الله تعالى شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جليَّة وخفيَّة .

أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار فيكون النهار معاشاً ، والليل سباتاً ، فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الإستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكمة فيها ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار .

وأما الحكمة فى خلق الكواكب ، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق ، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم ، نحو كونها زينة للسماء ، وجميع أجزاء العالم لا

تخلو منه ذرة عن حكمة ، وكذلك أعضاء الحيوان ، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً كالعلم بأن العين للإبصار ، واليد للبطش ، والرجل للمشى .

فأما الأعضاء الباطنة ، كالمرارة ، والكلية والكبد ، وآحاد العروق ، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس ، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى ، فكل من استعمل شيئاً فى جهة غير الجهة التى خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذى أريد به ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه ، فمن ضرب غيره بيده بغير حق ، فقد كفر نعمة الله تعالى فى اليد ، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويتناول ما ينفعه ، لا ليؤذى بها غيره ، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم ، فقد كفر نعمتها ، ونعمة الشمس أيضاً إذ الإبصار يتم بها ، فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما .

واعلم : أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته ، والأنس به فى الدنيا والتجافى عن غرور الدنيا ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله هى النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] فكل من استعمل شيئاً فى غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لا بد منها ، لإقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفيَّة التى ليست فى غاية الخفاء ، حتى يعتبر بها ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة فى أعينهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما ، من حيث أن كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة ، فى مطعمه ومشربه وملبسه ، ومركبه ، وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى

عنه ، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج إلى جمل يركبه ، وآخر يملك الجمل ، وربما استغنى عنه ، ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزغفران والجمل ، حتى يعطى مثله فى الوزن والصورة .

وكذا من يشترى داراً بثياب ، أو عبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما ، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير ، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوى مائة ، وهذا القدر من الزغفران يساوى مائة ، فحصل التساوى بينهما حينئذ ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين ، إذ لا غرض فى أعيانهما ، فإنه لو كان فى أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر ، فخلقهما الله لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل وجعلهما عزيزين فى أنفسهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء .

إذا عرفت حكمتهما ، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما ، ولا يليق بحكمتهما ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين فى سجن يمتنع من الحكم بسببه ، لأنه ضيعهما ومنع الأيدى من تداولهما . ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله ﷺ ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَكنزونَ الذَّهبَ والفضَّة وَلا يُنْفقُونَهَا فى سبيل الله فَبَشِّرْهُم بِعذَاب إليم ﴾ [التوبة : ٣٤] .

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما .

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد فى الحياكة والكنس والأعمال التى يقوم بها أخس الناس ، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة فى حفظ المائعات [1] ، ولا تكفى تلك الأعيان عنهما ، ولا يقوم مقامهما فيما أريد

(١) المائعات : جمع مائع ، وهى السوائل .

بهما من كونهما قيم الأشياء ، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: « من شرب فى إناء ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » (١) وكذلك كل من عامل بالربا فى الدراهم والدنانير ، فقد أخرجهما عن مقصودهما فهذا مثال لحكمة خفيَّة من حكم النقدين .

فينبغى أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال فى غيره من جميع أمورك ، فى حركتك ، وسكونك ، ونطقك ، وسكوتك فى كل فصل صادر منك ، إما شكراً أو عكسه ، وهو الكفر ، وبعض ذلك تصفه بالكراهة ، وبعضه بالحظر .

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى ، وقد أحوجك من آعطاك اليدين إلى أعمال ، بعضها شريفة ، كأخذ المصحف ، وبعضها خسيسة ، كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد عكست المقصود وخصصت الشريف بما هو خسيس ، فظلمته .

وكذلك فى الرجلين ، إذا ابتدأت باليسرى فى لبس الخف ، فقد ظلمت اليمنى ، لأن الخف وقاية للرجل ، وقس على ذلك .

وكذلك نقول : من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح ، فقد خالف الحكمة فى خلق الأشجار ، لأنها خلقت للمنفعة بها ، فإن كان كسره لغرض صحيح ، فلا بأس ، وإن فعل ذلك فى ملك غيره ، فهو ظالم ، وإن كان محتاجاً ، إلا أن يأذن صاحبه .

فصل [فى بيان النعم وحقيقتها وأقسامها]

اعلم : أن كل مطلوب يسمى نعمة ، ولكن النعمة فى الحقيقة هى السعادة الأخروية، وتسمية نعمة تجوز ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام :

---

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة ١٠/ ٩٨ (٥٦٣٤) .

« ويجرجر » بضم الياء ، وفتح الجيم ، وسكون الراء ، ثم جيم مكسورة من الجرجرة وهو صوت يردده البعير فى ضجرته إذا هاج نحو صوت اللجام فى فك الفرس . انظر فتح البارى ١٠/ ٩٩

أحدها : ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعاً ، كالعلم ، وحسن الخلق ، وهو النعمة الحقيقية .

الثانى : ما هو ضار فيهما جميعاً ، وهو البلاء حقيقة .

القسم الثالث : ما ينفع فى الحال ، ويضر فى المآل ، كالتلذذ ، واتباع الشهوات فهو بلاء عند ذوى الأبصار ، والجاهل يظنه نعمة .

ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاءً .

القسم الرابع : الضار فى الحال ، النافع فى المآل ، وهو نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال .

ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه فى الحال ، الشافى فى المآل من الأسقام ، فالصبى الجاهل ، إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبى إلى الحجامة ، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها ، لما يلحظ فى عاقبتها من الشفاء والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها ، لكونها جاهلة بالمصلحة فى ذلك فالصبى يتقلد منه أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدواً ، ولو عقل لعلم أن الأم هى العدو الباطن فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة بسوقه إلى أمراض ألمها أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

فصل [فى بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء]

اعلم : أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية .

أما الغاية فهى سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثانى : فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة ، وهى أربعة أقسام :

أعلاها : فضائل النفس ، كالإيمان ، وحسن الخلق .

الثانى : فضائل البدن ، من القوة والصحة ونحوهما .

الثالث : النعم المطيفة [1] بالبدن ، من المال والجاه والأهل .

الرابع : الأسباب التى جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل ، من الهداية والإرشاد ، والتسديد ، والتأييد ، وكل هذه نعم عظيمة .

فإن قيل : ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة فى المال والجاه ونحوهما ؟

قلنا : هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح ، والآلة المستعملة للمقصود .

أما المال ، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية ، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح ، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات فى طلب القوت ، فيشغله عن تحصيل العلم وعن الذكر ، والفكر ، ونحو ذلك .

وأما الجاه فيه فيدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يهوش عليه ، فيشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه .

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها ، فهى نعم ، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك .

وقد قال النبى ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ »[2].

ولما سئل : من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » [3] .

وأما المال والجاه ، وإن كانا نعمتين ، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق .

---

(١) النعم المطيفة بالبدن : أى المحيطة به .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق ١١/ ٢٣٣ (٦٤١٢) . ومغبون أى مجدوع .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٨٩ (٢٣٢٩) وقال حسن غريب .

وأما الهداية وارشد والتسديد والتأييد ، فلا خفاء فى كونها من أعظم النعم ، فلا يستغنى أحد عن الحاجة إلى التوفيق ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فصل [من نعم الله الأسباب التى يتم بها الأكل]

واعلم : أنا قد ذكرنا جملة من النعم ، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة فى الرتبة الثانية ، فلو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التى يتم بها الأكل على سبيل التلويح ، لا على سبيل الاستقصاء ، فنقول : من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة فى طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى الحواس الخمس ، التى هى آلة للإدراك .

فأولهما : حاسة اللمس ، وهو أول حس يخلق للحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة ، ففتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد ، ولكن لا تدرى من أى ناحية جاءت الرائحة ، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذى شممت رائحته ، وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب ، فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات ، ولا يكفى ذلك ، لو لم يكن لك حسن الذوق إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة ، فإنه يصب فى أصلها كل مانع ، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى ، هى أشرف من الكل ، وهو العقل ، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها ، وما يضر فى المال ، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع به فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة ، فهى بعض الإدراكات ، ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك ، فإن البصر واحد من الحواس والعين آلة له ، وقد

ركبت العين من عشر طبقات مختلفة : بعضها رطوبات ، وبعضها أغشية مختلفة لكل واحدة من الطبقات العشر، صفة، وصورة ، وشكل، وهيئة ، وتدبير وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء كلهم ، فهذا فى حس واحد ، وقس حاسة السمع وسائر الحواس ، ولا يمكن أن يستوفى ذلك فى مجلدات ، فكيف ظنك بجميع البدن ؟!

ثم انظر بعد ذلك فى خلق الإرادة والقدرة ، وآلات الحركة من أصناف النعم وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ، ولم يخلق لك فى الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة ، لكان البصر معطلاً ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته ، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى تناول الغذاء .

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام ، لأسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، وكذلك القول فى شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل .

ثم خلق لك الأعضاء التى هى آلات الحركة فى تناول الغذاء وغيره ، منها اليدان وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات وتمتد وتنثنى ، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً ، وهو الكف ، وقسمه خمسة أقسام ، وهى الأصابع وجعلها مختلفة فى الطول والقصر ، ووضعها فى صفين ، بحيث يكون الإبهام فى جانب ، ويدور على الأصابع البواقى ، ولو كانت مجتمعة متراكمة ، لم يحصل تمام الغرض ، ثم خلق لها أظافر ، وأسند إليها رؤوس الأصابع ، لتقوى بها ، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك ، فجعل لك الفم واللحيين [1] ، خلقهما من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام ، فبعضها قواطع كالرباعيات ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب ، وبعضها طواحن كالأضراس

(١) اللحيين : اللحى : الفك الذى توجد به الأسنان وهما لحيان علوى وسفلى .

وجعل اللحى الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى . وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى ، إلا هذه الرحى التى هى صنع الله سبحانه وتعالى ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى ، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التى يحتوى عليها .

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ، كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق .

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس ، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة .

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب ، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، فإنه لا يمكن إيصاله باليد ، فهيأ الله تعالى المريء والحنجرة ، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام ، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام ، فيهوى فى دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً ، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، وينضج بالحرارة التى تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة ، وهى الكبد من جانبها الأيمن ، والطحال من جانبها الأيسر والثرب [1] من أمامها ، ولحم الصلب من خلفها ، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، ثم ينصب الطعام من العروف إلى الكبد فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر .

ثم يتفرق فى الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع .

ولو استوفينا الكلام فى ذلك لطال .

---

(١) الثرب : الشحم الذى يغطى الكرش والأمعاء وهو عبارة عن طبقات رقيقة .

وفى الآدمى من العضلات والعروق ما لا يحصى ، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغظ ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة ، وكل ذلك من الله سبحانه ، ولو سكن من جملتها عرق متحرج ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يا مسكين.

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك ، لتقوى على الشكر ، فإنك لا ععرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل ، وهى أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل ، وتتعب فتنام ، وتشتهى فتجامع ، وإذا لم تعرف أن من نفسك إلا ما يعرف الحمار ، فكيف تقوم بشكر الله تعالى ؟! وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى ، فقس على ذلك .

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه أقل من قطرة فى بحر . قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فصل
فى عجائب الأغذية والأدوية

واعلم : أن الأطعمة كثيرة مختلفة ، ولله تعالى فى خلقها عجائب لا تحصى .

وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها .

فنتكلم عن بعض الأغذية ، فنقول : إذا كان عندك شيء من الحنطة ، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً ، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف ، حتى يفى بتمام حاجتك ، وهو زرعها ، وهو أن تجعلها فى أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء ، وتصرفه بقهر على الأرض ، حتى ينفذ فيها ، ثم كل ذلك لا يغنى ، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ، فإنه لو كان فى البرد المفرط لم ينبت .

ثم انظر إلى الماء الذى تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى ؟ فجَّر العيون وأجرى منها الأنهار ، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء ، أرسل إليها

الغيوم ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم ، وهى سحب ثقال ، ثم يرسله على الأرض مدراراً فى وقت الحاجة .

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء ، تنفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره .

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها ، مع بعدها عن الأرض ، مسخنة لها فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إليه ، والحر عند الحاجة إليه .

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير ، وكل كوكب خلق فى السماء ، فهو مسخر لنوع فائدة ، كما سخرت الشمس والقمر ، ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر بإحصائها ، وكذلك الشمس والقمر ؛ فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى .

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد فى كل مكان ، سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال ، مع أنه لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون الأموال ، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق ، أو يموتون فى بعض البلاد ، فتأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم ، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح فى ركوب البحار ، وركوب الأخطار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك .

واعلم : أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه : الحمد لله ، والشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهى طاعة الله تعالى .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب :

أحدها : أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك

لا يشكرون على جملة مما ذكرناه ، من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به ، فلا يعده نعمة ، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظه حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا فى حمام أو بئر ماتوا غماً ، فإن ابتلى أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا ، قدَّر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد إليهم فى بعض الأحوال ، فالنعم فى جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى ، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة ، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً ، فإذا ترك ضربه ساعة ، شكر وتقلد ذلك منة ، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم .

كما روى أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة ، وأظهر شدة اغتمامه بذلك ، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً .

وحكى عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى فى المنام كأن قائلاً يقول له : أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار ؟ قال : لا . قال: فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ؟ فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على الرشيد فى عظة ، فبكى ثم دعا بماء فى قدح فقال : يا أمير المؤمنين ! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفديها بها ؟ قال : نعم . قال : فاشرب رياً ، بارك الله فيك . فلما شرب ، قال له : يا أمير المؤمنين: أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدى ذلك ؟ قال : نعم . قال : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه !

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم ، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة .

اعلم : أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى عليه من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس ، بل قد يشاركه فى ذلك كثير منهم ، من ذلك العقل ، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقلما يسأل الله العقل وإذا كان ذلك اعتقاده ، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك .

ومن ذلك الخلق ، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ويرى نفسه بريئاً منها ، فينبغى أن يشكر الله تعالى على ذلك ، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره .

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه ، حيث أظهر الجميل وستر القبيح ، ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو أخلاقه أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو جاهه ، أو سائر محابه ، أموراً ، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره ، لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمة ، وذكراً لا أنثى وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص .

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره ، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه ، إما على الجملة ، أو فى أمر خاص ، فإن لله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم ، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير ممن فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه ؟!

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » (١) . ورقد رواه الترمذى بلفظ آخر : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » (٢).

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خص به ، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة ، لا سيما من خص الإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك .

وقد روى فى بعض الأحاديث « من قرأ القرآن فهو غنى » ، وفى لفظ : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه » (٣) .

وفى حديث آخر : من « أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (٤) .

وقال بعضهم :

إذا ما القوت يأتى لـ ـكَ فى الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فـلا فـارقـك الحـزن

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى ؟

فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عزَّ وجلّ وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء ، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم ، ثم يتأمل صحته وسلامته ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون ، فيشكر الله على سلامته من تلك

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه الترمذى فى اللباس ٤/٢١٥ - ٢١٦ (١٧٨٠) .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/١٥٨ بلفظ : إن القرآن غناء لا فقر بعده ، ولا غنى دونه ، وعزاه لأبى يعلى عن أنس وفيه ضعف .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/٤٩٦ (٢٣٤٦) . وقال : هذا حديث حسن غريب .
وابن ماجه فى الزهد ٢/١٣٧٨ (٤١٤١) عن عبيد الله بن محصن الأنصارى .

العقوبات ، ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ليتدارك من عصى عصيانه ، وليزيد فى الطاعة من أطاع ، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر ، وعلم أحب الأشياء إليهم ، فليصرف بقية عمره فى طاعة الله تعالى وشكره فى الإمهال ، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله ، وهو التزود للآخرة .

ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت .

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم .

فصل [فى بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد]

لعلك تقول : قد ذكرت أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر ، وإن كان البلاء موجوداً ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر ؟! فإن الصبر يستدعى ألماً والشكر يستدعى فرحاً ، وهما متضادان .

فاعلم أن البلاء موجود ، كما أن النعمة موجودة ، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه ، مثل الكفر ، فإنه بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعاصى ، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء ، فيكون كمن ه علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته والعاصى يعرف عصيانه ، فعليه ترك المعصية ، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصير عليه ، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه ، لم يؤمر بالصبر على ذلك ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه ، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيقة الشكر ووظيفة الصبر ، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير بسبب هلاك الإنسان ، حتى يقصد قتله بسبب ماله ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء ، وقد يكون على العبد فى بعض الأمور بلاء وفيه نعمة .

مثال ذلك ، جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه ، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له ، إذ لو اطلع عليه ، لطال أمله وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غير ، إذ لو عرف منه ذلك ، أبغضه وآذاه ، فكان ذلك وبالاً عليه .

ومن ذلك إبهام القيامة ، وليلة القدر ، وساعة الجمعة ، وكل ذلك نعمة ، لأن الجهل يوفر الدواعى على طلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم ؟!

وقد قلنا : إن لله؟ سبحانه فى كل موجود نعمة ، حتى إن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم ، وقد تكون نعمة فى حق غيره ، كألم الكفار فى النار فى الآخرة فإنه نعمة فى حق أهل الجنة ، إذ لو لم يعذب قوم ، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار ، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس ، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة ، ولا بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل نبت ، لأنها عامة ، فلذلك لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ، فإذا صح قولنا ، إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة ، إما على جميع العباد ، أو على بعضهم ، ففى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غيره ، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة ، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه ، ويغتم به من وجه ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح .

واعلم : أن فى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء فى الدنيا ، خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها :

أحدها : أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها ، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى ، فلو أضعفها الله عزَّ وجلّ على العبد ، فما كان يمنعه ؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم .

الثانى : أن المصيبة لم تكن فى الدين .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضى به وإذ أرجو الثواب عليه .

قال رجل لسهل بن عبد الله : دخل اللص بيتى وأخذ متتاعى ، فقال : أشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ، ماذا كنت تصنع ؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر .

الثالث : أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف ، ومصيبة الآخرة دائمة ، وإن لم تدم ، فلاسبيل إلى تخفيفها ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لم يعاقب ثانياً ، كذا ورد فى الحديث عن النبى ﷺ .

وفى « صحيح مسلم » : « إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له ، حتى النكبة ينكبها ، والشوكة يشاكها » [1] .

الرابع : أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب ، ولم يكن بد من وصولها إليه ، فقد وصلت واستراح منها ، فهى نعمة .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة ، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى ، فإنه لو خلى واللعب ، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب ، فكان يخسر طول عمره ، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء ، قد تكون سبباً لهلاكه ، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً ، ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد ، إلا ويتصور أن يكون له فى ذلك خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله عزّ وجلّ ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه ، فإن حكمة الله تعالى واسعة ، وهو أعلم بمصالح العباد منهم ، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه ، كما يشكر الصبى بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب .

---

(١) أخرجه مسلم فى البز والصلة ٤/١٩٩٣ (٥٢) عن أبى هريرة .
والنكبة : مثل العثرة يعثرها برجله ، وأصل النكب الكب والقلب .

والبلاء تأديب من الله تعالى ، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد .

وفى الحديث : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » (1) .

وأيضاً ، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عنها ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها ، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها ، فصارت سجناً له ، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن .

وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر ، فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكر على سبب الفرح ، فمن عرف هذا ، تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس رضى الله عنه بأبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس

خير من العباس صبرك بعده والله خـير مـنك للعباس

فقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما عزانى أحد أحسن من تعزيته .

وقد سبق ذكر أنواع البلاء ، وثواب الصبر عليها .

فإن قال قائل : الأخبار الواردة فى فضل الصبر تدل على أن البلاء فى الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله عز وجلّ البلاء ؟

فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن فى الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل كنت تدعو بشيء ، أو تسأله » ؟ قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة ، فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله لا تطيقه

(1) أخرج أحمد معنى هذا الحديث فى المسند : 1/173 ، 177 من حديث سعد بن أبى وقاص .

ولا تستطيعه ، فهلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (١)

ومن حديث أنس رضى الله عنه أيضاً ، أن رجلاً قال : يا نبى الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه الغد ، فقال : يا رسول الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة»، ثم أتناه اليوم الثالث . فقال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة، فإن أعطيت العفو والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أفلحت » (٢) .

وفى « الصحيحين » أنه ﷺ قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » (٣) .

وقال مطرف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر .

فصل
فى بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس : هل الصبر أفضل من الشكر ، أو بالعكس ؟ وفى ذلك كلام طويل ، ذكره المصنف رحمه الله ، وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات .

فأقل درجات الصبر ، ترك الشكوى مع الكراهة ، ووراءها الرضى ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراء ذلك الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضى .

ودرجات الشكر كثيرة ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر وحسن التواضع فى النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، لقوله ﷺ :

(١) أخرجه مسلم فى الذكر ٤/٢٠٦٨ - ٢٠٦٩ (٢٣) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٥/٤٩٩ (٣٥١٢) عن أنس وقال حسن غريب ، وعن العباس بن عبد المطلب وقال : صحيح .

(٣) متفق عليه .

« لا يشكر الله من لا يشكر الناس »[(1)] . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر ، وهى درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ؟

لكن نقول : إذا أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة ، فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله عزّ وجلّ ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح ، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار .

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له فى المباحات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس ، من نعمة الأموال ، والغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله . فإذن الصبر الذى يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذى يفهمونه . ومتى لحظت المعنى الذى ذكرناه ، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً فى بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما ذكر ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، ويصرف الباقى فى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منه ، فهذا أفضل من الفقير الصابر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

---

(1) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/٢٥٦ (٤٨١١) . الترمذى فى البر ٤/٢٩٨ (١٩٥٤) وقال حسن صحيح. وأحمد فى المسند ٢/٢٥٨ .

٣- كتاب الرجاء والخوف

اعلم : أن الرجاء والخوف جناحان ، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود ، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما ، وما يتعلق بذلك ، ونحن نذكرهما فى شطرين :

الأول : فى الرجاء . والثانى : فى الخوف .

الشطر الأول : الرجاء :

واعلم : أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضاً سريع الزواله سمى حالاً ، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة ، كصفرة الذهب ، وإلى سريعة ، كصفرة الوجل ، وإلى ما بينهما كصفرة المرض ، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام ، وإنما سمى غير الثابت حالاً ، لأنه يحول عن القلب .

واعلم : أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيما مضى .

فالأول : يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً .

والثانى : يسمى ذكراً ، وإن كان قد خطر ببالك شيء فى الاستقبال ، وغلب على قلبك ، سمى انتظاراً وتوقعاً ، فإن كان المنتظر محبوباً ، سمى رجاء ، وإن كان مكروهاً ، سمى خوفاً .

فالرجاء : هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل ، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء ، سمى تمنياً لأنه انتظار من غير سبب ، ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه فأما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها ، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ، ولكن يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان

كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار ومساقى الماء إليها .

وإن القلب المستغرق بالدنيا ، كالأرض السبخة [1] التى لا ينمو فيها البذر .

ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو البذر فى الأرض السبخة .

فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن ، ثم ساق إليها الماء فى أوقات الحاجة ، ونقَّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، فهذا يسمى انتظاره رجاء .

فأما إن بذر فى أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً ، ثم انتظر الحصاد ، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً ، لا رجاء .

وإن بث البذر فى أرض طيبة ، ولكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار ، سمى انتظاره تمنياً لا رجاءً .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على إنتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره ، وهو فضل الله سبحانه ، بصرف الموانع المفسدات ، فالعبد إذ بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات ، والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله تعالى : ﴿ **فَخَلَفَ من بَعْدهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾ [الأعراف :

(١) الأرض السبخة : هى الأرض التى ترتفع فيها نسبة الملح ، لذا لا تنبت الزرع والبذر .

١٦٩] وذم القائل : ﴿ وَلَئِن رُدِدتُ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً ﴾ [الكهف : ٣٦] .

وروى شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله عزّ وجلّ الأمانى »[1].

وقال معروف الكرخى رحمه الله : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

المعنى : أولئك الذين يستحقون أن يرجوا ، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك .

واعلم : أن الرجاء محمود ، لأنه باعث على العمل ، واليأس مذموم ، لأنه صارف عن العمل ، إذ من عرف أن الأر ض سبخة ، وأن الماء مغور ، وأن البذر لا ينبت ، ترك تفقد الأرض ، ولم يتعب فى تعاهدها .

وأما الخوف ، فليس بضد الرجاء ، بل رفيق له ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عزّ وجلّ ، والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك ، أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر ، استدل به على حرمان مقام الرجاء ، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات ، فهو مغرور .

فصل [فى فضيلة الرجاء]

روى فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ إنه

---

(١) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة ٢٩٨/٤ (٢٤٥٩) وقال : هذا حديث حسن .
والكيس : العاقل الواعى ، وهو عكس الأحمق .
ودان نفسه : أى حاسبها .

قال : « قال اللهُ عَزَّ وجلَّ : أنا عند ظَنّ عَبدِى بِى » وفى رواية أخرى « فليظن بى ما شاء » (١) .

وفى حديث آخر من رواية مسلم : أن النبى ﷺ قال : « لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٢) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى . قال : يا رب : كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى (٣) .

وعن مجاهد رحمه الله قال : يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار ، فيقول : ما كان هذا ظنى فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لى ، فيقول : خلوا سبيله .

فصل

فى دواء الرجاء والسبب الذى يحصل به

اعلم : أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان :

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة .

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله .

فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة ، فلا ينبغى أن يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، فإن أدوية الرجاء تقلب فى حقه سموماً ، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة ، مضرٌّ لمن غلبت عليه الحرارة .

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً ، ناظراً إلى مواضع العلل ، معالجاً كل علة بما يليق بها ، وهذا الزمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة فى التخويف ، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه ، لإصلاح المرضى .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة ٤/ ٢٢٠٥ (٨١ - ٨٢) عن جابر بن عبد الله .

(٣) قال الحافظ العراقى فى المغنى على هامش الإحياء ٤/ ١٥٢ لم أجد له أصلاً ، وكأنه من الإسرائيليات .

وقد قال على رضى الله عنه : إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم مكر الله .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن من أسباب الرجاء ، ما هو من طريق الاعتبار ، ومنها ما هو من طريق الأخبار . أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر ، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده فى الدنيا ، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان ، وأن لطفه الإلهى لم يقصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا ، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة ، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد ؟! فإن من لطف فى الدنيا يلطف فى الآخرة ، لأن مدبر الدارين واحد .

وأما استقراء الآيات والأخبار ، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الذين أسرفوا عَلَى أنفسهم لا تَقْنَطُوا من رَحْمَة الله إنَّ الله يَغْفرُ الذُّنوب جَميعاً** ﴾ [الزمر: ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ **وَالْمَلائكَةُ يُسَبِّحُون بحَمْد رَبِّهم وَيَسْتَغْفرون لمَن فى الأرْض** ﴾ [الشورى : ٥] .

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياءه ، فقال : ﴿ **لَهُمْ من فَوْقهمْ ظُلَلٌ منَ النَّار ، وَمن تحْتهمْ ظُلَلٌ ذَلكَ يُخَوِّفُ اللهُ به عبَادَهُ** ﴾ [الزمر: ١٦] . وقال تعالى : ﴿ **واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعدَّتْ للْكَافرينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣١] . وقال : ﴿ **فأنذرتكم نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاهَا إلاّ الأشقَى * الذى كَذَّبَ وتَوَلَّى** ﴾ [الليل : ١٤ - ١٦] . وقال تعالى : ﴿ **وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفرَة للنَّاس عَلَى ظُلْمهم** ﴾ [الرعد : ٦] .

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن إبليس قال لربه عزَّ وجلَّ ، بعزَّتك وَجَلالكَ ، لا أبْرَحُ أغوى بنى آدم ما دَامت الأرْوَاح فيهم . فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : فبعزتى وَجَلالى ، لا أبْرحُ أغفرُ لهم ما استغفرونى » (١) .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٣/ ٢٩ ، ٧٦ والحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد ، وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم وهو ضعيف فى روايته عنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكُم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » (١) رواه مسلم .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ قال : « سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته » (٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة : يا آدم : قم فابعث بعث النار فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ يشيب المولود ، ﴿ **وَتَضَعُ كل ذَات حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ** ﴾ [الحج : ٢] . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، وقالوا : يا رسول الله ! وأينا ذلك الواحد ؟ فقال ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد» فقال الناس : الله أكبر . فقال النبى ﷺ : « والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . والله إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبر الناس ، فقال : « ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض » (٣) .

فانظر كيف جاء بالتخويف ، فلما أزعج جاء باللطف ، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى ، فينبغى أن تزعج فإذا اشتد قلقها ، ينبغى أن تسكن ليعتدل الأمر .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليغفرن الله عزّ وجلّ يوم القيامة مغفرة لم تخظر على قلب بشر .

---

(١) أخرجه مسلم فى التوبة ٤/ ٢١٠٦ (١١) .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء ٦/ ٤٤٠ (٣٣٤٨) . ومسلم فى الإيمان ١/ ٢٠١ - ٢٠٢ (٣٧٩) .

وروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه وقال : إن أسلمت ، أضفتك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه ، فرده وأخبره فى الحال ، فتعجب من لطف الله تعالى . فأسلم .

فهذه الأسباب التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئاً من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك ، كعبد السوء الذى لا يستقيم إلا بالعصا .

الشطر الثانى من الكتاب في

الخوف وحقيقته
وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم : أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ويجوِّز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل يكون خوفه .

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية »[1]. وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القَلْب ، ثم ظهر على

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام ١٣/ ٢٩٠ (٧٣٠١) .

الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى ، وقد يفضى إلى الموت ، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل .

وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

قال بعضهم : من خاف أدلج [1] . وقال آخر : ليس الخائف من بكى ، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه .

ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضِّنَّة [2] بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضارٍ لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وصفاته ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وإن انظم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

فصل [الخوف سوط الله تعالى]

اعلم : أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى .

والخوف ، له إفراط ، وله اعتدال ، وله قصور .

---

(١) أدلج : أى سار أول الليل ، وفيه دليل على الهمة .

(٢) الضنة : البخل بالوقت وعدم إضاعته .

والمحمود من ذلك الاعتدال ، وهو بمنزلة السوط للبهيمة ، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليست المبالغة فى الضرب محمودة ، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، وهو كالذى يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب إلى الغفلة ، فهو خوف قاصر قليل الجدوى ، ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذى يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها ، وهذا هو الغالب على الناس كلهم ، إلا العارفين والعلماء ، أعنى العلماء بالله وبآياته ، وقد عز وجودهم ، وأما المرتسمون برسوم العلم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف .

وأما القسم الأول ، وهو الخوف المفرط ، فهو كالذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، فهو أيضاً مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج المرض والوله [1] والموت ، وليس ذلك محموداً ، وكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه ، فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والفكر ، والذكر ، والتعبد وسائر الأسباب التى توصل إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة ، مع صحة البدن وسلامة العقل ، فإذا قدح فى ذلك شيء ، كان مذموماً .

فإن قيل : فما تقول فيمن مات من الخوف ؟

فالجواب : أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة ، كان أفضل ، فإن أفضل السعادة طول العمر فى طاعة الله ، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران .

بيان أقسام الخوف

اعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . وأعلى من هذا خوف السابقة ،

---

(١) الوله : معناه ذهاب العقل .

لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل .

وقد قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » (١) .

ومن أقسام الخائفين : من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر .

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخوف من المناقشة والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

فصل [فى فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون الغالب منهما]

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهى لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ [الرحمن : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عزَّ وجلَّ تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » (٢) .

وفى حديث آخر : « لن يغضب الله على من كان فيه مخافة » .

وقال النبى ﷺ : قال الله عزّ وجلّ : « وعزتى وجلالى ، لا أجمع على عبدى

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٥/ ٢٣٩ عن معاذ بن جبل ولفظه : هذه فى الجنة ولا أبالى ، وهذه فى النار ولا أبالى .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ٣٤ (٤٦٨) وعزاه لسمويه والطبرانى عن العباس ورمز له بالضعف. وانظر مجمع الزوائد : ١٠/ ٣١٠ ، وانظر تاريخ بغداد : ٤/ ٥٦

خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا ، أمنته يوم القيامة » (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » (٢) .

واعلم : أن قول القائل : أيما أفضل : الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيما أفضل : الخبز أو الماء ؟

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل . ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ، كما يقال : الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع ، والسكنجبين يالج به مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل بهذا الاعتبار ، لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب .

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل ، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة ، والخوف يُستقى من بحر الغضب .

وأما المتقى ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ، لاعتدلا .

قال بعض السلف : لو نودى : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودى : ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا ينبغى أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى .

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٢٤٩٤) من حديث أبى هريرة ، وإسناده حسن .

وعزاه العراقى على هامش الإحياء ٤/ ١٧٠ للبيهقى فى الشعب وابن المبارك فى الزهد ، وابن أبى الدنيا .

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده : ٧/ ٣٠٨ (٤٣٤٦) . وإسناده حسن وصححه الضياء فى المختارة.

فإن قيل : كيف اعتدال الخوف والرجاء فى قلب المؤمن ، وهو على قدم التقوى ؟ فينبغى أن يكون رجاؤه أقوى .

فالجواب : أن المؤمن غير متيقن صحة عمله ، فمصله من بذر بذراً ولم يجرب جنسه فى أرض غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب وخفايا خبثه وصفائه من النفاق ، وخبايا الأخلاق غامضة ، والصواعق أهوال سكرات الموت ، وهناك تضطرب العقائد ، وكل هذا يوجب الخوف عليه ، وكيف لا يخاف المؤمن ؟

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغى لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به .

وقد قال سليمان التيمى عند الموت لمن حضره : حدثنى بالرخص ، لعلى ألقى الله وأنا أحسن الظن به .

فصل [فى بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف]

وذلك يحصل بطريقين :

أحدهما أعلى من الآخر . مثاله أن الصبى إذا كان فى بيت ، فدخل عليه سبع أو حية ، ربما لم يخف منه ، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها ، هرب الصبى ، وخاف موافقة لأبيه ، فخوف الأب عن معرفة ، وخوف الولد من غير معرفة ، بل هو تقليد لأبيه .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان

بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة .

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر ، والتفكر فى عذاب الآخرة ، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ، أو سماع أخبارهم .

المقام الثانى : الخوف من الله تعالى ، وهو خوف العلماء العارفين . قال الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وصفاته سبحانه تقتضى الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب .

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق ، كقطرة فى بحر ، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف ، ولكن بمجرد التقليد ، فهو يضاهى خوف الصبى من الحية تقليداً لأبيه ، فلذلك يضعف ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب ، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات ، واجتناب المعاصى ، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى ، خافه بالضرورة ، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخاف بالضرورة .

ومن قصر ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء .

وفى « صحيح مسلم » من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك الشر ولم يعمله ، قال : « أو غير ذلك ياعائشة ؟ إن الله عزّ وجلّ خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » [(١)] .

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف ، قوله تعالى : ﴿ وإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط ، يبعد تصحيحها .

---

(١) أخرجه مسلم فى القدر ٤/ ٢٠٥٠ (٣١) . وابن ماجه برقم ٨٢ ، وأحمد : ٦/ ٤١ .

ومن المخوفات قوله تعالى : ﴿ والعَصْر * إنَ الإنْسَانَ لَفى خُسْرٍ ﴾ [العصر : ١ ٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط ، بها يقع الخلاص من الخسران ، وقال تعالى : ﴿ولَوْ شئْنَا لآتينا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولَكن حَقَّ القَوْلُ منِّى لأمْلأن جَهَنَّمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجْمَعينَ ﴾ [السجدة : ١٣] .

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع فى التحيل ، فأما ما حُقَّ فى القدم، فلا يمكن تداركه ، فليس إلا التسليم ، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه .

ولما حضرت سفيان الثورى الوفاة ، جعل يبكى ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض وقال : لذنوبى أهون عندى من هذا ولكن أخاف أن أُسلب الإيمان قبل الموت

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

ويروى أن نبياً من الأنبياء ، شكا إلى الله تعالى الجوع والعرى ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرنى حتى تسألنى الدنيا ؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت ، فاعصمنى من الكفر .

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم ، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق .

قال بعضهم : لو أعلم أنى بريء من النفاق ، كان أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد ، إنما أرادوا نفاق الأعمال ، كما ورد فى

الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » (١) .

وسوء الخاتمة على رتبتين :

إحداهما أعظم ، وهى أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك ، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله ، فيقتضى ذلك العذاب الدائم .

والثانية دونها ، وهى أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالاعتراض ، أو يجوز فى وصيته ، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .

وقد روى أن الشيطان لا يكون فى حال أشد على ابن آدم من حال الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه كان يدعو : « اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » (٢) .

قال الخطابى : وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج عن مظلمة ، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت فلا يرضى بقضاء الله عزّ وجلّ .

والأسباب التى تفضى إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل ، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك ، أما الختم على الشك والجحود ، فسببه البدعة ومعناها أن يعتقد فى ذات الله تعالى ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً ، أو برأيه الفاسد ، فإذا انكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له .

ومن اعتقد فى الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة ٢/ ٩٤ (١٥٥٢) مطولاً . والنسائى فى كتاب الأستعاذة ٨/ ٢٨٢ - ٢٨٣

وأما الختم على المعاصى ، فسببه ضعف الإيمان فى الأصل ، وذلك يورث الانهماك فى المعاصى ، والمعاصى مطفئة لنور الإيمان ، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، فإذا جاءت سكرات الموت ، ازداد ذلك ضعفاً ، لاستشعاره فراق الدنيا ، فإن السبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة ، وهو حب الدنيا ، والركون إليها ، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد فى قلبه حب الله تعالى أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد من هذا الخطر ، وكل من مات على محبة الله تعالى ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم ، فضلاً عما يستحقه من الإكرام .

ومن فارقه الروح فى حال ، خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه فى فعله ، أو كان مصراً على مخالفته ، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من النكال .

فمن أراد طريق السلامة ، تزحزح عن أسباب الهلاك ، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال ، يقلقل قلوب الخائفين .

وقد ورد فى « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمن أهل الجنة وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار » [1] .

وروى : « إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء ، قالت الملائكة : سبحان الله ! نجا هذا العبد من الشيطان ، يا ويحه ! كيف نجا » ؟!

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة ، فاحذر أسبابها ، وأعد ما يصلح لها ، وإياك والتسويف بالاستعداد ، فإن العمر قصير ، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك ، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك ، والإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه .

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد .

واعلم : أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح ، إلا أن تقنع بما يقيمك ، وترفض طلب الفضول ، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك ، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك ، فتفكر فى اشتداد خوفهم ، لعلك تستعد لنفسك .

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى فى صفتهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] .

وقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال: « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته »[١]. وذكر تمام الحديث .

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله : لكن الذين يحلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كان ليلة أسرى بى رأيت جبريل عليه السلام كالشن [٢] البالى من خشية الله تعالى » .

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبى ﷺ وهو يبكى فقال له: « ما يبكيك قال : ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه ، فيلقينى فيها » .

وعن يزيد الرقاشى قال : إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة ، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى ، فيقول لهم الرب عزّ وجلّ : يا ملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى ؟ فيقولون : يارب ! لو أن أهل الأرض اطعلوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً

---

(١) الذى فى الإحياء ٤/ ١٩٠ قول رسول الله ﷺ : « ما جاءنى جبريل قط إلا وهو يرعد فرقاً من الجبار ». وقال الحافظ العراقى فى المغنى على هامش الإحياء : لم أجد هذا اللفظ .

(٢) الشن البالى : أى القربة البالية .

ولا شراباً ، ولا انبسوا فى فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المنكدر : لما خلقت النار ، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق آدم عادت .

وروى أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما : « ما هذا البكاء ؟ قالا : يارب ! ما نأمن من مكرك . فقال تعالى: هكذا فكونا » .

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب : بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام ، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة .

وقال وهيب بن الورد : لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام فى ابنه فقال : ﴿ **إنّى أعظُكَ أن تكُونَ منَ الجَاهلينَ** ﴾ [هود : ٤٦] بكى ثلاثمائه عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله عزَّ وجلّ .

وقال مجاهد : لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة ، خَرَّ لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى يارب : قرح الجبين ، وجمدت العين ، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شيء ، فنودى : أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحيباً هاج كل شيء نبت ، فعند ذلك غفر له .

وقيل : كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله عزّ وجلّ .

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً .

وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه ، فاتخذت أمه قطعتين من لبود [1] فألصقتهما بخديه .

ذكر خوف نبينا (ﷺ)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ قطُّ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته [2] إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك فى وجهه فقلت : يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرِفَت الكراهةُ فى وجهك ! فقال : « يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا »[3] أخرجاه فى « الصحيحين » .

وكان ﷺ يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[4] من البكاء .

ذكر خوف أصحابه رضى الله عنهم

روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل . وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضى الله عنهم .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً . وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال : يا ليتنى كنت هذه التبنة ، يا ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ، يا ليت أمى لم تلدنى ، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء .

وقال عثمان رضى الله عنه : وددت أنى إذا مت لا أبعث .

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كنت كبشاً فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى ، وحسوا مرقى .

---

(١) اللبود : كل ما تداخل فى بعضه من الشعر والصوف والوبر .

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٤) أزيز المرجل : صوت القدر إذا وضع على النار واشتد غليانه .

وقال عمران بن حصين : يا ليتنى كنت رماداً تذروه الرياح .

وقال حذيفة رضى الله عنه : وددت إن ليس إنساناً يكون فى مالى ، ثم أغلق عليَّ بابى ، فلا يدخل عليَّ أحد حتى ألحق بالله عزَّ وجلّ .

وكان مجرى الدموع فى خد ابن عباس رضى الله عنه كالشراك البالى .

وقالت عائشة رضى الله عنها : يا ليتنى كنت نسياً منسياً .

وقال على رضى الله عنه : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله تعالى ، يراوحون بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزَّ وجل ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان : وددت والله أنى شجرة أكلتنى ناقة ، ثم قذفتنى بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إنى أخاف الداهية الكبرى .

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغير ، فيقال : ما لك ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر .

وكان عمر پن عبد العزيز إذا ذكر الموت اتنتفض انتفاض الطير ، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته ، وبكى ليلة فبكى أهل الدار ، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : بأبى أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله تعالى ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير . ثم صرخ وغشى عليه .

ولما أراد المنصور بيت المقدس ، نتزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له : أخبرنى بأعجب ما رأيت من عمر . فقال : بات ليلة على سطح غرفتى هذه

وهو من رخام ، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب ، فصعدت فإذا هو ساجد ، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب .

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلى أنهما بكيا الدم .

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكرى : دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس وتفرغ لنفسه ، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة ، وذكر الموت . قال : فجعل يشهق حتى خرجت نفسه .

وقال مسمع : شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ ، فمات يومئذ فى ذلك المجلس أربعة أنفس .

وكان يزيد بن مرشد يبكى كثيراً ويقول : والله لو تواعدنى ربى أن يسجننى فى الحمام ، لكان حقى أن لا أفتر من البكاء ، فيكف وقد تواعدنى أن يسجننى فى النار إن عصيته ؟!

وقال السرى السقطى : إنى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسودّ وجهى .

فهذه مخاوف الملائمكة والأنبياء والعلماء والأولياء ، ونحن أجدر بالخوف منهم ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرف ، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا ، فالقلب الصافى تحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف : قلت لراهب : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهرام ، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه ، أو يسهو فينهشنه ، فهو مذعور فافعل . قلت : زدنى . فقال : الظمآن يجزيه من الماء أيسره .

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام ، فهو حقيقة فى حق المؤمن ، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته ، رآه مشحوناً بالسباع والهوام

كالغضب ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغير ذلك ، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن ، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها ، فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر ، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه ، وإنما هى صفاته الحاضرة الآن ، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام .

آخر كتاب الخوف .

* * *

٤ - كتاب الزهد والفقر

اعلم : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وبعضها أساس كل طاعة ، وقد سبق ذم الدنيا فى ربع المهلكات ، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها ، فإنه رأس المنجيات ، ومقاطعتها إما أن تكون بإنزوائها [١] عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ، ويسمى ذلك زهداً ، ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن نذكر الفقر ، والزهد ، ودرجاتهما وأقسامهما ، وما يتعلق بهما فى شطرين :

الشطر الأول من الكتاب فى الفقر

اعلم : أن الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه ، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود ، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى .

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره :

الأولى : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه بغضاً له ، واحترازاً من شره وشغله ، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً .

الحالة الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً .

الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه ، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه ، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص .

---

(١) الانزواء : التنحى بعيداً .

الخامسة : أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال ، كالجائع ، والعارى الفاقد للمأكول والملبوس ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة أو قوية .

وأعلى هذه الخمسة : الحالة الأولى ، وهى : الزهد ، ووراءها حالة أخرى أعلى منها ، وهى أن يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فإن وجده لم يفرح به ، ولم يتأذَّ إن فقده ، كما روينا عن عائشة رضى الله عنها أنها جاءها مال فى غرارتين [1] ففرقته فى يومها ، فقالت لها جاريتها : أما استطعت أن تشترى لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتينى لفعلت .

فمن هذه حالة لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى ، لا فى يد نفسه .

وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، ومتى كان الزاهد فى الدنيا لا يرغب فى وجودها ، ولا عدمها ، فهو فى غاية الكمال .

قال أحمد بن أبى الحوارى لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التى أهديتها لى ، فإن الشيطان يوسوس لى أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف الزهد ، هو قد زهد فى الدنيا ما عليه من أخذها ، فالهرب من المال والزهد فيه فى حق الضعفاء كمال ، فأما فى حق الأنبياء والأقوياء ، فسواء عليهم وجوده وعدمه ، وقد يظهر القوى النفار من المال ليقتدى به الضعفاء فى الترك ، والله أعلم .

فصل

فى فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى فى معرض المدح فى حق الفقراء : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ

---

(١) الغرارة : جمع غرائر ، والكيس الذى يوضع فيه الدراهم والدنانير .

أحصرُوا فى سَبِيل الله ﴾ الآية [البقرة : ٢٧٣] . وقال : ﴿ **لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أخْرِجُوا من دِيَارِهم** ﴾ . . . الآية [الحشر : ٨] .

وأما الأخبار فكثيرة ، منها قوله ﷺ : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجد محبوسون . . . » وذكر تمام الحديث . وهو فى «الصحيحين » (١) .

وفيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٢) .

وفيهما من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض (٣) .

وفى أفراد مسلم من حديث عمر رضى الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلا (٤) يملأ بطنه (٥) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » (٦) وقال الترمذى : حديث صحيح .

وقال ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « إياك ومجالسة الأغنياء » (٧) .

وقال : « يُؤتَى بالعبد يوم القيامة فيعتذِرُ الله عزّ وجلْ إليه كما يعتذِرُ الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويتُ الدنيا عنك لهوانك عليّ

---

(١) أخرجه البخاريب فى النكاح ٩/٢٠٩ (٥١٩٦) . ومسلم فى الذكر ٤/٢٠٩٦ (٩٣) .

وأصحاب الجد : قيل : أصحاب البخت والحظ فى الدنيا والغنى والوجاهة بها ، وقيل : أصحاب الولايات.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة .

(٤) الدقل : التمر الردئ .

(٥) أخرجه مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٨٥ (٣٦) .

(٦) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٩٩ (٢٣٥٣) وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٧) أخرجه الترمذى فى اللباس ٤/ ٢١٥ (١٧٨٠) عن عائشة وقال : هذا حديث غريب ، وصالح بن حسان : منكر الحديث .

ولكن لما أعددتُ لك من الكرامة . أخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمَنْ أطْعَمَكَ أو كَساك يريدُ بذلك وجهى ، فخذْ بيده فهو لك » .

وقيل لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته .

وقال أبو الدرداء : حساب ذى الدرهمين أشد حساباً من ذى الدرهم .

وكان الفقراء يتقدمون فى مجلس سفيان الثورى على الأغنياء .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها ، وقال : تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء ؟! لا أفعل .

وقال النبى ﷺ : « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقنع بما آتاه الله عزّ وجلّ » (١) .

وقد ذكرنا فى القناعة وذم الحرص والطمع فى كتاب ذم المال ما يغنى عن الإعادة ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر .

وأما التفضيل بين الغنى والفقير ، فظاهر النقل على تفضيل الفقير ، ولكن لا بد من تفضيل ، فنقول : إنما يتصور الشك والخلاف فى فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى شاكر ينفق ماله فى الخيرات ، أو فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخير أفضل من الفقير الحريص ، فإن كان متمتعاً بالمال فى المباحات ، فالفقير القنوع أفضل منه .

وكشف الغطاء فى هذا أن ما يراد لغيره ، ولا يراد لعينه ، ينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ، بل لكونها عائقة عن

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة ٢/ ٧٣٠ (١٢٥) . والترمذى فى الذهد برقم ٢٣٤٨ وقال : حسن صحيح .
وقوله : كفافاً : الكفاف : هو الذى لا يفضل عن الشئ ويكون بقدر الحاجة إليه .

الوصول إلى الله تعالى ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم التشاغل عنه .

وكم من غنى لا يشغله الغنى عن الله تعالى ، كسليمان عليه السلام ، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما .

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود ، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به ، وإنما الشاغل له حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى ، فإن المحب للشيء مشغول به ، سواء كان فى فراقه ، أو فى وصاله ، بل قد يكون شغله فى الفراق أكثر .

والدنيا معشوقة الغافلين ، فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تجد ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم ، جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر ، وقد تقدم ما يدل على فضله .

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ، كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغنى ما شاء الله تعالى أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فقال : أى أخى ، ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أى أخى : حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض ، لصدرت عنه رواءً » (1) .

واعلم : أن فراق المحبوب شديد ، فإذا أحببت الدنيا ، كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً كان

---

(1) أخرجه الإمام احمد فى المسند ١/ ٣٠٤ من حديث ابن عباس وفى إسناده رجل سماه « حسن » لم أستطع تميزه من غيره .

أذاه فى فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغى أن تحب من لا يفارقك ، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التى تفارقك .

فصل [فى آداب الفقير فى فقره]

ينبغى له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر .

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً ، ويكون متوكلاً على الله سبحانه ، واثقاً به ومتى عكس الحال ، وكان يشكو إلى الخلق ، ولا يشكو إلى الله تعالى ، كان الفقر عقوبة فى حقه ، فلا ينبغى له إظهار الشكوى ، بل يظهر التعفف والتجمل . قال الله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

وينبغى للفقير أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، ولا يرغب فى مجالسته .

وينبغى له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع بذل ما فضل عنه فإن ذلك جهد المقل . روى أبو ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل إلى فقير فى السر » (١) .

بيان
آدابه فى قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغى أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ، وغرضه فى الأخذ .

[الأول] أما فى نفس المال ، فينبغى أن يكون خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه .

وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه ، وما يستحب .

وأما غرض المعطى ، فلا يخلو ، إما أن يكون طلباً للمحبة ، وهو الهدية ، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ١٧٨/٥ من حديث أبى ذر مطولاً .

الثانى : أن يكون غرض المعطى الثواب ، وهو الزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان صدقة ، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارناً لمعصية فى السر ، يعلم أن المعطى لو علم بذلك ، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه ، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن .

الثالث : أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة ، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ، ولا يأخذه ، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد . وأما غرضه فى الأخذ ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه ؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه وإن كان محتاجاً إليه ، وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها ، فالأفضل له الأخذ ، لما روى عن عمر رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف [1] ولا سائل ، فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » أخرجاه فى «الصحيحين » [2] .

وفى حديث آخر : « من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة ، فليقبله ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه » [3] .

فصل [فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فى السؤال]

اعلم : أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه ، وفى الترخيص فيه .

أما الترخيص : فكقوله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » [4] وفى بعض

---

(١) مشرف : أى متطلع .

(٢) متفق عليه من حديث عمر .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ وأبو يعلى فى المسند برقم ٩٢٥ وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه أبو داود فى الزكاة ٢/ ١٣٠ (١٦٦٥) من حديث الحسين بن على ، وفى إسناده يعلى بن أبى يحيى لم يوثقه إلا ابن حبان .

الأحاديث : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » [1] . ولو كان السؤال حراماً ، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه ، والإعطاء إعانة .

وأما أحاديث النهى عن السؤال : فروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عزّ وجلّ وليس فى وجهه مزعة لحم » [2] أخرجاه فى « الصحيحين » .

وفيهما أيضاً : أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . واليد العليا المعطية ، والسفلى السائلة .

وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه : أنه ﷺ قال : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه . . . » [3] إلى آخره . وهو حديث حسن ، وفى المعنى أحاديث كثيرة .

وكشف الغطاء فى هذا أن نقول : السؤال فى الأصل حرام ، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور :

أحدها : الشكوى .

والثانى : إذلال نفسه ، وما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه .

والثالث : إيذاء المسؤول غالباً .

وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة . أما المضطر ، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وكسؤال العارى الذى ليس له ما يواريه .

وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها فى الشتاء ، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة ، فكذلك من يقدر على المشى لكن بمشقة

---

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة ٥/ ٨١ وأحمد فى المسند ٤/ ٧٠

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٣) أخرجه أصحاب السنن عن ابن مسعود ، والكدوح : الجروح .

يجوز له أن يسأل أجرة يكترى بها للركوب ، وتركه أولى . ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم ، فله أن يسأل مع الكراهة ، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة .

وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى ، ولا يسأل سؤال محتاج ، بل يقول : أنا مستغن بما أملكه ، وإنما النفس تطالبنى ، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى .

وينبغى أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى لا ينقص بذلك فى عينه ، أو السخى الذى أعد ماله للمكارم ، فيخرج بذلك من الذل .

وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً ، لم يجز له الأخذ ، ويجب رده إلى صاحبه .

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه ، من بيت يسكنه ، وثوب يستره ، وطعام يقيمه .

ويراعى فى هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق فى شيء من ذلك ، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم ، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته ، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه ، أو خاف أن يعجز عن السؤال ، أبيح له السؤال أكثر من ذلك .

ولا يجوز له فى الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته ، وعلى هذا يتنزل الحديث المروى فى تقدير الغنى بخمسين درهماً [1] ، فإنها تكفى المنفرد المقتصد لسنة ، فأما ذو العائلة فلا .

بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافى يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا من الروحانيين .

---

(١) وحد الغنى قرره النبى ﷺ فى حديث رواه الترمذى فى الزكاة ٣/ ٤٠ - ٤١ (٦٥٠) عن ابن مسعود وحسنه وفيه : من سأل الناس وله ما يغنيه .... وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب » .

وفقير لا يسأل ، وإن أعطى أخذ ، فذاك من أهل حظيرة القدس .

وفقير إذا احتاج سأل ، فكفارة مسألته صدقه فى السؤال .

قال الشيخ جمال الدين رحمه الله : قلت : وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال ، لم يجز له أن يسأل ، فإن كان يندفع على مضض نظرت فإن كان مثله لا يحتمل ، ولا يخاف منه التلف ، فالسؤال مباح وتركه فضيلة ، وإن كان مثله لا يحتمل ، وجب عليه أن يسأل .

قال سفيان الثورى رحمه الله : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

* * *

الشطر الثانى من الكتاب :

وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته
وذكر درجاته وأقسامه

اعلم : أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً فى نفسه لم يسم زاهداً ، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً .

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا ، ومن زهد فى كل شيء سوى الله تعالى ، فهو الزاهد الكامل ، ومن زهد فى الدنيا مع رغبته فى الجنة ونعيمها ، فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

واعلم : أنه ليس من الزهد ترك المال ، وبذله على سبيل السخاء والقوة ، واستمالة القلوب ، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة .

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب ، والآخرة كالدر يبقى ، قويت رغبته فى بيع

هذه بهذه . وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] وقوله : ﴿ مَا عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦].

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُم فِيهِ ﴾ [طه : ١٣١] .

وقال النبى ﷺ : « من أصبح وهمه الدنيا ، شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة ، جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة » (١) .

وقال الحسن : يحشر الناس عراةً ما خلا أهل الزهد ، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها ، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها .

وقال الفضيل : جعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

وكان بعض السلف يقول : الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن .

فصل [فى درجات الزهد وأقسامه]

من الناس : من يزهد فى الدنيا وهو لها مشتهٍ ، لكنه يجاهد نفسه ، وهذا يسمى: المتزهد ، وهو مبدأ الزهد .

الدرجة الثانية : أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك ، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه ، فيكاد يعجب بنفسه ، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هم أعظم قدراً منه كما يترك درهماً لأخذ درهمين ، وهذا أيضاً نقصان .

الدرجة الثالثة : وهى العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى أنه ترك

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/ ١٣٧٥ (٤١٠٥) عن زيد وإسناده صحيح . وأحمد فى المسند : ٥/ ١٨٣ من حديث زيد بن ثابت وأخرجه الترمذى فى صفة القيامة ٤/ ٥٥٤ (٢٤٦٥) عن أنس وسكت عنه .

شيئاً ، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء ، فيكون كمن ترك خرقة ، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال فى الزهد .

واعلم : أن مثل من ترك الدنيا ، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فألقى لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل ، فقرب من الملك ، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب فى باب الله عزّ وجلّ ، ويمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة ، فمن تركها لينال عز الملك ، فكيف يلتفت إليها ؟ ثم إن نسبتها ، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمَّر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، لأن الفانى لا نسبة له إلى الباقى ، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة ؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فعلى ثلاث درجات :

أحدها : الزهد للنجاة من العذاب ، والحساب ، والأهوال التى بين يدى الأدمى وهذا زهد الخائفين .

الدرجة الثانية : الزهد للرغبة فى الثواب ، والنعيم الموعود به ، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم .

الدرجة الثالثة : وهى العليا . وهو أن لا يزهد فى الدنيا لتخلص من الآلام ، ولا الرغبة فى نيل اللذات ، بل لطلب لقاء الله تعالى ، وهذا زهد المحسنين العارفين فإن لذة النظر إلى الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى لذات الجنة ، كلذة ملك الدنيا والاستيلاء عليها ، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به .

فصل [فى بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة]

والضروريات المهمات سبعة أشياء : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه والمنكح والمال ، والجاه .

فأما الأول - وهو المطعم - فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ .

وفى الحديث : « إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » [١] .

وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة : كان يمر بنا هلال ، وهلال ، وهلال ، ما يوقد فى بيت رسول الله ﷺ نار : قال : قلت : يا خالة : فعلى أى شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : الماء والتمر [٢] .

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة .

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم ، وكانفيهم من لا يطيق ذلك . فكان الثورى حسن المطعم ، وربما حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالوذج .

وفى الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه ، ولا يزيد فى التنعم ، إلا أن الأبدان تختلف ، فمنها ما لا يحمل التخشن .

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته [٣] ، فلا يخرجه ذلك من الزهد ، فقد كان السبتى يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته .

وورث داود الطائى عشرين ديناراً ، فأنفقها فى عشرين سنة .

الثانى : الملبس ، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ، ويستر العورة ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل ، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة ، وكان أكثر لباس السلف خشناً ، فصار لبس الخشن شهرة .

وقد روى عن أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضى الله عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً ، وقال : قبض رسول الله ﷺ فى هذين أخرجاه فى « الصحيحين »[٤] .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند : ٥/٢٤٣ - ٢٤٤ من حديث معاذ .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة أخرجه البخارى فى الهبة (١) ومسلم فى الزهد رقم ٢٨ ، ٣٠ .

(٣) أى ليقتات منه مدة من الزمان .

(٤) متفق عليه من حديث أبى بردة .

وعن الحسن قال : خطب مر رضى الله عنه وهو خليفة ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة .

الثالث : المسكن ، فللزاهد فيه ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، بل يقنع بزوايا المساجد ، كأصحاب الصفة .

وأوسطها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخ من سعف ، أو خص وما أشبه ذلك .

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . ومتى طلب السعة وعلو السقف ، فقد جاوز حد الزهد فى المسكن . وقد توفى رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة .

قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ، نلتُ السقف .

وفى الحديث : « إن المسلم ليؤجر فى كل شيء ينفقه إلا فى شيء يجعله فى هذا التراب » (١) .

وقال إبراهيم النخعى رحمه الله : إذا كان البنيان كفافاً ، فلا أجر ولا وزر .

وفى الجملة : إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الزهد .

الرابع : أثاث البيت ، فينبغى للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف ، ويستعمل الإناء الواحد فى مقاصده ، فيأكل فى القصعة ، ويشرب فيها ، ومن خرج إلى كثرة العدد فى الآلة ، أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن الزهد .

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ . ففى « صحيح مسلم » من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، فنظرت فى خزانة رسول الله ﷺ ، فإذا أنا بقبضة من شعير ، نحو الصاع ، وفى رواية البخارى : فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور فى « صحيح مسلم » (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى المرضى ١٠/ ١٣٢ (٥٦٧٢) . وأحمد : ٥/ ١٠٩ .

(٢) أخرجه مطولاً مسلم فى الطلاق ٢/ ١١٠٨ - ١١٠ (٣١) . وابن ماجه برقم ٤١٥٣ .

وقال على رضى الله عنه : تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش ، كنا ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح [1] بالنهار ، وما لى خادم غيرها ، ولقد كانت تعجن ، وإن قُصتها [2] لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذى بها .

ودخل رجل على أبى ذر رضى الله عنه ، فجعل يقلب بصره فى بيته ، فقال : يا أبا ذر ! ما أرى فى بيتك متاعاً ، ولا أثاثاً . فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

الخامس : المنكح ، لا معنى للزهد فى أصل النكاح ، ولا فى كثرته .

قال سهل بن عبد الله : « حبب إلى رسول الله ﷺ النساء » [3] .

وكان على رضى الله عنه منت أزهد الصحابة ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية .

وكان أبو سليمان الدارانى يقول : كل ما شغلك عن الله ، من أهل ، ومال ، وولد ، فهو مشؤوم .

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول : من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه تعين عليه النكاح ، فأما من لا يخاف ، فهل النكاح فى حقه أفضل أو التعبد ؟ فيه اختلاف بين العلماء . والناس مختلفون فيه ، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة ، فلا يقدح ذلك فى دينه ، ولا يتشتت قلبه ، بل يجمع النكاح همه ، ويكف بصره ، ويرد فكره ، فهذا غاية فى الفضيلة ، وعليه يحمل حال رسول الله ﷺ ، وحال على رضى الله عنه ، ومن جرى مجراهما ، ولا

---

(١) الناضح : البعير الذى ينقل عليه الماء .

(٢) القصة : بضم القاف : شعر الناصية إذا نزل على الجبهة .

(٣) أخرجه النسائى فى عشرة النساء ٧/ ٦١ عن أنس يرفعه : حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عينى فى الصلاة .

وأحمد فى المسند : ٣/ ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥

التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح ، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود .

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة ، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل ، والنفقة عليها أقل ، والاهتمام بأمرها يسير ، بخلاف المستحسنة ، فإنها تشتت القلب ، وتشغله وتريد زيادة فى النفقة ، وربما لم يكن .

وقد قال : مالك بن دينار : يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة [1] الحى فتقول : أريد مرطاً [2] فَتَمْرُطُ [3] دِينَه .

السادس : المال : وهو ضرورى فى المعيشة ، فالزاهد يقتصر منه لى ما يدفع به الوقت ، وكان فى الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف .

وكان حماد بن سلمة ، إذا فتح حانوته وكسب حبتين ، قام .

وكان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت ، وخلف أربعمائة دينار ، وقال : إنما تركتها لأصون بها عرضى ودينى .

السابع : الجاه ، ولا بد للإنسان من جاه فى قلب خادمه ، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه فى القلب ، فينبغى أن يتحرز من شر ذلك .

وفى الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا ، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال ، فيقولون : لا نأخذه ، نخاف أن يفسد علينا ديننا .

فصل

فى بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال ، وإظهار التخشن

(١) أى جميلة الحى من النساء .

(٢) المرط : بكسر الميم ، كساء من صوف أو خز تلتف به المرأة .

(٣) وتمرط دينه : أى تذهب به .

سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من راهب قد لازم الدير ، وقلل المطعم وقوّاه على ذلك حب المحمدة ، كما سبق ذكره فى كتاب الرياء .

ولا بد من الزهد فى فضول الأموال والجاه جميعاً ، حتى يكمل الزهد فى حظوظ النفس ، فأول معرفة الزهد مشكل .

وقد قال ابن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وينبغى أن يعوّل فى هذا على ثلاث علامات :

الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ [الحديد : ٢٣] ، وهذا علامة الزهد فى المال .

الثانى : أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، وهذه علامة الزهد فى الجاه .

الثالث : أن يكون أنسه بالله ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة .

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى ، فهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، إذا دخل الماء خرج الهواء ، فلا يجتمعان .

قيل لبعضهم : إلام أفضى بهم الزهد ؟ قال : إلى الأنس بالله .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها [١] ، والزاهد يسخم[٢] وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها .

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه .

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الماشطة : التى تزين الشعر وتتخذ منه حرفة ومهنة ، وهى ما تسمى الآن بالكوافير .

(٢) يسخم : أى يسود ، من السخمة وهى السواد .

٥ - كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٢] . وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، ثم قال : « هم الذين لا يكتوون (١)، ولا يسترقون (٢) ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . أخرجاه فى « الصحيحين » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » (٣) . وكان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم إنى أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك » (٤) .

والتوكل يبتنى على التوحيد ، والتوحيد طبقات :

منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فيصدق بهذا اللفظ لكن من غير معرفة دليل ، فهو اعتقاد العامة .

الثانية : أن يرى الأشياء المختلفة ، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

---

(١) يكتوون : يعتقدون الشفاء فى الكى .

(٢) يسترقون : يطلبون الرقية .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٩٥ (٢٣٤٤) عن عمر وقال : حديث حسن صحيح .

وخماصاً : جائعة ، وبطاناً : ممتلئة البطن .

(٤) ذكره السيوطى فى الجامع ١/ ٩٥ (١٥٢٣) وعزاه لأبى نعيم فى الحلية ، عن الأوزاعى مرسلاً . والحكم عن أبى هريرة ورمز له بالضعف .

الثالثة : أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، لم ينظر إلى غيره ، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل ، لأنه فى الحقيقة هو الفاعل وحده ، فسبحانه والكل مسخرون له ، فلا يعتمد على المطر فى خروج الزرع، ولا على الغيم فى نزول المطر ، ولا على الريح فى سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور .

ومن انكشفت له الحقائق ، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها ، ولا بد لها من محرك . فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتضرب عنقه فوقع له الملك بالعفو عنه ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد [1] والقَلم الذى كتب به التوقيع ، ويقول : لولا هذا القلم ما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهذا غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه ، شكر الكاتب دون القلم ، وكل المخلوقات فى قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم فى يد الكاتب ، فسبحان مسبب الأسباب الفعَّال لما يريد .

فصل

فى بيان أحوال التوكل وأعماله وحده

اعلم : أن التوكل مأخوذ من الوكالة ، يقال : وكل فلان أمره إلى فلان ، أى فوّض أمره إليه ، واعتمد فيه عليه .

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء : الشفقة ، والقوة ، والهداية . فإذا عرفت هذا ، فقس عليه التوكل على الله سبحانه ، وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل سواه ، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء علمه علم ، ولا وراء رحمته رحمة ، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك ، فسببه أحد أمرين :

---

(١) الكاغد : أى الكتاب ، وهى كلمة فارسية معرفة .

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال .

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين ، فإنه من كان يتناول عسلاً ، فشبه بين يديه بالعذرة [1] ، ربما نفر طبعه منه ، وتعذر عليه تناوله .

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت ، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال ، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن فى القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه ، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه .

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ، وقوة اليقين جميعاً ، فإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التى تسمى توكلاً ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات .

الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله فى الثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهى أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه ، وأول سابق إلى لسانه : يا أماه . فمن كان تألهه إلى الله ، ونظره إليه ، واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبى بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً.

والفرق بين هذا وبين الأول ، أن هذا متوكل قد فنى فى توكله عن توكله ، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه ، ولا مجال فى قلبه لغيره .

وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، بل له التفات إليه ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده .

---

(١) العذرة : الفضلات الآدمية - البراز - .

الدرجة الثالثة : وهى أعلى منهما ، أن يكون بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاسل ، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً ، وهذا يفارق حال الصبى مع أمه فإنه يفزع إلى أمه ، ويصيح ويتعلق بذيلها .

وهذه الأحوال توجد فى الخلق ، إلا أن الدوام يبعد ، ولا سيما المقام الثالث .

فصل

فى بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض مالخرقة ، وكلحم على وضم [1] ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع .

والشرع قد أثنى على المتوكلين ، وإنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقاصده ، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب ، أو حفظ موجود كالإدخار ، وإما لدفع ضرر لم ينزل ، كدفع الصائل [2] ، أو لإزالة ضرر قد نزل ، كالتداوى من المرض ، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة .

الفن الأول : فى جلب المنافع ، فنقول : الأسباب التى بها تجلب المنافع على ثلاث درجات :

أحدها : سبب مقطوع به كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، مثاله : أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع فلا تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ، ومد اليد إلى الطعام سعى ، وكذلك مضغه وابتلاعه ، فهذا جنون محض ، وليس من التوكل فى شيء ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام ، أو يخلق فى الطعام حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله .

---

(١) الوضم : كل شئ يجعل عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض .

(٢) الصائل : أى المعتدى .

وكذلك لو لم تزرع ، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع ، فكل ذلك جنون ، وليس التوكل فى هذا المقام ترك العمل بل التوكل فيه بالعلم والحال .

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسباب ، وقوة الحركة ، وأنه الذى يطعمك ويسقيك .

وأما الحال ، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى ، لا على اليد والطعام ، لأنه ربما جفت يدك ، وبطلت حركتك ، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام ، فمد اليد إلى الطعام لا ينافى التوكل .

الدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متيقنة ، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً إلى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمجرب[1] على الله تعالى ، وفعله منهى عنه ، وحمله للزاد مأمور به ، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة .

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل فى أهل الحرص إذا طلب فضول العيش .

وترك التكسب ليس من التوكل فى شيء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعللوا بالتوكل .

قال عمر رضى الله عنه : المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله .

الفن الثانى : فى التعرض للأسباب بالإدخار ، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه ، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

(١) أى الممتحن لله كأنه يجرب قدرة الله تعالى ، وهذا سوء أدب مع رب العزة .

وفى « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، « أن النبى ﷺ كان يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم » [(١)] .

فإن قيل : فقد نهى رسول الله ﷺ بلالاً أن يدخر فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغى أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُفَّة كان مقتضاها عدم الإدخار ، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب فى دعوى الحال لا على الإدخار الحلال .

الفن الثالث : مباشرة الأسباب الدافعة للضرر . ليس من شرط التوكل ترك كل الأسباب الدافعة للضرر ، فلا يجوز النوم فى الأرض المسبعة [(٢)] ، أو مجرى السيل أو تحت الجدار الخراب ، فكل ذلك منهى عنه .

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع ، وإغلاق الباب ، وشد البعير بالعقال . قال الله تعالى : ﴿ **وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٢] .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : « أعقلها وتوكل » [(٣)] .

ويتوكل فى ذلك كله على المسبب لا على السبب ، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه . ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق ، أو أخذ يشكو ما جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل .

وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعنى ما قدمه ، وإن منعه فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذينى لما منعنى .

واعلم : أن كل من لا يعتقد فى لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الطبيب

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) أى الأرض التى يكثر فيها السباع .

(٣) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة ٤/ ٥٧٦ (٢٥١٧) عن أنس بن مالك وقال الترمذى : هذا حديث غريب ونقل عن يحيى بن سعيد القطان قوله : وهذا عندى حديث منكر .

الحاذق الشفيق ، لم يصح توكله ، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء ، وأحل الآخذ شفقة على المسلمين . فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله ، فقال : إن لم يكن غمك كيف صار فى المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك ، فما نصحت المسلمين .

الفن الرابع : السعى فى إزالة الضرر ، كمداواة المريض ونحو ذلك .

اعلم : أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

إلى مقطوع به ، كالماء المزيل لضرر العطش ، والخبز المزيل لضرر الجوع ، فهذا القسم ليس تركه من التوكل فى شيئ .

القسم الثانى : أن يكون مظنوناً ، كالفصد ، والحجامة [١] ، وشرب المسهل ونحو ذلك . فهذا لا يناقض التوكل ، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوى .

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلا، كما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : رآنى الطبيب . قيل : فما قال لك ؟ قال : إنى فعال لما أريد .

قال المصنف رحمه الله : والذى ننصره أن التداوى أفضل ، وتحمل حال أبى بكر رضى الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء ، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات .

واعلم : أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى .

القسم الثالث : أن يكون السبب موهوماً ، كالكى ، فيخرج عن التوكل ، لأن النبى ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون [٢] .

وقد حمل بعض العلماء الكى المذكور فى قوله : «لا يكتوون » على ما كانوا

---

(١) الفصد : هو قطع العروق حتى يسيل منها الدم .
والحجامة : مص الدم من مؤخر الرأس .
(٢) انظر الحديث فى أول كتاب التوحيد والتوكل .

يفعلونه فى الجاهلية ، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون فى زمن العافيه لئلا يمرضوا فإن النبى ﷺ كان يرقى الراقية بعد نزول المرض ، وقد كوى أسعد بن زرارة رضى الله عنه .

وأما شكوى المريض ، فهى مخرجة عن التوكل ، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى ، فكان الفضيل يقول : أشتهى مرضاً بلا عوّاد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف أنت ؟ قال : بخير . قال حممت البارحة[1] ؟ قال : إذا قلت لك : أنا بخير ، فلا تخرجنى إلى ما أكره .

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده ، فإنه لا يضره . وقد كان بعض السلف يفعل ذلك ، ويقول : إنما أصف قدرة الله فّى ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة ، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها ، ولا يكون ذلك شكوى .

وقد روينا أن النبى ﷺ قال : «إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم »[2] .

آخر التوكل.

* * *

(١) أى هل أصابتك الحمى البارحة .

(٢) أخرجه البخارى فى المرضى ١٠/١٦٦ (٥٦٤٨) . ومسلم فى البر ٤/ ١٩٩١ (٤٥) .

٦ - كتاب المحبه والشوق والأنس والرضا

اعلم : أن المحبة لله تعالى هى الغاية القصوى من المقامات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق ، والأنس ، والرضى ولا قبل المحبه مقام إلا وهو من مقدماتها ، كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها .

واعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض ، ومن شواهد المحبة قوله تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ [المائدة : ٥٤] . وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبًّا لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله ، وإثبات التفاوت فيه .

وفى الحديث الصحيح : الصحيح : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «ما أعددت لها ؟ » قال : يارسول الله : ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت » [١] ، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها .

وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال: يا ملك الموت اقبض [٢] .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : من عرف ربه أحبه ، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب الرسول ﷺ فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والاتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، ولا محبوب فى الحقيقة ند ذوى البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه .

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) قال الحافظ العراقى فى المغنى على هامش الإحياء ٤/ ٣١٢ لم أجد له أصلاً .

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب :

أحدها : أن الأنسان يحب نفسه ، وبقاءه ، وكماله ، وداوم وجوده ، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا جبلة [1] كل حى لا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضى غاية المحبة لله عزّ وجلّ ، فإن الإنسان إذا عرف ربه ، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله ، وأنه المخترع له ، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصرى : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها .

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه .

السبب الثانى : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولا طفه وواساه ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه ، فإنه محبوب عنده لا محالة .

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط . وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨] .

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر ، ولكنا نبين أن الأحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وأن المحسن فى الحقيقة هو الله تعالى .

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه ، وما يملك ، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسان بماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثه له على صرف المال . فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه ، وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه ودنياه فى الإحسان إليك ، ولولا ذلك ما أعطاك ، فكأنه صار مقهوراً فى التسليم لا يستطيع مخالفته . فالمحسن هو الذى

---

(١) جبلة : أى خلقة .

اضطره وسخره لك ، فهو جار مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعه خلعها عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى محسناً خلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه ، لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعى ، ويلقى فى نفسه أن حظه فى بذل ذلك فيبذله . فينبغى للعارف أن لا يحب إلا الله ، إذ الإحسان من غيره محال .

السبب الثالث : أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطف بهم وهو فى قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد فى نفسك ميلاً كثيراً إليه . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك . وهذا ما يقتضى حب الله تعالى ، بل يقتضى أن لا يحب غيره إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة ، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم وترفيههم ، إلى غير ذلك من النعم التى لا تحصيى كما قال تعالى : ﴿ **وإن تَعُدُّوا نَعمة الله لا تُحصوُها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] . فكيف يكون غيره محسناً ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى .

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم ، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع إلى علمهم بالله تالى وملائكنه وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث . ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى ، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى .

أما العلم ، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل حتى لا يعزب [١] عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . وقد خاطب الخلق كلهم فقال : ﴿ **وَمَا أوتيتم من الْعلم إلاَّ قَليلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

---

(١) يعزب : يبعد أو يغيب .

ولو اجتمع أهل السموات والأرض ، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة ، أو بعوضة ، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلق كلهم ، بتعليمه علموه . ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة ، فهى أيضاً صفة كمال ، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، وجدت أعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً وأجمعهم للقدرة لى سياسة نفسه وسياسة غيره ، غاية قدرته أن بقدر على بعض صفات نفسيه ، وعلى بض امتحان الإنس فى بض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولا على حفظ لسانه من الخرس ، ولا آذانه من الصمم ، ولا بدنه من المرض ، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ، فليست قدرته من نفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضه على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه

قال الله تعالى فى حق آعظم ملوك الأرض ذى القرنين: ﴿ **إنا مكنَّا لَه فى الأَرض** ﴾ [الكهف : ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إَلا بتمكين الله تعالى ، فنواصى الخلق جميعهم فى قبضته وقدرته ، إَن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذزة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه ، فلا قادر إِلا هو، فله الكمال والعظمه والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء . فإن تصور أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وله فلا يستحق ذلك سواه ، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إَلا له سبحانه ، فهو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصند الذى لا منازع له الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وكمال معرفه العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

فصل [فى بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه]
والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر
على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم : أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة غريزة لذة ، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً ، بل لأمر من الأمور ، وهو مقتضاها بالطبع ، فغريزة شهروة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، ولذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع .

وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، وقد تسمى العقل ، وتسمى البصيرة الباطنة ، وتسمى نور الإيمان واليقين ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمر كلها بطبعها ، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة ، وذلك لذتها .

وليس يخفى أن العلم والمعرفة ، ولو فى شيء خسيس يفرح به ، وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شيء خسيس يغتم به . وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته ، فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالشعر والنحو كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم ، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها .

وليت شعرى ، هل فى الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزيِّنها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟! وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟!

فينبغى أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس فإن

المعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خيّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة ، وقهر الأعداء ، ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كل المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء ، وإن كان عليَّ الهمة ، كامل العقل ، فإنه يختار الرياسة ، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً .

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة ، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة ، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويحتقر الخلق، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكون ذلك مشوباً بالكدر ، مقطوعاً بالموت . وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع فى رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ هى أبدية سرمدية ، لا يقطعها الموت ، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى إذ محلها الروح ، وإنما الموت يغير أحوالها ، أما أن يعدمها فلا .

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون ، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر ، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيها قليلة الجدوى ، فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله عزّ وجلّ خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى ؟!

وقال بعض أصحاب معروف : قلت له : أى شيء أهاجك على العبادة ؟ فسكت. فقلت : ذكر الموت ؟ فقال : وأى شيء الموت ؟ قلت : ذكر القبر . وقال:

وأى شيء القبر ؟ قلت : خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده ، إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك .

وقال أحمد پن الفتح : رأيت بشر بن الحارث فى منامى ، فقلت له : ما فعل معروف الكرخى ؟ فحرك رأسه ثم قال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه .

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص ، صار قلبه مستغرقاً بها ، ولا يلتفت إلى جنة، ولا يخاف من نار ، فإنه قد بلغ النعيم الذى ليس فوقه نعيم . قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره وفي ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب فى معرفة الله تعالى . وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، وأما القلب فلذته فى لقاء الله تعالى فقط .

واعلم : أن لذة النظر فى الآخرة تزيد على المعرفة فى الدنيا ، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ، ومقتضى الشهوات ، وما يغلب عليها من الصفات البشرية ، لا تنتهى إلى المشاهدة ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار .

والقول فى سبب كونه حجاباً يطول ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا من الأكدار ، تجلَّى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم فى الدنيا .

فكل من لا يعرف الله تعالى فى الدنيا ، لا يراه فى الأخرة . وما يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ،فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة ، والعيش عيش الآخرة . ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ** ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

وعيش الآخرة بقدر المعرفة ، ولهذا جاء فى الحديث : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله »[1] وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ولذتها ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال .

فصل

فى بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس فى الحب وبيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أقواهم حباً لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ، ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نعيم المحب إذ قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة ، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة .

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه ، فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين :

أحدهما : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسباب ضعف حبه ، قوة حب الدنيا ، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله والدنيا والآخرة ضرتان ، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء ، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك .

السبب الثانى لقوة المحبة : معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/ ٤٨٩ (٢٣٢٩ ، ٢٣٣٠) عبد الله بن بسر ، وقال الترمذى حسن غريب وعن أبى بكرة وقال الترمذى حسن صحيح .
والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣٩٨ (٢٧٤٢) عن أبى بكرة . وأحمد : ٤/ ١٨٨ .

ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي والذكر الدائم ، والتشمير فى الطلب ، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها ، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات .

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فكلها الذى هى مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة [1] والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاه فى فلاة والكرسى فى العرش كذلك .

ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض ، فانظر فيه بعقل حاضر ، كيف خلقه الله عزّ وجلّ على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، وزاده الجناحين ، وانظر كيف شق سمعه وبصره ، وخلق فى باطنه من أعظاء الغذاء وآلاته ، ودبره فى سائر أحواله ، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة ، وانظر كيف خلق له الطيران ، يطير إذا طلب ، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم .

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقذار ، وطاعتها إلى كبيرها ، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً ، وإلى اختيارها الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتاً مربعاً ، ولا مستديراً ، ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصيته فى الشكل المسدس ، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يرقب منه فإن المربع تخرجة منه الزوايا ضائعة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، فلا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه

---

(١) قوله : أن الشمس فى السماء الرابعة ، إنما هو اجتهاد قد يصيب فيه وقد يخطأ . لكن لم يثبت فى ذلك خبر عن سيدنا رسول الله ﷺ يمكن الرجوع إليه فى ذلك .

بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس ، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه ، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات فالنظر فى هذه وأشباهه تزداد المعرفة به ، فتزداد المحبة .

وأما السبب فى تافوت الناس فى الحب .

فاعلم أن الناس مشتركون فى أصل الحب ، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت أسماعهم والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله ، فتزداد عظمة الله فى قلبه ، فيزداد حباً له ، وتجر هذه المعرفة التى هى معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له .

وأما السبب فى صور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه ، ولى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس ، فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا .

وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله ، إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها : إنه ليس وجودها بنفسها ، وإنها تحتاج إلى موجود لها لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية ، كالخفاش بالنسبة إلى النهار ، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه ، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش ، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدارك الحضرة الإلهية ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى به عن اليصائر والأبصار فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى ، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى ، إنما يدركها الإنسان فى حال الصبا قبل حضور العقل عنده ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم مشغول به ، وقد أنس بمدركاته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس .

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً ، أو نباتاً ، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة ، انطلق لسانه بالتعجب ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه ، وجميع أعضائه ، وجميع الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة ، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها .

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاوة عينه ، فامتد بصره إلى السماء والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان دفعة واحدة ، لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب ، وشهادتها لخالقها ، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات ، وهو الذى سد على الخلق فى سبيل الاستضاءة بنور المعرفة ، والسباحة فى بحارها الواسعة ، والله أعلم وأحكم .

فصل فى بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام فى المحبة وإثباتها بالأدلة ، وأن الشوق ثمرة من ثمارها ، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه .

واعلم : أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه .

فأما ما لا يدرك أصلاً ، فلا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، وإنما يكون ذلك فى الآخرة .

واعلم : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ويبقى أمور لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهى الشوق الأول فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق فى الدنيا .

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال يوماً : ياربِّ ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فاعطنى ، فقد أضر بى القلق . قال : فرأيته عزّ وجلّ فى النوم ، فقال : يا إبراهيم ! أما استحييت منى ؟! تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يارب : تُهْتُ فى حبك فلم أدر ما أقول .

فهذا الشوق يسكن فى الآخرة . وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به ، فهو مشغول بلذة ما ظهر له ، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

ومن شواهد الأخبار ، ما روى أن رسول الله صلى ﷺ علم رجلاً دعاء ، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه : « أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك » (١) .

وفى التوراة : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً .

وفى بعض ما أوحى الله عز] وجلّ إلى بعض عباده : إن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ، وأشتاق إليهم ويشتاقون إليَّ ، ويذكرونى وأذكرهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال : يا رب ! وما علامتهم ؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يرعى الراعى الشفيق غنمه ؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل (٢) ، واختلط الظلال وفرشت الفرش ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا أقدامهم ، وافترشوا وجوههم وناجونى بكلامى ، وتملقونى بأنعامى ، فبين صارخٍ وباكٍ ، وبين متأوهٍ وشاكٍ وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى .

فصل فى بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد ، فاعلم :

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾

(١) أخرجه النسائى فى كتاب السهو ٣/ ٥٤ - ٥٥ عن عمار بن ياسر . وأحمد : ٥/ ١٩١ عن زيد .

(٢) جنهم الليل : يعنى غطاهم وسترهم بظلمته .

الآية (الصف : ٤] . ونبه على أنه لا يعذب من يحبه ، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنوبِكُم ﴾ [المائدة : ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِر لَكُم ذُنوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وفى الحديث الصحيح ، من رواية أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : « ما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه . . . » إلى آخره [١] . وهو حديث مشهور .

ومن علامة حب الله تعالى للعبد ، قول النبى ﷺ : « إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه »[٢] .

ومن أقوى العلامات ، حسن التدبير له ، يربيه من الطفولة على أحسن نظام ويكتب الإيمان فى قلبه ، وينور له عقله ، فيتبع كل ما يقر به ، وينفر عن كل ما يبعد عنه ، ثم يتولاه بتيسير أموته ، من غير ذل للخلق ، ويسدد ظاهره وباطنه ويجعل همه هماً واحداً ، فإذا زادت المحبة ، شغله به عن كل شيء .

وأما محبة العبد لله تعالى ، فاعلم :

أن المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان ، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يمتحنها بالعلامات ، ويطالبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى فى الجنة ، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته ، وهذا لا ينافى كراهة الموت ، فإن المؤمن يكره الموت ، ولقاء الله بعد الموت .

ومن السلف من أحب الموت ، ومنهم من كرهه ، إما لضعف محبته ، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا ، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب .

---

(١) جزء من حديث قدسى صحيح ، سبق تخريجه من حديث أبى هريرة فى الصحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد ٤/٥١٩ (٢٣٩٦) عن أنس مرفوعاً بلفظ : وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم . . . الحديث .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة ، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى ، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فيحب أن يتأخر قدومه سلعة ليهيئ له داره ، ويعدل له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه ، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال المحبة وعلامة هذا : الدؤوب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه ، فيجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل .

ومن أحب الله فلا يعصيه ، إلا أن العصيان لا ينافى أصل المحبة ، إنما يضاد كمالها ، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب ، فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوماً ، فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله ﷺ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (١) فلم تخرجه المعصية عن المحبة ، وإنما تخرجه عن كمال المحبة .

ومن العلامات أن لا يكون مُسْتَهْتراً (٢) بذكر الله تعالى ، لا يفتر (٣) عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ، ومن ذكر ما يتعلق به .

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره ، وحب القرآن الذى هو كلامه ، وحب رسول الله ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إن كُنْتُم تُحبُّون الله فَاتَّبِعُونى يُحْبِبكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقال بعض السلف : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة ، فكنت أدمن قراءة القرآن ثم لحقتنى فترة فانقطعت ، فرأيت فى المنام قائلاً يقول :

---

(١) أخرجه البخارى فى الحدود ١٢/ ٧٧ (٦٧٨٠) عن عمر بن الخطاب .

(٢) مستهتراً : أى مولع به .

(٣) يفتر : أى يضعف .

إن كنت تزعمُ حبى   فَلِمْ هجــرتَ كتابي
أمــا تدبرت مــا فيـ   ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ، ومناجاة الله تعالى ، وتلاوة كتابه ، فيواظب لى التهجد ، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته .

روى أن عابداً عبد الله فى غيضة [1] دهراً ، فنظر إلى طائر قد عشش فى شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها . فقال : لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً .

فإذن علامة المحبة ، كمال الأنص بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة وكمال الأستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة .

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الحب والأنس قلبه ، حتى لا يفهم أمور الدنيا ، ما لك تتكرر على سمعه مراراً ، مثل العاشق الولهان .

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى ، ويتنعم بالطاعة ، لا يستثقلها ويسقط عنه تعبها .

قال ثابت البنانى رحمه الله : كابدت [2] الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

وقال الجنيد : علامة المحبة دوام النشاط ، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وكل هذا موجود المثال فى المشاهدات ، فإن المحب لا يستثقل السعى فى مراد محبوبه ، ويستلذ خدمته بقلبه ، وإن كان شاقاً على بدنه ، وكل حب قاهر لا

(١) الغيضة : هى مغيض الماء يجتمع فينبت فيه الشجر .

(٢) كابدت الصلاة عشرين سنة : أى أنها كانت ثقيلة عليه طوال هذه المدة حتى فتح الله عليه وهداه إلى رحابه .

محالة، فمن كام محبوبه أحب إليه من الكسل ، ترك الكسل فى خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ، ترك المال فى حبه .

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على أعدائه ، كما قال تعالى : ﴿ **أشدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُم** ﴾ [الفتح : ٢٩] ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب له صارف ، فهذه علامات المحبة ، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته ، وصفا فى الآخرة شرابه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله ، تنعم فى الآخرة بقدر حبه ، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ **إنَّ الأبرَارَ لَفى نَعيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يُسْقَوْنَ من رَحيق مَخْتُوم * خِتَامُهُ مسْكٌ وَفى ذَلكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافسُونَ * ومزَاجُهُ من تَسْنيم * عَيْناً يَشْرَبُ بهَا المُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٢ - ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف ، والمشوب بالمشوب . ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّة شراً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

ومنها أن يكون فى حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم ، فإن الخوف لا يضاد المحبة ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضها أشد من بعض فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد .

ومنها كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبة وغيره على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب فى دهش وسكر ، فيظهر عليه الحب من غير قصد ، فهو فى ذلك معذور ، كما قال بعضهم :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم

فصل فى بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عزّ وجلّ

اعلم : أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره ، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة .

قال عبد الواحد بن زيد : قلت لراهب : لقد أعجبتك الخلوة ، فقال : لو ذقت

حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك ، قلت : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود ، خلصت المعاملة ، قلت : متى يصفو الود ؟ قال: إذا اجتمع الهم ، فصار هماً واحداً فى الطاعة .

فإن قيل: ما علامة الأنس ؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرم بهم ، وإن خالط ، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب .

واعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكراً فى الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس . وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام ، أشرف به على صاحبه على الكفر ، وذلك كما يرى عن أبى حفص أنه كان يمشى يوماً ، فاستقبله رجل مدهوش [1] ، فقال : ما لك ؟ قال : ضل حمارى ، ولا أملك غيره ، فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، فظهر الحمار .

وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقى فقال : يا رب : أنت بالبخل لا ترمى أنفذ ما عندك ، اسقنا الساعة .

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره . وأما الرضى بقضاء الله تعالى ، فهو من أعلى مقامات المقربين ، وهو من ثمار المحبة ، وحقيقته غامضة ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى .

ومن فضائل الرضى ما ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له » [2] .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود : إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عندك ، ولا أحط لوزرك ، من الرضى بقضائى .

ونظر على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عدى بن حاتم كئيباً ، فقال : يا

---

(١) مدهوش : أى متحير .

(٢) أخرج الترمذى فى القدر : ٣٩٦/٤ (٢١٥١) عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله ﷺ من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له .... الحديث وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وحماد بن أبى حميد : ليس بالقوى .

عدي: ما لى أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعنى فقد قتل ابناى ، وفقئت عينى فقال : يا عدى ! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله عز وجلّ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الرَّوح والفرح فى اليقين والرضى ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

وقال علقمة فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] قال : هى المصيبة تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى .

وقال أبو معاوية الأسود فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] قال : الرضى والقناعة .

وفى الأخبار السالفة : أن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه عزّ وجلّ الجوع والفقر عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك ؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتى وجلالى ، لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونَّك من ديوان النبوة .

وفى « زبور داود » عليه السلام : هل تدرى من أسرع الناس مراً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى .

وقال داود عليه السلام : يا رب ! أيُّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر ، فخرت له ، فلم يرض .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر .

وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله عزّ وجلّ .

وقال الحسن : من رضى بما قسم له وسعه وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضى باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وقال بعضهم : لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال ، فمن وهب له الرضى ، فقد بلغ أفضل الدرجات .

وأصبح أعرابى وقد مات له أباعر(1) كثيرة ، فقال :

لا والـذى أنا عبد فى عبادته   لولا شـماتة أعـداء ذوى إحن
ما سرنى أن إبلى فى مباركها   وإن شيئاً قضاه الله لم يكن (2)

فصل

يتصور الرضى فيما يخالف الهوى

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى ، وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم فتارة يحس به ويدرك ألمه ، ولكنه يكون راضياً به ، راغباً فى زيادته بعقله ، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب . مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راضٍ به ، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام .

وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح ، فإنه يدرك مشقة السفر ، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة ، وجعله راضياً بها ، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين ، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته ، فيرضى بما زصابه ، ويشكر الله تعالى عليه ، ويجوز أن يغلبه الحب ، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه . ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب ، وليس ذلك بعجيب ، فإن الرجل المحارب فى حال غضبه أو خوفه ، تصيبه الجراحات ولا يحس بها ، ولا يشعر بها فى تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق ، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه ، وذلك موجود فى المشاهدات .

قال الجنيد رحمه الله : سألت سرياً هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا .

---

(1) أباعر : جمع بعير وهو الجمل .

(2) يقصد أن رضاءه بقضاء الله وحبه له أكثر من حبه لبعيره .

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء ، أنهم كانوا يقولون : لو قطعنا إرباً إرباً[1] ، ما ازددنا له إلا حباً .

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم ، وهو متصور فى حب الخلق ، كما حكى بعضهم . قال : كان فى جيراننا رجل له جارية يحبها ، فاعتلت ، فجلس يصلح لها حَسَاءً [2] ، فبينما هو يحرك القدر ، قالت : أوه ، فدهش وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم .

ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام ، فإنهن قطعن الأيدى وما أحسسن بألم ، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، وإذا كان ذلك ممكناً فى حق الخلق وحظوظهم ، كان ممكناً فى حق الله سبحانه ، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى ، وإمكان ذلك فى ثلاثة أوجه :

أحدها : علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره .

وقد قال النبى ﷺ : « ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له » [3] .

وعن مكحول قال : سمعت ابن عمر رضى الله عنه يقول : إن الرجل يستخير الله فيختار له ، فيسخط فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة ، فإذا هو قد خير له .

وعن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظ للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم ، والكلب يحرسهم ، فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبى [4] من حلوهم وبَقُوا هُمْ ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من

---

(١) إرباً : أى قطعاً صغيرة .

(٢) الحساء : طعام يتخذ من دقيق وماء وزيت ، وقد يحلى . إفادة اللسان .

(٣) اخرج الإمام احمد فى المسند : ١١٧/٣ عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عجبت للمؤمن إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيراً له .

(٤) السبى : أى النهب وأخذ الناس ليكونوا عبيداً أو إماء .

الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب ، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال : لقمان لابنه : يا بنى : لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت فى الضمير أن ذلك خير لك . قال : أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت . قال : يا بنى : فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ما قلت لك . قال : اذهب بنا إليه ، فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودوا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً وليالى ، حتى تلقتهما مفازة [1] ، فأخذا أهبتهما ودخلاها ، فسارا ما شاء الله أن يسيرا ، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد ، فاستبطا حماريهما ، فنزلا يمشيان ، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه ، فإذا هو بسواد ودخان ، فقال فى نفسه : السواد شجر والدخان عمران وناس ، فبينما هما كذلك يشهدان ، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق ، فدخل فى باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها ، فخز مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها ، فنظر إلى أبيه يبكى فقال: يا أبت ، أنت تبكى وأنت تقول : هذا خير لى ، فكيف ذلك وأنت تبكى ؟! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان . قال : أما بكائى يا بنى ، فوددت أنى أفتديتك بجميع حظى من الدنيا ، ولكنى والد ومنى رقة الوالد. وأما قولك : كيف يكون هذا خيراً لى ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد ، فقال فى نفسه : لم أر شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربى بما رأيت شيئاً ، فبينما هو يتفكر فى ذلك ، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً ، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً ،فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ؟

---

(١) المفازة : هى المنجاة ، سميت بذلك تفاؤلاً .

قال : نعم . قال : ما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : يا عبد الله من أنت ؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يرانى إلا ملك مقرَّب ، أو نبى مرسل ، لولا ذلك لرأيتنى ، فما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : أما علمت ذلك؟ فقال جبريل : ما لى بشيء من أمركما علم ، إلا أن حفظتكما (1) أتونى وقد أمرنى ربى تعالى بخسف هذه المدينة ، فدعوت ربى أن يحبسكما عنى بما شاء فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام ، فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذى كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً ، ومسح على الذى كام فيه ماء فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير ، فإذا هما فى الدار التى خرجا منها بعد أيام وليالى .

الوجه الثانى : الرضى بالألم ، لما يتوقع من الثواب المدخر ، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء .

الوجه الثالث : الرضى به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم :

* فما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وقد سبق أن الحب يستولى بحيث يدهش عن إدراك الألم ، ولا ينبغى أن ينكر ذلك من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ولعمرى إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات فمن فقد القلب ، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب .

فصل
فى أن الدعاء لا يناقض الرضا

واعلم : أن الدعاء لا يناقض الرضى ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها وأسبابها ، والسعى فى إزالتها .

---

(1) يقصد الحفظة من الملائكة .

أما الدعاء ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم .

وأما إنكار المعاصى وعدم الرضى بها ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وذم الراضى به، وكذلك بغض الكفار والفجار ، والإنكار عليهم ، وشواهد ذلك فى القرآن والأخبار كثير جداً .

فإن قيل : فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى ، فهو محال ، وإن كانت بقضائه ، فكراهتها كراهة لقضائه ، فكيف الجمع بين هذين الحالين ؟

فاعلم : أن هذا مما يتلبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم ، حتى التبس على قوم ، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضى والكراهة يتضادان ، رذا تواردا على شيء واحد ، من جهة واحدة ، على وجه واحد . فأما إذا رضيت بشيء من وجه وكرهته من وجه آخر ، فليس ذلك بمتضاد ، نحو أن يموت عدوك الذى هو أيضاً عدو لبعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك ، وكذلك للمعصية وجهان : وجه إلى الله تعالى ، من حيث إنها اختياره وإرادته ، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغيضاً عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، ولا ينكشف هذا بمثال ، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدى محبة : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى ، وأنصب لذلك معياراً صادقاً وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدواً ، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لى ، وكل من أبغضه علمت أنه محبى وصديقى ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق فى محبته أن يقول : أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه ، فأنا محب

له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك ، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذا كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعى الشهوة والمعاصى على العبد ، وبغضه على عصيانه .

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عزّ وجلّ ، ويعادى من عاداه وأبعده من حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين موافقة لمحبوبهم ، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم ، والمبالغة فى مقتهم ، مع الرضى بقضاء الله تعالى من حيث أنه قضاؤه ، وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه ، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضى به .

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، والوقوف مع ما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى ، والله تعالى أعلم .

ومما يتعلق بالمحبة .

قيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إليَّ وتقطعت أوصالهم من محبتى .

يا داود : هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى فى المقبلين عليَّ ؟

يا داود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأجل ما يكون عندى إذا رجع إليَّ .

وكانت امرأة متعبدة تقول : والله لقد سئمت الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى ، وحباً للقائه ، فقيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟

باب فى النية والإخلاص والصدق

اعلم : أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

فالناس كلهم هلكى ، إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم (١) .

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء.

قال الله تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وليت شعرى ، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحيح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى ، أن يعلم النية أولاً ، لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص الذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة . ونحن نذكر ذلك فى ثلاثة فصول :

الفصل الأول

فى النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الأنعام : ٥٢] والمراد بالإرادة : النية .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٢) .

وعن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت

---

(١) سبق تخريجه وهو حديث لا أصل له ، أورده بعضهم فى الموضوعات .

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وصدر به أكثر المحدثين كتبهم .

الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّة ، ويقاتل رياءً ، أيُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » [1] .

أخرجاهما فى « الصحيحين » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شاركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض » أخرجه مسلم ، وأخرجه البخارى من حديث أنس [2] .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » [3] .

وعن أبى كبشة الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً ، فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالاً ، وهو يقول : لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه ، ينفقه فى غير حقه . ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً ، فيقول: لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الوزر سواء » [4] .

وعن أبى عمران الجونى قال : تصعد الملائكة بالأعمال ، فينادى الملك : ألق تلك الصحيفة ، قال : فتقول الملائكة : ربنا قال خيراً وحفظناه عليه . فيقول تبارك وتعالى : إنه لم يرد به وجهى . قال : وينادى الملك : اكتب لفلان كذا وكذا مرتين فيقول : يا رب : إنه يعمله ، فيقول عزّ وجلّ : إنه قد نواه .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى موسى .

(٢) أخرجه البخارى عن أنس ، ومسلم عن جابر .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٤/ ١٤١٣ (٤٢٢٨) . من حديث أبى كبشة الأنمارى .
وقوله : « يتخبط فيه : أى يجرى فيه من غير هدى ، ويصرفه فى الباطل » .

وكان بعضهم يقول : دلونى على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى ، فقيل له : أنو الخير ، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل ، فالنية تعمل وإن عدم العمل ، فإنه من نوى أن يصلى بالليل فنام ، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله .

وقد جاء فى الحديث : « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه » (١) .

وقد جاء فى الحديث : « نية المؤمن خير من عمله » (٢) .

والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد .

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : المعاصى ، فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من يبنى مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فإن النية لا تؤثر فيه ، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ، هيهات !

واعلم : أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، يتكالبون على الدنيا ، ويتبعون الهوى ، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم ، إذا علم فساد نياتهم ومقاصدهم .

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص ، فإن مقاصد أكثرهم معروفة ، وقصدهم اجتلاب الدنيا ، وأخذ الأموال كيف اتفق ، فتعليمهم إعانة على الفساد ، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد .

وأما المعصية ، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها .

القسم الثانى : الطاعات ، وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها ، وفى تضاعف

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى إقامة الصلاة ١/ ٤٢٦ - ٤٢٧ (١٣٤٤) .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٥٥٦ (٩٢٩٥ ، ٩٢٩٦) وعزاه للبيهقى فى الشعب عن أنس وضعفه . وللطبرانى عن سهل بن سعد ، وسكت عنه .

فضلها ، أما الأصل ، فهو أن ينوى عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل ، فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

مثال ذلك القعود فى المسجد ، فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة : منها أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة ، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح ، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد ، وإلى ذكر الله تعالى فيه ، ونحو ذلك ، فهذا طريق تكثير النيات ، فقس على ذلك سائر الطاعات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة .

القسم الثالث : المباحات ، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات ، تصير بها قربات ، وينال بها معالى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة .

ولا ينبغى أن يحتقر العبد الخطرات والخطوات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه فى القيامة ، لم فعله ، وما الذى قصد به ؟

مثال ما ينوى به القربة من المباحات أن يتطيب ، وينوى بالطيب اتباع السنة واحترام المسجد ، ودفع الروائح الكريهة التى تؤذى مخالطيه .

وقال الشافعى رحمه الله تعالى : من طاب ريحه زاد عقله .

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه ، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه .

وقال بعض السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية ، حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة ، ومن النكاح تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده ، أثيب على ذلك كله ، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وصحح نيتك قبل أن تفعل ما تفعله ، وانظر فى نيتك فيما تتركه أيضاً .

واعلم : أن النية هى انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها إما فى الحال أو المآل ، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية ، فقال عند أكله : نويت أن آكل لله ، أو عند قراءته : نويت أن أقرأ لله ، وظن أن ذلك نية وليس كذلك ، إنما النية انبعاث القلب ، وتجرى مجرى الفتوح من الله تعالى وليست النية داخلة تحت الاختيار ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر ، وإنما تتيسر له فى الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا .

والناس فى النيات على أقسام :

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف .

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء . وثمة مقام أرفع من هذين ، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، وهذه لا تتيسر لراغب فى الدنيا ، وهى أعز النيات وأعلاها ، وقليل من يفهمها ، فضلاً عن أن يتعاطاها ، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر فى جلاله حباً له .

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة فى منامه ، فقال له : كل الناس يطلبون منى ، وأبو يزيد يطلبنى (١) .

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة فى الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها ، ومن حضرت له نية فى المباح ، ولم تحضر فى فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه .

مثال ذلك أن تحضره نية فى الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته فى الحال إلى الصلاة والصوم ، فالأكل والنوم أفضل ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه ، فذلك أفضل من التعبد حينئذ .

قال على عليه السلام : روحوا القلوب ، واطلبوا له طُرَف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان .

---

(١) أى أنه يطلب الله عز وجل لذاته ، لأن حب الله تعالى أنساه كل شئ وأصبح لا ينظر إلى غيره .

وقال بعضهم : روحوا القلوب تعى الذكر .

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء ، فإن الحاذق فى الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعد ذلك القاصر فى الطب ، وإنما يبتغى به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر من بين يدى قرنه حيلة منه ليستجره إلى مضيق . فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والمبصر الموفق يقف فى تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى لهم استبعاد ما خفى عليهم ، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك ، أو ينالوا ذلك المقام .

الفصل الثاني

فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدّينَ** ﴾ [البينة : ٥] وقال : ﴿ **ألا لله الدّينُ الخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٣] وغير ذلك من الآيات .

وقال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » [(١)] .

وفى حديث أنس رضى الله عنه أنه قال : « إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة ، فيقول الله عز وجل : القوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلاَّ ما كان . فيقول : إن هذا كان لغيرى ، ولا أقبل اليوم إلاَّ ما كان لى » [(٢)] .

وعن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه فيوحى الله تعالى إليهم : أنتم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه، إن عبدى لم يخلص فى عمله ، فاجلعوه فى سجّين ، ويصعدون بعمل العبد

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ١/ ٢٤ (٢٩٨) وعزاه لابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، والحاكم فى المستدرك عن معاذ ورمز له بالصحة ، مع أن فيه انقطاع وضعف .

(٢) أخرجه النسائى فى السنن بغير هذا اللفظ .

يستقلونه ، فيوحي الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين » [1] .

ويروى عن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله ، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله قال : إذا أنت لم تعبدها ، فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها . فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك من ذلك ، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك، قال : فمن لي بذلك ؟ قال : أنا لك . فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً ، فقام غضبان ليقطعها ، فتمثل له الشيطان في صورته فقال: ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله . قال : كذبت ، ما لك إلى قطعها سبيل ، فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله ، ثم قال له : أتدري من أنا ؟ فأخبره أنه الشيطان ، وقال : جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لي عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين فتركتها ، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين ، فسلطت عليك .

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يا نفس اخلصي وتخلصي .

وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلاَّ الله تعالى .

وحكي أن رجلا كان يخرج في زي النساء ، فيحضر حيث يحضرون من عرس أو مأتم ، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء ، فسرقت درة ، فصاحوا : أغلقوا الباب حتى نفتش ، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أطلقوا الحرة ، فقد وجدنا الدرة .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي إخلاصاً .

---

(١) أخرجه الدارقطني من حديث أنس بن مالك .

والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصاً ، فهو مشرك ، إلاَّ أن الشرك درجات .

فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية .

والشرك منه جلي ، ومنه خفي ، وكذلك الإخلاص ، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء ، أو من غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو للتخلص من شر يعرض له ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ، ونحو ذلك . فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص .

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور فلذلك قيل : من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى ، نجا وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى .

قيل لسهل : أي شيء أشد من النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

واعلم : أنَّ الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة ، بعضها جلي ، وبعضها خفي وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه .

ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل ، فليطلب هناك ، وحاصله أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل ، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه .

وقد قيل : ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل ، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة ، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد [1] خير من دينار يرتضيه الغر الغبي [2] .

فصل

في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به .

أما العمل الذي لا يريد به إلاّ الرياء ، فهو على صاحبه لا له ، وهو سبب للعقاب ، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب ، ولا إشكال في هذين القسمين ، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس .

وقد اختلف الناس في ذلك ، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً ، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك .

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوماً وتساقطاً ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أقوى ضر ، وأوجب العقاب ، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء ، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله تعالى: **﴿ إنَّ الله لا يَظْلِمُ مثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضاعفْها ﴾** [النساء : ٤٠] .

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس ، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي ، لم ينفك السفر عن ثواب . وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع ، حصل له الثواب ، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً ، والله أعلم .

---

(١) الناقد : هو الصيرفى الذي يعلم جيد الدراهم من معيبه .

(٢) الغر : بالكسر : غير المجرب ، أو الغافل الجاهل عديم الفهم .

الفصل الثالث
في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » [١] رواه البخاري ومسلم .

وقال بشر الحافي : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس .

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل في معان :

أحدها : الصدق في القول ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، ولا يتكلم إلاَّ بالصدق ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها .

وينبغي أن يحترز عن المعاريض ، فإنها تجانس الكذب إلاَّ أن تمس الحاجة إليها وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال ، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورَّى [٢] بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله ، وقال ﷺ : « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أو نمى خيراً » [٣] .

وينبغي أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض . فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب .

الثاني : الصدق في النية والإرادة ، وذلك يرجع إلى الإخلاص ، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة : العالم ، والقارئ ، والمجاهد . لما قال القارئ : قرأت القرآن إلى آخره ، إنما كذبه في إرادته ونيته ، لا في نفس القراءة ، وكذلك صاحباه .

الثالث : الصدق في العزم والوفاء به .

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) ورى : أي أوهم أو خدع المنافقين أنه يريد أن يغزوا غيرهم .

(٣) أخرجه البخارى في الصلح ٥/٣٥٣ (٢٦٩٢) . ومسلم فى البر ٤/٢٠١١ (١٠١) .

أما الأول : فنحو أن يقول : إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد تكون صادقة ، وقد يكون فيها تردد .

وأما الثاني : فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد ، لأنه لا مشقة فيه إلاّ إذا تحققت الحقائق ، وانحلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ مَن المُؤْمنينَ رجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيه ﴾ [الأحزاب : ٢٣] وقال في آية أخرى : ﴿ وَمنْهُم مَنْ عَاهَدَ الله لَئنْ آتَانا من فَضْلِه لنصَّدَّقَنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وبِمَا كَانُوا يَكْذبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧] .

الرابع : الصدق في الأعمال ، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته ، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه ، ويكون الباطن بخلاف ذلك ، قال مطرف : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عزَّ وجلَّ : هذا عبدي حقاً .

الخامس : الصدق في مقامات الدين ، وهو أعلى الدرجات ، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل ، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، فالصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً . قال الله تعالى : ﴿ وَلَكنَّ البرَّ مَن آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخر .. ﴾ إلى قوله: ﴿ أولَئكَ الذينَ صَدَقُوا وأولَئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] وقال تعالى : ﴿ إنَّمَا المُؤْمنُونَ الَّذينَ آمَنُوا بالله وَرَسُوله ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأمْوَالِهم وَأنفُسهم في سَبيلِ الله أولَئكَ هُمُ الصَّادقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول : ما من عبد يؤمن بالله إلاَّ وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة ، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور ، ثم إنَّه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية ، ولذلك قال عامر بن عبد قيس : عجبت للجنة نام طالبها ، وعجبت للنار نام هاربها .

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي ، فإذا قوي سمي صادقاً ، وإذا علم

الله من عبد صدقاً صغا له [1] ، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز ، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض . ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً ، وكراهة إطلاع الخلق على ذلك .

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عملَتْ من خَيْرٍ مُحْضراً وَما عَملَتْ من سُوء تَوَدُّ لَوْ أَن بَيْنَها وبينه أَمَداً بَعيداً وَيحذِّرُكُمُ الله نفسه** ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، وقال : ﴿ **وَنضعُ الموازين القسْطَ لِيوم القِيَامَة فَلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً وإنْ كَانَ مثْقَالَ حبَّة من خَرْدَل أتَيْنا بهَا وَكَفَى بنَا حَاسبينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال : ﴿ **وَوُضعَ الكتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمينَ مُشْفقينَ مماَّ فيه وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هذا الكتَاب لاَ يُغَادرُ صَغيرَةً وَلاَ كَبيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمَلُوا حَاضراً ولاَ يَظْلمُ ربُّكَ أَحَداً** ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقال: ﴿ **يَوْمَئذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ليُرَوْا أَعْمالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مثْقالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّة شَراً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٦-٨] . فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة .

وتحقيق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلاَّ لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة . فمن حاسب نفسه في الدنيا ، خف في القيامة حسابه ، وحسن منقلبه . ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته . فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلاَّ الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذيَن آمَنُوا اصْبرُوا وَصَابرُوا وَرَابطُوا** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ، وأصلها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، ولا بد من شرح ذلك المقام .

المقام الأول – المشارطة :

اعلم : أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح ، ويشارطه ويحاسبه كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس ، ويوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها

---

(١) صغا له : أي مال إليه .

الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال ، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى . فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا . فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلاَّ العمر ، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة وطلب الربح ،وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأخَّر أجلي ، وأنعم علي به . ولو توفاني لكنت أتمني أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت ، فإياك إياك أن تضيعي هذا اليوم ، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له خزانة ، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لووزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها . وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها ، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيئ من المباح، ويتحسر على خلوها ، ويناله ، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته ، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك .

قال بعضهم : هب أن المسيئ قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته . ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إلى النفس ، فإنها رعايا خادمة لها في هذه التجارة المخلدة ، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم

سبعة على عدد هذه الأعضاء . فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها .

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنىً عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله ﷺ ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به ، ولا سيما اللسان والبطن ، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فيشغله بما خلق له ، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، إلى غير ذلك من الخير .

وأما البطن ، فيكلفه ترك الشره ، واجتناب الشبهات والشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة ، في النوافل التي يقدر عليها ، وعلى الاستكثار منها . وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك ، فيستغني عن المشارطة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيئ من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك ، إذ قلَّ أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » [(١)] .

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٥٠ (٢٤٥٩) وقال : حديث حسن . وابن ماجه برقم ٤٢٦٠ وأحمد : ٤/ ١٢٤ .

وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

المقام الثاني : المراقبة :

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها . وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله ﷺ قال: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) ، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة .

قيل : دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شيئ ، فقال له ممن أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة .

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل ، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة ؟ فإن كان الله تعالى أمضاه ، وإلاَّ تركه وهذا هو الإخلاص .

قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

فهذه مراقبة العبد في الطاعة ، وهو أن يكون مخلصاً فيها ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم ،الإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمة لابد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ١٤٠ (٥٠) . ومسلم في الإيمان ١/ ٤٠ (٧) .

وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقوة . وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب ، لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

المقام الثالث : المحاسبة بعد العمل :

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ، وَلتَنْظُرْ نَفْس مَا قَدَّمَتْ لغَد** ﴾ [الحشر : ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه . وقال : إن المؤمن يفاجأه الشيئ يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيئ فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، ما لى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إنَّ المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله .

واعلم : أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم .

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي ، وليحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط .

قيل : كان توبة بن الصمة بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن

ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي إحدى وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلنا ! ألقى الملك بإحدى وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب !! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول : يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى !

فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة ، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿ **أحصاه الله ونسوه** ﴾ .

المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها :

اعلم : أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفه الذنوب ويعسر عليه فطامها ، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده .

وكما روي عن عمر رضي الله عنه : أنه خرج إلى حائط [1] له ، ثم رجع وقد صلى الناس العصر . فقال : إنما خرجت إلى حائطي ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، فجعلت حائطي صدقة على المساكين . قال الليث : إنما فاتته الجماعة وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين .

وحكي أن تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم بتهجد فيها حتى أصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع .

ومرَّ حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعينك ! لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل ، فيحرم عليه فعله . مثال ذلك : ما حكي أن رجلاً من بني إسرائيل ، وضع يده على فخذ امرأة ، فوضعها في النار حتى شلت ، وأن آخر حوَّل رجله لينزل إلى امرأة ، ففكر وقال : ماذا أردت أن أصنع ؟

---

(١) حائط : أي بستان .

فلما أراد أن يعيد رجله قال : هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وأن آخر نظر ألى امرأة فقلع عينيه ، فهذا كله محرم ، وإنما كان جائزاً في شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا حملهم على ذلك الجهل بالعلم ، كما حكي عن غزوان الزاهد : أنه نظر إلى امرأة فلطم عينه حتى نفرت .

وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً ، وأنه وجد في نفسه توقفاً عن الغسل ، فآلى ألا يغتسل إلاَّ في مرقعته ، وأن لا ينزعها ولا يعصرها فكانت شديدة الكثافه تزيد على عشرين رطلاً . وهذا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا . وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل في كتابي المسمي ب « تلبيس إبليس » [١] .

المقام الخامس : المجاهدة :

وهو أنه إذا حاسب نفسه ، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيئ من الفضائل ، أو وِرْد من الأَوْرَاد ، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة ، فأحيا الليل كله تلك الليلة. وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد ، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع .

وقال ابن المبارك : إنَّ الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإنَّ أنفسنا لا تواتينا إلاَّ كرهاً .

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين ، وما ورد في فضلهم ويصحب من يقدر عليه منهم ، فيقتدي بأفعاله .

قال بعضهم : كنت إذا اعترتني فترة [٢] في العبادة إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعاً . وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر ، وحج مسروق فما

---

(١) تلبيس إبليس للإمام الجليل ابن الجوزى ، وليس للإمام الغزالى .

(٢) فترة : أى ضعف .

نام إلا ساجداً . وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز ، ويقرأ بينهما خمسين آية . وكان كرزبن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات ، وكان عمر بن عبد العزيز وَفَتْحٌ المَوْصِلِي يبكيان الدم ، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة[1] وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند إلى حائط ، ولم يمد رجله ، فقال له أبو بكر الكتاني : بم قدرت على هذا ؟ قال : علم صدق باطني فأعانني على ظاهري . ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت : إنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيئ لم يدركه غداً والله يا إخوتاه ! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي ، ولأصومن له في أيام حياتي ، ولأبكين ما حملت الماء عيناي .

ومن أراد أن ينظر في سير القوم ، ويتفرج في بساتين مجاهداتهم ، فلينظر في كتابي المسمى بـــ « صفة الصفوة » فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى ، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عند سماعه .

المقام السادس : في معاتبة النفس وتوبيخها :

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته .

وقال أنس رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك .

وقال البحتري بن حارثه : دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أحجها وهو يعاتب نفسه ، فلم يزل يعاتبها حتى مات .

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون : فأف لي وتف [2] .

واعلم : أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر ، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها ، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد

---

(١) العتمة : أي العشاء .

(٢) الأف : وسخ الأذن ، والتف : وسخ الأظفار ، وهي عبارة تقال عند كل شئ مستقذر .

ذلك ، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة ، فلا تغفلن عن تذكيرها . وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول : يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار ؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غد ! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد ، ولا يتوقف على سن دون سن ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت لله فما لك لا تستعدين للموت وهو قريب منك ؟! يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك ! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد رقاعتك [1] ، وأقل حياءك ! ألك طاقة على عذابه ؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام ، أو قربي أصبعك من النار . يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات ، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ، ورب أكلة منعت أكلات .

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر ؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصب ثلاثة أيام لتنعم طول العمر ؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً ؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر ، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري ! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول ، أم النار في الدركات ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه ؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها ، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه هلا تركت الدنيا لخسة شركائها ، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها ؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقي ؟ قد ضاع أكثر البضاعة ، وقد بقيت من العمر صبابة[2] ، ولو استدركت ندمت على ما ضاع ، فكيف إذا أضفت الأخير إلى

---

(١) فما أشد رقاعتك : أى حماقتك .

(٢) الصبابة : بالضم : بقية الماء فى الإناء .

الأول ؟ اعملي في قصار لأيام طوال ، وأعدي الجواب للسؤال . اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون اضطرار . إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر . تفكري في هذه الموعظة ،فإن عدمت تأثير ها ، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة .

* * *

باب التفكر

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز ، وأثنى على المتفكرين بقوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْق السموَات والأَرض رَبنَا مَا خَلَقتَ هَذَا بَاطلاً ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال : ﴿ إن في ذلكَ لآيات لقَوْمٍ يتفَكرون﴾ [الرعد : ٣] .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » (١) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، وما فهم إلا علم ، وما علم إلا عمل .

وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه .

وقال الفريابي في قوله تعالى : ﴿ سأَصْرفُ عَنْ آياتي الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرض بغَير الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] ، قال : أمنع قلوبهم من التفكر في أمري .

وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء ، فتفكر في ملكوت السموات والأرض، فوقع في دار جار له ، فوثب عرياناً وبيده السيف ، فلما رآه قال : يا داود ما الذي ألقاك ؟ قال : ما شعرت بذلك .

وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها ، بل لينظر بها إلى الآخرة .

---

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٠١ (٣٣٤٨) وعزاه لأبي الشيخ ، والطبراني في الأوسط ، وابن عدى في الكامل ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، ورمز له بالضعف وانظر شعب الإيمان للبيهقي رقم ١٢٠ .

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وقال أبو بكر الكتاني : روعة عند انتباهة من غفلة ، وانقطاع فى حفظ ، نفساني وارتعاد من خوف قطيعة ، أفضل من عبادة الثقلين .

بيان مجاري الفكر وثمراته

واعلم : أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين ، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره ، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، وشرح ذلك يطول . فلينظر الإنسان في أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله ، والمقربة إليه .

وينبغى لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجمله الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ، فإن إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام وشره الوقاع ، وحب المال ،وحب الجاه .

ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخُلق مع الخَلْقِ ، وحب الله تعالى ، والخشوع .

فهذه عشرون خصلة : عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة ، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر الله تعالى على كفايته إياهاا. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ثم يقبل لى التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى على الجميع . وكذلك يطالب نفسه بالتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها ، كالتوبة والندم مثلاً ، خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين ، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة ، كأكل الشبهات ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط في موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ، والمداهنة في ترك

الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإذا أكثر من بعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم تطهر الجوارح من الآثام ، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره .

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها . مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس ،أو بالوعظ . ومن فعل ذلك ، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون . وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء ، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها ، وهو مغرور فيها .

ومن أحس من نفسه هذه الصفات ، فالواجب عليه الانفراد والعزلة ، وطلب الخمول والمدافعه للفتاوى فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى ، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه . وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس ، فإنهم قد يقولون : هذا سبب لاندراس العلم ، فليقل لهم : دين الإسلام مستغن عني ، ولومت لم ينهدم الإسلام وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي ، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يُرضاه عنا .

فصل [في أن التفكر في ذات الله ممنوع منه]

قد تقدم أن النبي ﷺ قال : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » (١) فالتفكير في ذاته سبحانه ممنوع منه ، وذلك أن العقول تتحير في ذلك ، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكير ، أو تتوهمه القلوب بالتصوير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيءٌ وَهُوَ السميعُ البَصيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فأما التفكير في مخلوقات الله تعالى ، فقد ورد القرآن بالبحث على ذلك كقوله تعالى : ﴿ إن في خَلْقِ السموات والأَرْض واخْتلاف اللّيل وَالنهَار لآيات لأولي

---

(١) سبق تخريجه أول الباب عن ابن عمر . وله شواهد عن ابن عباس رواه أبو الشيخ وسنده ضعيف وعن أبي ذر ، رواه أبو الشيخ وسنده ضعيف .
انظر الجامع الصغير ٢٠١/١

الألْبَاب﴾ . . . الآيات [آل عمران : ١٩٠] . وقوله **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا في السموات والأرض﴾** [يونس : ١٠١] .

ومن آيات الله تعالى : الإنسان المخلوق من نطفة ، فيتفكر الإنسان في نفسه ، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك . وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه ، فقال : **﴿وَفي أنْفُسكُمْ أفَلاَ تبُصرونَ﴾** [الذاريات : ٢١] . وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك .

ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال ، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها ، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها . ومن آياته البحار العظيمه العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض . ولو جمع المكشوف من الأرض ، من البراري ، والجبال ، لكان بالإضافة إلي الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر .

وانظر كيف خلق اللؤلؤ ، ودوره في صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء ، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء ، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربه ماء ، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها ومنع خروجها لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها ، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ، ثم انظر إلى شدته وقوته وانظر إلى عجائب الجو ، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطروالثلج والبرد والشهب والصواعق ، وغير ذلك من العجائب وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء ، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها ، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه وانظر إلى إيلاج الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وانظر مسير الشمس ، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل : إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات ، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد ، فالنظر إلى كثرة الكواكب ، وإلى السماء التى فيها الكواكب وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه ، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك ، ولا تتفكر في بناء خالقك فلقد نسيت نفسك وربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك ، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها ، ،كيف بنته وما جمعت فيه ، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه ، فهكذا أنت في غفلتك ، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك .

فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين ، والأعمار تقصر ، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات ، إلا أنك كلما استكثرت معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم . فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر . فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه ، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في البعض ، لا من حيث ارتباطها بسبب الأسباب ، شقي . نعوذ با.لله من مزلة أقدام الجهال ، ومن الركون إلى أسباب الضلال ، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن ، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم .

* * *

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم : أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإن ذكره كرهه ونفر منه ، ثم الناس إما منهمك ، أو تائب مبتدىء ، أو عارف منتبه .

فأما المنهمك فلا يذكره ، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه ، ويشتغل بذمه وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً .

وأما التائب ، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت . ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره ، فهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

وأما العارف ، فإنه يذكر الموت دائماً ، لأنه موعد لقاء الحبيب ، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه . وهذا في غالب الأمر يستبطيء مجيئ الموت ، ويحبه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة [(٢)] .

فإذن التائب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاً ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره .

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت » [(٣)] .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأحسنوا عليه الثناء

---

(١) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى ، وأبى هريرة .

(٢) الفاقة : الحاجة والفقر .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٤/ ٤٧٩ (٢٣٠٧) وقال : حسن غريب . وأحمد فى المسند : ٢/ ٢٩٣ .

فقال النبي ﷺ : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ » قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال : « فإن صاحبكم ليس هناك » [١] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ سئل : أي المؤمنين أكيس ، قال : « أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم استعداداً له أولئك هم الأكياس » [٢] .

وقال الحسن البصري : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها .

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامه ثم يبكون ، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وكان حامد القيصري يقول : كلنا قد أيقن الموت ، وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تفرحون ؟! وما عسيتم تنتظرون ؟! الموت ، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر ، فيا إخوتاه ! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً .

وقال شميط بن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه ، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

واعلم : أن خطر الموت عظيم ، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل ، فلهذا لا ينجع [٣] فيه ذكر الموت والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة [٤] مخطرة ، أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك، وانفع طريق في ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

---

(١) أخرجه ابن إبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال : أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغاً بزيادة فيه .

انظر المغنى على هامش الإحياء ٤/ ٤٧٩

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٢/ ١٤٢٣ (٣٢٥٩) من حديث ابن عمر ، وفي الزوائد : فيه فروه بن قيس مجهول ، وكذا الراوى عنه . وخبره باطل .

(٣) لا ينجع : أى لا يؤثر .

(٤) الفلاذة : أرض فلاة ليس بها زرع ولا ماء .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكر الموتى ، فعد نفسك كأحدهم .

وينبغي أن يكثر دخول المقابر ، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا ، فليتفكر في الحال أنه لا بد من مفارقته ، ويقصر أمله .

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » (١) ، وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وفي حديث آخر : « إن أخوف ما أخاف على أمتي : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة » (٢) .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟» قالوا : نعم يا رسول الله ؟ قال : « قصروا الأمل ، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم ، واستحيوا من الله عَزَّ وجَلَّ حق حيائه » (٣) .

وعن أبي زكريا التيمي قال : بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام ، إذ أتي بحجر منقوش ، فطلب من يقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم ! لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، فبان منك الولد والنسب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

واعلم : أن السبب في طول الأمل شيئان :

أحدهما : حب الدنيا ، والثاني : الجهل .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٤٧ (٦٤١٦) عن ابن عمر ، والترمذي وابن ماجه وأحمد ٢/ ٢٤ .

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني على هامش الإحياء ٤/ ٤٨١ أخرجه بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل . وقال : رواه أيضاً من حديث جابر بنحوه ، وكلاهما ضعيف .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الدنيا عن الحسن مرسلاً ، هكذا قال الحافظ العراقي في المغنى ٤/ ٤٨٢

أما حب الدنيا فإنَّ الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة ، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدر قربه . فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوَّف [١] بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو يرجع من هذه السفرة . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته .

وأكثر صياح أهل النار من « سوف » يقولون : واحسرتاه ! من « سوف » . وأصل هذه الأماني كلها ، حبُّ الدنيا والأنس بها ، والغفلة عن قول النبي ﷺ : «أحبب ما شئت فإنك مفارقة » [٢] .

السبب الثاني : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتي فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو

---

(١) التسويف : أى التأخير .

(٢) ذكره السيوطي في الجامع ١/ ١٢ (٨٩) وعزاه للشيرازي في الألقاب . والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن سهل بن سعد ، والبيهقي عن جابر ، وأبى نعيم في الحلية عن على ، ورمز له السيوطي بالصحة .

وانظر كشف الخفا للعجلوني ٢/ ٧٧ (١٧٣١) .

مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ، لعظم ذلك عنده واستعد للموت .

فصل [في تفاوت الناس في طول الأمل]

والناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم ، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ، ومنهم من هو قصير الأمل ، فروي عن أبي عثمان النهدي أنه قال : بلغت ثلاثين ومائة سنة ، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو .

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت : كان يقول لي - يعني أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا ، واصنعي كذا وكذا ، فقيل لها : أري رؤيا ؟ قالت : هكذا يقول كل يوم .

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لي أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثتني نفسي أن أرجع إليه .
وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وعن محمد بن أبي توبة قال : أقام معروف الصلاة ثم قال لي : تقدم ، فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل ، وكلما قصر الأمل جاد العمل ، لأنه يقدر أن يموت اليوم ، فيتسعد استعداد ميت ، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة ، وقد أنه يموت تلك اليلة فيبادر إلى العمل .

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففي « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ » [1] .

وعنه : أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس :

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٣٣ (٦٤١٢) عن ابن عباس . ولترمذى وابن ماجه والدارمى وأحمد ١/٢٥٨ .

شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك » [1] .

وقال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير ، إلا ما كان من أمر الآخرة .

وكان الحسن يقول : عجباً لقوم أمروا بالزاد ، ونودي فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وقال سحيم مولي بني تميم : جلست إلى عبد الله بن عبد الله ، فأوجز في صلاته، ثم أقبل عليَّ وقال : أرحني بحاجتك ، فإني أبادر . فقلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت . وكان يصلي كل يوم ألف ركعة .

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن ، فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي ، ثم يغفي إغفاء الطير ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، ثم يغفي إغفاء الطير ثم يقوم يصلي ، يفعل ذلك مراراً . وكان عمير بن هانيء يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة ، وقال أبو بكر بن عياش : ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

فصل
في ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم : أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول سوى الموت لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ، وتطول فيه فكرته . والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات ، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات ، لكدرت عليه عيشه ولذته ، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو غافل عن ذكر ذلك ، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

اعلم : أن الموت أشد من ضرب السيف ، وإنما يصيح المضروب ، ويستغيث لبقاء

---

(١) ذكره السيوطي في الجامع ١/ ٧٧ (١٢١٠) وعزاه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وأحمد في كتاب الزهد ، وأبي نعيم والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلاً ، ورمز له السيوطي بالحسن .
وانظر المستدرك ٤/ ٣٠٦

قوته ، وأما الميت عند موته ، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه ، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة . وتجذب الروح من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً ، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، حتى تبلغ الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر » [1] .

وقد روي أن الملكين الموكين بالعبد يتراءيان له عند الموت ، فإن كان صالحاً أثنيا عليه ، وقالا : جزاك الله خيراً ، وإن كان صحبهما شراً ، قالا : لا جزاك الله خيراً[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عَزَّ وجَلَّ وكلّ بعبده المؤن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : قد مات ، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء ؟ قال : فيقول الله تعالى : إن سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني . فيقولان : فتأذن لنا فنقيم في الأرض ؟ فيقول الله تعالى : إن أرضي مملوءة من خلقي، يسبحوني ، فيقولان : فأين نقيم ؟ فيقول : قوماً على قبر عبدي ، فسبّحاني واحمداني وكبراني وهللاني ، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الأهوال » [3] .

وقد كان كثير من السَلَف يخافون سوء الخاتمة ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف وهو لائق بهذا المكان ، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، وأن يلطف بنا ، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٥/ ٥١١ (٣٥٣٧) وقال : حسن غريب عن ابن عمر .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بغير إسناد عن وهب بن الورد بلاغاً .

(٣) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت .

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر ، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة ، والسكون من علامات اللطف ، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير ، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحاً . ويستحب تلقينه : لا إلَه إلا الله ، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم : « لقنوا موتاكم لا إلَه إلا الله »(١) .

وينبغي للملقن أن يرفق به ، ولا يلح عليه . وقد جاء في حديث آخر : «احضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إلَه إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإنَّ الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك المواطن . . . »(٢) ، وذكر الحديث إلى آخره .

وفي الحديث الصحيح : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »(٣) .

وروي أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو يموت فقال : «كيف تجدك » ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال : « ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطه الله الذي يرجو ، وأمَّنه من الذي يخاف »(٤) .

والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به ، وعند الموت يقف البصر فينبغي أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه ، ويخوفه فيما بين يديه ، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو .

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت : يا بني ! حدثني بالرخص ، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به .

* * *

(١) صحيح أخرجه مسلم وغيره وقد سبق .
(٢) ضعيف : أخرجه أبو نعيم في الحلية عن واثلة ٥/ ١٨٦
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢٢٠٥ (٨١ عن جابر . وأحمد : ٣/ ٢٩٣ .
(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز ٣/ ٣١١ (٩٨٣) وقال : حسن غريب من حديث أنس .

باب ذكر وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين

اعلم : أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله ، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلي الله تعالى منه ، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله .

وقد لقي ﷺ من الموت شدة ، فروي البخاري في « صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة أو علبة فيه ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات » [1] .

وفي « صيحح البخاري » من حديث أنس رضي الله عنه قال : لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه ! فقال لها : «ليس على أبيك كرب بعد اليوم » [2] .

وروي ابن مسعود قال : اجتمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها ، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فدمعت عيناه ، فنعى إلينا نفسه وقال : « مرحباً، حياكم الله بالسلام حفظكم الله ، رعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله، وفقكم الله ، نفعكم الله رفعكم الله ، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم » . قلنا : يا رسول الله : متى أجلك ؟ قال : « قد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله ، وإلى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى » . قلنا : يا رسول الله ! ففيم نكفنك ؟ قال : « في ثيابي هذه إن شئتم ، أو يمنية ، أو بياض » . فقلنا : يا رسول الله ! من يصلي عليك ؟ وبكينا ، فقال : « مهلاً ، رحمكم الله وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتموني وكفنتموني ، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي عليَّ خليلي وحبيبي جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ثم ملائكة كثيرة ، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً ، فصلوا عليَّ وسلموا تسليماً ، ولا توذوني بتزكية ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٦٩ (٦٥١٠) من حديث عائشة .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٧/ ٧٥٥ (٤٤٦٢) . وأحمد : ٣/ ١٤١ .

برنة ، ولا بصيحة ، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرؤوا السلام على من غاب عني من أصحابي ، وعلى من تابعني على ديني إلى يوم القيامة ، ألا وإني أشهدكم أني قد سلمت على كل من دخل في الإسلام»[1] .

ولقد دحل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال : يا محمد ؟ إن الله أرسلني إليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول : كيف تجدك ؟ فقال : « أجدني يا جبريل مغموماً ، وأجدني مكروباً » ثم أتاه في اليوم الثاني ، فأعاد الكلام ، وأعاد عليه الجواب ، ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الجواب ، فإذا ملك الموت يستأذن ، فقال جبريل : يا أحمد ! هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمي قبلك ، ولا يستأذن على آدمي بعدك ، فقال : « ائذن له » فدخل، فوقف بين يديه وقال : إن الله أرسلني إليك : وأمرني أن أطيعك ، فإن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتني أن أتركها تركتها ، قال رسول الله ﷺ : «وتفعل يا ملك الموت ؟ » قال : كذلك أمرت أن أطيعك . فقال جبريل : يا أحمد! إن الله قد اشتاق إليك . فقال : « فامض لما أمرت به يا ملك الموت » ، فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطني في الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا .

فتوفي رسول الله ﷺ مستنداً إلى صدر عائشة رضي الله عنها في كساء ملبّد ، وإزار غليظ ، وقامت فاطمة رضي الله عنها تندب وتقول : يا أبتاه ! أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه ، يا أبتاه ! من ربه ما أدناه فلما دفن قالت : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ! .

وقال أبو بكر رضي الله عنه :

لمـــا رأيـــت نبينـــا متجـــــدلاً [2]   ضاقت عليَّ بعرضهن الدور

---

(١) حديث إسناده ضعيف جداً رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى والطبراني في الدعاء ، والواحدي في التفسير .

وانظر المغني على هامش الإحياء ٤/٤٩٨ - ٤٩٩

(٢) متجدلاً : أي ملفوفاً في الكفن .

وارتعت روعة مستهام [١] وإله[٢] ... والعظم مني واهن مكسور

أعتيق ويحك إن حبّكَ قد ثوى ... وبقيت منفرداً وأنت حسير

يا ليتني من قبل مَهْلك صاحبي ... غُيِّبْتُ في جَدثٍ [٣] عليَّ صخور

* * *

وفاة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه

روي أبو المليح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضي الله عنه فقال : إني أوصيك بوصية ، إن أنت قبلت عني : إن لله عَزَّ وجَلَّ حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا ، وثقلت ذلك عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم في الدنيا وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرجاء ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن أنت حفظت وصيتي هذه ، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، ولا بد لك منه وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولا بد لك منه ولست تعجزه .

وقيل : لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لَعمْرُك ما يُغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت [٤] يوماً وضاق بها الصدر

---

(١) مستهام : أى ذاهب العقل من لوعة فراق الحبيب .

(٢) الوله : ذهاب العقل من شدة الحزن ، وقيل الحزن .

(٣) الجدث : أى القبر

(٤) الحشرجة : الغرغرة عند خروج الروح من الجسد .

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولي : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد ﴾ [سورة ق : ١٩] . انظروا ثوبيَّ هذين ، فاغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت .

* * *

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وعن ابن عمر قال : كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن ، وكان مرضه الذي توفي فيه ، فقال : ضع خدي على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض ؟ وظننت أن ذلك تبرم به ، فلم أفعل ، فقال : ضع خدي على الأرض لا أم لك ، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي .

وروي أنه لما طعن وحمل إلى بيته ، وجاء الناس يثنون عليه ، جاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشري من الله لك ، صحبة من رسول الله ﷺ ، وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم ولِّيت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافاً ، لا ليَّ ولا عليَّ ، ثم قال : يا عبد الله بن عمر ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه . فمضى وسلم واستأذن عليها ، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : عمر يقرأ عليك السلام ، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي . فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاءه ، قال : ارفعوني فأسنده رجل إليه ، فقال : ما وراءك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أحب إلى من ذلك ، فإذا أنا مت فاحملوني ، ثم سلم ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت ، فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين .

وفي أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة ،أن عمر قال : « واللهِ لو أن لي طلاعَ الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه » (1) .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ٧/ ٥٢ - ٥٣ (٣٦٩٢) .

وفي خبر آخر : واللهِ لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع .

* * *

وفاة عثمان بن عفاه رضي الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه ، قالت : لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان ، ظل في اليوم الذي قبله صائماً ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيتُ جاراتٍ لي على أجاجير [1] متصلة ، فسألتهم الماء العذب ، فأعطوني كوزاً من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت : هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر ، فقال : إني قد أصبحت صائماً ، وإن رسول الله ﷺ اطلع عليَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب فقال : « اشرب يا عثمان » ! فشربت حتى رويت ، ثم قال : «ازدد » فشربت حتى نهلت ، ثم قال : « إن القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلتهم ظفرت ، وإن تركتهم أفطرت عندنا » . قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه .

وعن العلاء بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى .

* * *

وفاة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

عن الشعبي ، قال : لما ضرب عليٌّ رضي الله عنه تلك الضربة ، قال : ما فعل بضاربي ؟ قالوا : أخذناه ، قال : أطعموه من طعامي ، واسقوه من شرابي ، فإن أنا

---

(١) أجاجير : جمع إجار وهو السقف .

عشت رأيت فيه رأيي ، وأنا أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغالي في الكفن ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً » [1] ، امشوا بي المشيتين لا تسرعوا بي ، ولا تبطئوا ، فإن كان خيراً عجلتموني إليه ، وإن كان شراً ألقيتموني عن أكتافكم .

وروي أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها عليّ رضي الله عنه أتاه ابن السياج حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول :

أشدد حيازيمك[2] للموت ... فإن الموت لاقيك
ولا تجـــزع مـن المـوت ... وإن حل بناديـك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه .

* * *

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم

لما نزل الموت بالحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال : أخرجوا فراشي إلى صحن الدار ، فأخرج فقال : اللَّهم إني أحتسب نفسي عندك ، فإني لم أصب بمثلها .

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم .

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال : انظروا هل أصبحنا ؟ فأتي فقيل : لم تصبح ، حتى أتي في بعض ذلك ، فقيل له : لقد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، ثم قال : مرحباً بالموت زائر مغيب ، وحبيب جاء على فاقة ، اللَّهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللَّهم إنك تعلم أني لم أكن

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز ١٩٦/٣ (٣١٥٤) عن عامر الشعبي عن الإمام على وإسناده منقطع لأن الشعبى لم يسمع من الإمام عليّ .

(٢) أشدد حيازيمك : أى وطن نفسك

أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار [١] ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وقال أبو مسلم : جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه ؟ ثم قبض رحمه الله .

وبكى سلمان الفارسي عند موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب [٢] ، وحولي هذه الأزواد. وقيل : إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة [٣] .

وروي المزني قال : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عمي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولـمـــا قســـا قلـبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني بعفوك سلما

تعاظمـــني ذنبـــي فلـــما قـــرنتُه ... بعـــفوك ربي كان عفوُك أعظما

وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجـــود وتعفـــو مـــنه وتكرما

قيل : كان أبو الدرداء رضي الله عنه عنه يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكِّروني معادي ، وإن غبت لم يغتابوني .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم

---

(١) كرى الأنهار : أى حفرها .

(٢) أخرجه الترمذي في اللباس ٤/ ٢١٥ (١٧٨٠) عن عائشة وضعفه . وأحمد : ٥/ ٤٣٨ .

(٣) الإجانة : إناء يجمع فيه الماء .

الجفنة : القصعة يوضع فيها الماء أو الطعام .

المطهرة : إناء يتطهر فيه .

ثم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات[1] ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلاً في أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله تعالى .

وتُستحب زيارة القبور ، فإن النبي ﷺ قال : « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخر »[2] ، ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت ، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له ولتكن الزيارة يوم الجمعة .

وقد روي أنه لما مات عاصم الجحدري رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بسنتين فقال له : ألست قد مُتَّ ؟ قال : بلى . قال : وأين أنت ؟ قال عاصم : أنا والله في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني نتلاقي أخباركم ، قال : قلت له : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إيَّاكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت : وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعظمه .

وحكى عثمان بن سواد الطفاوي وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا ذخري ويا ذخيرتي ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي ، لا تخذلني عند الموت ، ولا توحشني في قبري . قال : فماتت ، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها ، وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها : يا أماه ! كيف أنت ؟ قالت : يا بني ! إن الموت لكرب شديد ، وأنا بحمد الله في برزخ محمود ، يفترش فيه الريحان ويتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور . فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإني لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من

---

(١) المثلات : النقم والعقوبات .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز ٢/ ٦٧٢ (١٠٦) عن بريدة . والترمذى برقم ١٠٥٤ وقال حسن صحيح واحمد : ١/ ١٤٥ .

أهلك ، فيقال لي : يا راهبة ! هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات .

وعن أنس بن منصور قال : كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال ذلك الرجل : فأمسيت ذات ليلة ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينا أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاؤني فقلت : من أنتم ؟ وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، إنك كنت عودتنا منك هدية . فقلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعو بها . قلت : فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد .

وقال بشار بن غالب : رأيت رابعة في منامي ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لي : يا بشار ! هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم ، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتي به إلى الذي دعي له من الموتى ، فقيل له : هذه هدية فلان إليك .

* * *

فصل [في حقيقة الموت]

والذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت ، هو مفارقة الروح للجسد ، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية ، إما معذبة أو منعمة ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها ، يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، كل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد . ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده .

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم .

فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به ، ويستريح إليه ، عظم حسرته عليه بعد الموت وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به ، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى .

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم ، الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخاص من تلك الحسرة ، وكل ذلك ينكشف له عند الموت ، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن ، نسأل الله العافية .

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت ، قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] . قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، وذكر تمام الحديث . وجاء في قوله تعالى : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٦] . أخبر أنهم يعذبون بعد الموت .

وفي « الصحيحين » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحدكم إذا مات ، عرض عليه مقعدة بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » (١) .

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً ، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر : مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٣٦٩ (٦٥١٥) . ومسلم فى الجنة ٤/ ٢١٩٩ (٦٥) .

سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح في الأرض ، ويتقلب فيها . وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن ، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف فيه أنواع الأشجار ، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه .

وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه .

* * *

فصل [في ذكر القبر]

روي عن النبي ﷺ أنه قال : « القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار » (١) .

وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ! ما غرك ؟! ألم تعلم أني بيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ » .

وروي الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكثرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليَّ ، فإذا وليتك اليوم وصرت إليَّ ، فسترى صنيعي بك ، فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليَّ ، فإذا وليتك اليوم، وصرت إليَّ ، فسترى صنيعي بك ، قال : فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٥١ (٢٤٦) . عن أبى سعيد وقال : حديث غريب .

وقال رسول الله ﷺ بأصابعه ، فأدخل بعضها في بعض قال : ويقيض له سبعون تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهشه ويخدشنه ، حتى يقضي به إلى الحساب » . قال رسول الله ﷺ : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

وقال كعب : إذا وضع الرجل الصالح في قبره ، استوحشته أعماله الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، والصدقة . وقال : وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بي القيام لله عَزَّ وجَلَّ ، قال : فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال بي الصيام . قال : فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجاهد لله عَزَّ وجَلَّ ، لا سبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً ، وطبت ميتاً . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرشه فراشاً في الجنة ودثاراً من الجنة ، فيفسح له في قوة مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وعن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقولان : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله عَزَّ وجَلَّ به مقعداً في الجنة . قال رسول الله ﷺ : فيراهما جميعاً . وأما الفاجر أو المنافق فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » أخرجاه في « الصحيحين » [(١)] .

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: « أوحي إليَّ أنكم

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك . أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٤٤ (١٣٣٨) ومسلم فى الجنة ٤ / ٢٢٠٠ (٧٠) .

تفتنون في قبوركم مثل - أو قال قريباً من - فتنة المسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ... » وذكر باقي الحديث [١] .

وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها ، التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره ، ولو كان منفلتاً منها أحد لأنفلت سعد بن معاذ .... » [٢] . وذكر باقي الحديث .

وعن عبد الله الصنعاني قال : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : تقبل مني الحسنات ، وتجاوز عني السيئات . قلت: وما كان بعد ذلك ؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم ، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة ، قلت : بم نلت الذي نلت ؟ قال : بمجالس الذكر ، وقولي الحق وصدقي في الحديث ، وطول قيامي في الصلاة ، وصبري على الفقر ، قلت : منكر ونكير حق ؟ قال : أي والله الذي لا إلَه إلا هو ، لقد أقعداني وسألاني : من ربك؟ وما دينك ، ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب ، وقلت : مثلي يسأل ؟! أنا يزيد بن هارون الواسطي ، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس ؟ فقال أحدهما : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا روعة عليك بعد اليوم .

وقال المروزي : رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة ، وعليه حلتان خضروان، وعلى رأسه تاج من النور ، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له ، فقلت: يا أحمد ! ما هذه المشية التي لم أكن أعهدها لك ؟ فقال : هذه مشية الخدام في دار السلام . فقلت : وما هذا التاج الذي أراه على رأسك ؟ فقال : إن ربي عَزَّ وجَلَّ أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وكساني وحباني وقربني ، وأنا أنظر إليه ، وتوجني بهذا التاج وقال لي : يا أحمد ! هذا تاج الوقار توجتك به ، كما قلت : لقرآن كلامي غير مخلوق .

---

(١) متفق عليه من حديث أسماء بنت أبى بكر . أخرجه البخارى فى العلم ١/ ٢١٩ (٨٦) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٥٥ ، ٩٨ نحوه عن عائشة وأخرج النسائى نحوه عن ابن عمر في كتاب الجنائز . ٤/ ١٠٠ - ١٠١ .

فصل [في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار]

قد أشرنا إلى أهوال القبر ، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط ، وهذه أهوال يجب الإيمان بها ، وينبغي تطويل الفكر فيها وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة ، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات ، ثم قيل له : إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم ، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك ، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب ، يزيد على بعثه وإعادته . وكيف ينكر ذلك - من قدرة الله تعالى وحكمته - من يشاهد البداية ؟ فإن كان في إيمانك ضعف ، فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوي الأيمان بها ، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، وليحثك ذلك على الجد والتشمير . وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور . فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء . قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته ، وأصغى بسمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ ؟! » قال المسلمون : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل وتوكلنا على الله » (١) . ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة ، فيساقون بعد البعث حفاةً عراةً إلى أرض المحشر ، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الإنسان بفنائها.

وفي « الصحيحين » قال النبي ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقى » (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٣٦ (٢٤٣١) عن أبى سعيد وقال : حديث حسن . وأحمد ٣/ ٧.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٣٧٩ (٦٥٢١) . ومسلم ٤/ ٢١٥٠ (٢٨) .

وعفراء : أى بيضاء إلى حمرة .

والنقى : هو الدقيق الحوارى وهو الدرمك وهو الأرض الجيدة . قال القاضى : كأن النار غيرت بياض وجه هذه الأرض إلى حمرة .

ثم تفكر في ازدحام الناس ، وقرب الشمس من رؤوسهم ، وشدة العرق ، مع ما في القلوب من القلق .

وفي الحديث : « إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم » (١) .

وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » (٢) .

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » (٣) .

وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر رضي الله عنه ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوي يوم القيامة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عَزَّ وَجَلَّ يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ١٨] أخرجاه في « الصحيحين » (٤) .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز ؟ » (٥) .

وفيهما أيضاً ، عن النبي ﷺ قال : « يؤتي بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم قالوا : يا رسول الله ! ما الجسر ؟ قال : مدحضة مزلة ، عليها خطاطيف وكلاليب

---

(١) أخرة نحوه الترمذي مطولاً في صفة القيامة ٤/ ٥٣١ (٢٤٢١) عن المقدام وقال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٣٣ (٢٤٢٥) وفيه انقطاع . وأحمد : ٤/ ٤١٤ .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٢٩ (٢٤١٧) وقال : حسن صحيح .

(٤) متفق عليه من حديث صفوان بن محرز .

(٥) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري .

وحسك ، يمر المؤمنون عليه كالطرف ، وكالبرق الخاطف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً »[١].

* * *

ذكر جهنم أعاذنا الله منها

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كنا عند النبي ﷺ يوماً ، فسمعنا وجبة فقال النبي ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهى إلى قعرها » رواه مسلم [٢] .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلُّها مثل حرها » [٣] .

وفي أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » [٤] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلاليب من حديد فإذا دنا منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم ، فيطلبون إلى خزنة جهنم أن ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً منَ العَذَابِ ﴾ فيجيبونهم : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلا في ضَلَالٍ ﴾ [غافر:

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٤٥٣ - ٤٥٤ (٦٥٧٣) . ومسلم فى الإيمان ١/ ١٦٣ (٢٩٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٨٤ (٣١) . وأحمد : ٢/ ٣٧١ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة ٤/ ٢١٨٤ (٢٩) . والترمذى برقم ٧٥٧٣ .

49] فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ فيقول : ﴿إنكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمونَ ﴾ فيقول عَزَّ وجَلَّ : ﴿ اخْسَؤُوا فيهَا وَلا تكلِّمُون ﴾ [المؤمنون : ١٠٧ - ١٠٨] . فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور (١) .

وتفكر في حيَّاتها وعقاربها ، ففي الحديث : « إن حيَّاتها أمثال أعناق البخت وعقاربها كالبغال الموكفة » (٢) .

وعن الحسن : أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا .

واعلم : أن صفة جهنم تطول ، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف ، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك ، وخف ما بين يديك ، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين ، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي ، ويحث على الطاعة . فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال ، وأن يقولوا : استعنا بالله ، نعوذ بالله ، يا رب سلم ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح ، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن ، فيقول : أعوذ بالله من هذا ، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه .

* * *

فصل [في محبة الرسول ﷺ]

وكن في الدنيا محباً لرسول الله ﷺ ، حريصاً على تعظيم سنته ، لعله يشفع فيك في الآخرة ، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم ، ويسأل الله في أهل

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم ٤/٦٠٩ (٢٥٨٦) وقال أبو عيسى : هو من قول أبي الدرداء غير مرفوع .

(٢) أخرجه أحمد في المسند : ٤/١٩١ من حديث عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي . وفي إسناده ابن لهيعة وقد ضعف .

والبخت : الإبل .

والبغال الموكفة : هي البغال التي شُدَّ عليها رحالها .

الكبائر من أمته فينجيهم . واستكثر من الإخوان الصالحين ، فلكل مؤمن شفاعة ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمي ذلك رجاءً ، فإن من رجا شيئاً طلبه ، واحترز من المظالم ، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها ، فإن غرماءه يحيطون به يوم القيامة ، فهذا يقول : ظلمني ، وهذا يقول : استهزأ بي، وهذا يقول : أساء جواري، وهذا يقول : غشني ، فلا خلاص لك من أيديهم . فإذا توهمت الخلاص قيل : لا ظلم اليوم .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «أتدرون ما المفلس » ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : « إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليهم ، ثم طرح في النار » (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (٣) .

وهذه الأحاديث كلها في الصحاح . فانظر وفقك الله إلى بُعْدِ سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة ، فإن سلمت أخذها الخصوم ، فتيقظ لنفسك ولا تفرط في أوقاتك ، فإن المسكين من آثر لذة متقطعة ، واشتري بها عذاباً شديداً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٤٠٣ (٦٥٣٥) . وأحمد : ٣/ ١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٤/ ١٩٩٧ (٥٩) . والترمذي برقم ٢٤١٨ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٤/ ١٩٩٧ (٦٠) . والترمذي برم ٢٤٢٠ .

ذكر صفة الجنة
نسأل الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ؛ حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » (١) .

وفي حديث أسامة بن زيد ، عن النبي ﷺ أنه قال يوماً وذكر الجنة : « ألا مشمر لها ؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت ، في حبور ونعيم ، ومقام في أبد » ، فقالوا : نحن المشمِّرون لها يا رسول الله ، قال: « قولوا : إن شاء الله » (٢) .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « إن الله عَزَّ وجَلَّ قال : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٣) .

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبى ﷺ أنه قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ومجامرهم الألوَّة الألنجوج (٤) ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء » (٥) .

وفي رواية أخرى : « لكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة ٤/ ٥٨٠ (٢٥٢٦) وضعفه . وأحمد : ٢/٣٠٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٢/١٤٤٨ (٤٣٣٢) عن أسامة بن زيد ، وفي الزوائد : في إسناده مقال .

والحبور : أى سعة العيش .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) الألوة : بفح الهمزة وضمها ، وهو العود الذي يتبخر به .

والألنجوج : نوع من أنواع البخور أيضاً .

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٦/٤١٧ (٣٣٢٧) . ومسلم ٤/٢١٧٩ (١٥) .

من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً » .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (١) .

أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » (٢) .

واعلم : أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن ، ثم جمعه في آيات . منها قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف : ٧١]، وقوله : ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقوله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] .

وصفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى . وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل : يا رسول الله ؛ هل نرى ربنا ؟ فقال : « فهل تضامون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » (٣) .

* * *

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عَزَّ وجَلَّ ، نرجو بذلك فضله ، إذ ليس لنا

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعرى .

(٢) متفق عليه من حديث أبى موسى أيضاً .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

أعمال نرجو بها العفو ، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسرفوا عَلَى أَنفُسِهم لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله عزَّ وجَلَّ الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في « الصحيحين » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن لِلَّه عَزَّ وجَلَّ مائة رَحْمة ، أنزَل منها رَحْمة واحدة بين الإِنْسِ وَالجنِّ وَالهَوَامّ وَالبهائم ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَعطفُ الوحْشُ عَلَى أولادِهَا . وأخَّر تِسْعاً وَتِسعينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَة » (٢) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم تبارك وتعالى رحيم ، من همَّ بحسنة فلم يَعْمَلَها كُتِبَتْ لَه حَسَنة ، فإن عَمِلَهَا كُتِبَت لَهُ عَشْر حَسَنَات إلى سبعمائة ضِعْف ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حَسَنَة ، فإن عملها كُتبت له سَيئة واحدة أو يَمْحُوها الله ، ولا يَهْلِكُ عَلَى الله تَعَالَى إلا هَالك » (٣) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة ، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » (٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أن رجلاً أذنب ذنباً فقال : أي رب ! أذنبت ذنباً فاغفر لي ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أي

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في اتوبة ٢١٠٨/٤ (١٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٣٣١ (٦٤٩١) . ومسلم في الإيمان ١/ ١١٨ (٢٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٣٩٥ (٧٤٠٥) . ومسلم في التوبة ٤/ ٢١٠٢ (١) عن أبي هريرة .

رب ! عملت ذنباً فاغفره لي ، فقال عزّ وجلّ : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أي رب ! عملت ذنباً فاغفر لي ، فقال : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ، فليعمل ما شاء »[١] . هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفي « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي ، وإذا امرأة من السبي تسعى ، إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ، فألصقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذا المرأة طارحة ولدها في النار » ؟ قلنا : لا والله . قال : «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها » [٢] .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «مَا مِنْ عَبدٍ قَالَ : لا إله إلا الله ، ثُم مَات عَلَى ذلك إلا دَخَلَ الجَنَّة » . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ! وإن زنى وإن سرق ! ثم قال في الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » [٣] .

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله حرم النار على من قال : لا إلَه إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله » [٤] .

وفيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير وزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّة »[٥] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كَانَ يوم القيامة

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٤٧٤ (٧٥٠٧) .

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .

(٣) متفق عليه من حديث أبي ذر .

(٤) متفق عليه من حديث عتبان بن مالك .

(٥) متفق عليه من حديث أنس بن مالك .

لم يَبْقَ مُؤْمِن إلا أُتِيَ بِيَهُودِي أَوْ نَصْرَانِي حَتَّى يدفَع إليه فَيُقَال له : هَذَا فِكَاكُك مِنَ النَّار » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عَزَّ وجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً من أُمَّتِي عَلَى رُؤوس الخَلائِقِ يَوْم القِيَامة ، فينشُر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجلٍ منها مدّ البَصر ، ثم يقول : أَتُنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كَتَبَتِي الحَافِظُون ؟ قَالَ : لا يا رب ، فيقول : أَلك عُذْر أو حَسَنَة ؟ فيبهت الرَّجُل ، فيقول : لا يا رب فيقول : بلى ، إن لك عندنا حَسَنَة واحدة ، لا ظُلمَ عليك اليَوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهَد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ ، فيقول : احضروه ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات ، فَيُقَال : إنك لا تُظْلَم ، فتوضَع السِّجلات في كفة والبطاقة في كفة . قال : فطَاشت السِّجلات وثَقُلَت البِطَاقة، وَلا يَثْقُل شيء مع اسم الله عَزَّ وجَلَّ » (٢) .

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً (٣) ، أكان يردهم ؟ فقيل : لا ، فقال : والله المغفرة عند الله عَزَّ وجَلَّ أهون من إجابة رجل لهم بدانق ! .

وعن إبراهيم بن أدهم قال : خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر ، فلم أزل أطوف إلى السحر ، ثم رفعت يدي إلى السماء . فقلت : اللّهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره . فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة ، وكل خلقي يسألني العصمة ، فإذا عصمتك فعلي من أتفضل ؟

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء ، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده . ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله . ونحن نستغفر الله عَزَّ وجَلَّ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا ، ومن كل تصنع تزيَّنا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره ، فبكرمه نستشفع إلى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده ، إنه قريب مجيب .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٤/٢١١٩ (٤٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان ٥/ ٢٥ (٢٦٣٩) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الدانق : سدس الدرهم .

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكريم وجهه عَزَّ وجَلَّ .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً .

❋ ❋ ❋

تم بحمد الله وفضله وتوفيقه
والحمد ﷺ الذي بنعمته تتم الصالحات
وكان الفراغ من تحقيق هذا الكتاب
يوم الجمعة الموافق العشرين من شهر شوال سنة ١٤١٤ هـ
الأول من شهر إبريل ١٩٩٤ م بقرية أويش الحجر مركز المنصورة
والحمد لله أوله وآخرة ، وظاهره وباطنه

❋ ❋ ❋

المحقق
أبو آلاء
كمال على على الجمل

الفهرسة